فقه اللغة ٧٤٠٢٢٠٣

الفصل الدراسي الأول

العام الدراسي ١٤٣١ – ١٤٣٢هـ

د. إبراهيم كايد محمود

نظام التعليم المطور للانتساب

كلية الآداب – قسم اللغة العربية

المحاضرة الأولى

اللغة : تعريفها ، نشأتها ، وظيفتها

- **تعريفها** : اختلف العلماء والباحثون قديماً وحديثاً حول تحديد مفهوم اللغة ، ولم يتفقوا على كثير من قضاياها المختلفة وهو ما أدى إلى اختلاف حول تعريف واحد لها ، ولعل السبب في عدم اتفاقهم حول هذا الأمر هو اتصال اللغة بجوانب الحياة المختلفة مما ترتب عليه ملامستها لعلوم كثيرة ، أهمها : علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الإنسان (الانثروبولوجيا) ، وعلم المنطق والفلسفة ، وعلم التشريح ، وعلم الفيزياء ، وغيرها . مما أدى إلى اختلاف نظرة الباحثين إلى اللغة إذ نظر كل باحث إليها من الزاوية التي تهمه وتخدم مجال تخصصه فنظر فريق منهم إلى اللغة من الناحية العقلية النفسية ، ونظر إليها فريق آخر من الناحية الفلسفية المنطقية ، ونظر إليها فريق ثالث باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وهكذا . ودون كل فريق آراءه حول هذه الظاهرة ووضع لها تعريفاً يتناسب مع فهمه لها ولعل تعريف ابن جنّي (ت:٣٩٢هـ) أكثر التعاريف دقة وشمولاً عند القدماء حيث يقول : " باب القول على اللغة وما هي : أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "إن تحديد ابن جنّي للغة بأنها أصوات ، وليست أي أصوات ، إنها أصوات رمزية معبرة عما في أذهان المتكلمين من معانٍ وأفكار ، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه علماء اللغة المحدثون حيث يرون أن اللغة " نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية أما فندريس فقد قال : " أعم تعريف يمكن أن يعرف به الكلام أنه نظام من العلامات ويجمع أنيس فريحة معظم خصائص اللغة في تعريف واحد يرى أنه أشمل تعريف لها فيقول : " اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ، ثقافية مكتسبة ، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتَسبت عن طريق الاختبار معاني مقرّرة في الذهن وبهذا النظام الرمزي الصوتي ، تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاع

- نشأتها :

اللغة ظاهرة اجتماعية هامة ، عرفها الإنسان منذ بداية حياته وعجز عن تحديد نشأتها ، فمنذ القدم اهتم الباحثون بنشأة اللغة في محاولة لسبر أغوار هذا الموضوع ، فتناولتها الدراسات والبحوث ولم يظفر أي جانب من جوانب اللغة بالاهتمام التي ظفرت به نشأتها ، ولم يتمكن الباحثون قديمًا وحديثًا من الوصول إلى يقين في هذا الأمر أو حقيقة يمكن الاعتماد عليها في تحديد الكيفية التي نشأت اللغة بها ، وفشلت كل محاولاتهم فشلاً ذريعاً ، وأصبح البحث في هذا المجال من

الأبحاث التي لا طائل من ورائها ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى نتيجة علمية مقبولة في هذا المجال مما حدا بالجمعية اللغوية في باريس أن تقرر في أول نظام لها صدر عام ١٨٦٦م " عدم السماح بمناقشة أي بحث من البحوث يتناول أصول اللغة ومع كل ذلك لم ينقطع بعض الباحثين اللغويين في العصر الحديث عن البحث في هذا المجال وأفرد له جزءاً من بحثه ، وقد ظهرت عدة آراء حول نشأة اللغة يمكن ردها إلى النظريات التالية :

١- نظرية التوقيف : تعتمد هذه النظرية على أدلة نقلية ، وتذهب إلى أن اللغة وحي من عند الله ، قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) : " إن لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله – جل ثناؤه – : ((وعلم آدم الأسماء كلها)) " (١) . وهذا النص الذي اعتمد عليه ابن فارس لا يقوم دليلاً على صحة ما أراد فقد يكون تأويله أن الله أقدر آدم على ذلك ، وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين وأشار إليه ابن جني بقوله : " وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملاً سقط الاستدلال به أما القائلون بهذه النظرية من الغربيين فقد اعتمدوا على ما جاء في سفر التكوين من أن " الله جبل من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية " (١) ، وهذا النص لا يدل على شيء مما ذهب إليه أصحاب هذه النظرية ولا يحقق شيئاً مما أرادوا إثباته . .

٢- نظرية الاصطلاح :

تذهب هذه النظرية إلى أن اللغة من صنع الإنسان حدثت بالمواضعة والاتفاق ، ومن أنصار هذا المذهب ابن جنّي الذي تحدث عن أصل اللغة أإلهام أم اصطلاح ، فقال : " هذا موضع محوِج إلى فضل تأمل ؛ غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف " (١) ، وذهب إلى هذا الرأي عدد من علماء العصور القديمة كالفيلسوف اليوناني ديموكريت . ومن علماء العصر الحديث : آدم سميث ، وريد ، ودجلد ستيوارت

ويرى علي عبدالواحد وافي أن هذه النظرية ليس لها ما يدعمها أو يُقرُّ بها ، فليس لها أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي . " بل إن ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها

المتواضعون ، فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هـو نفسه على وجودها من قبل ويحاول ابن جني أن يوضح كيف تم التواضع والاصطلاح فيقول وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون إلى الأبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة لفظاً ، إذا ذُكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره إلى مرآة العين ، لبلوغ الغرض في إبانة حاله " (١) . إلا أن ما ذهب إليه ابن جنّي غير صحيح ، إذ كيف أصبح في المجتمع حكماء دون أن تكون لهم لغة يتفاهمون بها ويُعرف بها الفصيح والحكيم ، وهذا ما ذكره عبده الراجحي بقوله : " إذ كيف وصل هؤلاء الحكماء أن يكونوا "حكماء" وإذا لم ثمة لغة قبل أن يتواضعوا هم على لغة فكيف تم " التفاهم" بينهم على أن يجتمعوا ليتواضعوا

٣- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة Bow-wow: أو نظرية البو- وو

تذهب هذه النظرية إلى أن اللغة نشأت محاكاة وتقليداً لأصوات الطبيعة ، كأصوات مظاهر الطبيعة وأصوات الحيوان والأصوات التي تحدثها الأإعال عند وقوعها كصوت الكسر والضرب والقطع والقلع وغيرها ، ثم تطورت هذه الألفاظ شيئاً فشيئاً وارتقت تبعاً لارتقاء العقل البشري وتقدم الحضارة ، وتعدد حاجات الإنسان إلى أن وصلت اللغة إلى ما هي عليه . وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الباحثين في العصور القديمة ، وقال بها فريق من علمائنا القدماء ، قال ابن جنّي وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل ويبدو أن ابن جنّي كان معجباً بهذه النظرية متحمساً للقول بها فقد تناولها في أكثر من موقع في كتابه فأفرد لها باباً سماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) زعم فيه أن اللفظة صورة من أصوات الطبيعة وتوحي بدلالتها فقال : " اعلم أن هذا موضع شريف لطيف . فقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته . قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومدّاً فقالوا : صرَّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر . وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلَان : إنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نحو النقزان والغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال . ويستمر ابن جنّي في طرح الأدلة المؤيدة لرأيه في محاولة لإثبات أن اللغة نشأت تقليداً لأصوات الطبيعة فيقول : " ومن

وراء هذا ما اللطف فيه أظهر ، والحكمة أعلى وأنصع . وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها ، وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره ، وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب ، وذلك قولهم : بَحَث ، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء لصلحها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفْث والبثّ للتراب . وهذا أمر تراه محسوساً محصلاً ، فأي شبه تبقى بعده أم أي شك يعرض على مثله وقد عرض لهذه النظرية عدد من اللغويين المحدثين كما فعل يسبرسن الذي فسرها بأنها تذهب إلى أن الألفاظ الأولى كانت تقليداً لأصوات الطبيعة ، وذلك كأن يُسمع (نباح) الكلب فيوضع له اسم مأخوذ من صوته الطبيعي ثم يذكر اعتراض رينان ، وماكس مولار ، على هذه النظرية بأنه ليس من المعقول أن يقلد الإنسان أصوات حيوانات أدنى منه وبأن الألفاظ التي يمكن تفسيرها بأنها تقليد لأصوات الطبيعة قليلة جداً بحيث لا يمكن أن تكشـــــف لنا عن نشـــأة اللغة ووجدتُ أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه ، ومنهاج ما مثّلاه وذلك أن تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ؛ نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة ، ووجدت أيضاً (الفَعَلَى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة ، نحو : البَشَكَى ، والجَمَزَى ، والوَلَقَى ثم قال في موضع آخر : " ولو لم يُتنبّه على ذلك إلا بما جاء عنهم من تسميتهم للأشياء بأصواتها ؛ كالخازِباز [الخازباز : الذباب] لصوته ، والبط لصوته ... ونحو منه قولهم .. حاحيتا وعاعيتا وهاهيتا ؛ إذا قلت : حاءِ وعاءِ وهاءِ . وقولهم : بسملتُ وهيللتُ وحولقتُ ؛ كل ذلك وأشباهه إنما يُرجع في اشتقاقه إلى الأصوات . والأمر أوسع وقد لقيت هذه النظرية تأييداً لدى عدد من علمائنا المحدثين فقد أخذ إبراهيم أنيس على الذين اعترضوا على هذه النظرية ووجهوا لها انتقادات حادة وقالوا إنها لا تصلح أن تكون أساساً لنشأة اللغة فقال : " لا يصح أن ننساق مع بعض المعترضين على هذه النظرية في تهكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنساني عند حدود حظائر الحيوانات وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغريزية لأن وراء هذه الأصوات سوراً حصيناً عنده في الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة . فالمعترضون يفترضون في هذا النوع من الأصوات عقماً ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية . ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت من تلك الأصوات الغريزية المبهمة ، ثم سمت في تطورها ودلالتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنساني . وإلا فكيف نتصور أن كلمة (الخيل) يشتق منها (الخيلاء) والجبانة بمعنى الصحراء يشتق

منها (الجبن) وأن من (سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف) تجيء (السفاهة) إلى غير ذلك من تلك الدلالات المجردة التي انحدرت إلينا من المحسوسات ، أيمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستقاة من الأصوات الطبيعية قد تتطور في دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات الراقية المجردة في الذهن الإنساني كما أُعجب صبحي الصالح بما قاله ابن جنّي حول نشأة اللغة تقليداً لأصوات الطبيعة فقال : " فكان لا بد لنا من الاقتناع بهذه النظرية اللغوية التي تعد فتحاً مبيناً في فقه اللغات عامة أما أنيس فريحة فيرى " أن لهذه النظرية ما يؤيدها فالطائر المسمى في الانجليزية Cuckoo إنما سمي بالصوت الذي يحدثه ، والهرة سُمّيت (مو) في المصرية القديمة ، وفي اللغة الصينية ، نسبة إلى الصوت الذي تحدثه ويرى عدد من اللغويين المحدثين أن هذه النظرية هي أقرب النظريات إلى الحقيقة ، وقد أشار علي وافي إلى هذا الأمر بقوله : " وهذه النظرية هي أدنى نظريات البحث العلمي ، وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات والظواهر الطبيعية والاجتماعية . وهي إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التي نحن بصددها ، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسمسات خاصة والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أي دليل يقيني على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها ويرى أن سبب قرب هذه النظرية من المعقول دون غيرها أنها تتفق مع مراحل ارتقاء اللغة ونموها عند الإنسان الطفل ، واتفاقها كذلك مع الخصائص العامة للغات البدائيين ، يقول : " ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ...) فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به . وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية ، ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر . ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية ، ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه ورغم كل ما سبق فقد وجه إلى هذه النظرية انتقادات أساسية ، بل إن المنهج العلمي لدراسة اللغة يرفض كل الأقوال السابقة ، فلا يمكن

الاعتماد على لغة البدائيين ولغة الأطفال من أجل إثبات نشأة اللغة ، لأنهما لا يساعداننا في الوصول إلأى شيء يفيدنا في هذا الأمر ، فهي نظرية " تعجز عن أن تفسِّر لنا كيف استُغلّ مبدأ (حكاية الصوت) في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظة (إبريق) ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظة (المنضدة) ومعاناها ؟ وما العلاقة بين لفظ (الكتاب) ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة ، إنما العلاقة بيسكولوجية ، أي من نوع قَرْن الأصوات بصور قائمة في العقل لا يستطيع الطفل في لغته الأولى أن يوضح لنا كيف يتكلم ، كما لا يستطيع أن يوقفنا على كيفية نشأة اللغة ، يقول فندريس : " لا يمكن استخلاص شيء في هذا الصدد من لغات المتوحشين ؛ فالمتوحشون ليسوا بدائيين ، رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان ، فهم يتكلمون أحياناً لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقداً ، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة . فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب عنا نقطة البدء التي صدرت عنها ... وقد يجنح الإنسان في البحث عن هذا المطلب في كلام الأطفال ، وهذه المحاولة أيضاً سيكون نصيبها الفشل . لأن الأطفال لا يعلموننا إلا كيف تحصل لغة منظمة ، ولا يعطوننا أية فكرة عما كان عليه الكلام عند أصل نشوئه رغم كل ما سبق فقد رفضت هذه النظرية رفضاً قاطعاً لاعتبارات جوهرية ، لعل أهمها أن الكلمات التي يمكن تفسيرها بهذه الطريقة قليلة جداً لا يمكن أن تبني عليها نظرية علمية ، " فإذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد ، تجد أن معانيها متقاربة . ولكن أن نردّ معاني ألوف الألفاظ إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين فونيماً أو وحدات صوتية ، فإننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة . إذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة إلى معانٍ لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة في (لسان العرب) مشتقة من ثمانية وعشرين فونيماً ؟ومن الأمور التي يعتمد عليها في دحض هذه النظرية عدم وجود معنى للصوت المفرد وأنه لا دلالة له ، فلو كان لكل صوت دلالة واضحة محددة لوجب أن تكون كل اللغات لغة واحدة وهذا غير الواقع .

٤- نظرية محاكاة الأصوات معانيها ، أو نظرية Ding dong :

قامت هذه النظرية على أساس وجود صلة قوية وثيقة بين ما ينطق به الإنسان وما يدور في فكره ، وهي تدور حول أن الإنسان يرى الأشياء والحوادث في العالم الخارجي فيتأثر بما يرى ، ثم ينطق بأصوات سببها هذا التأثر ، أي أن الألفاظ

ليست إلا صدى لمؤثرات خارجية ، وبنى أصحاب هذه النظرية رأيهم على ما يلحظه الإنسان في المحسوسات ، فحركة الجسم تولد صوتاً خاصة بها يختلف عن أي صوت لحركة جسم آخر ، وكل جسم يرتطم بآخر يولد صوتاً معيناً يختلف عن الصوت الناتج من ارتطام ذاك الجسم بجسم آخر غير الجسم الأول ، فالضرب على الحديد يولد صوتاً يختلف عن الصوت الناتج عن الضرب على الخشب ، كما يختلف عن الصوت الناتج عن الضرب على الصخر ، وسقوط صخرة وارتطامها بالأرض له صوت يختلف عن الصوت الناتج عن سقوط أي جسم آخر . فتعدد الأصوات يتعدد بتعدد الأشياء التي أحدثتها ، ولعل ما ذكره ابن سينا في كيفية حدوث الصوت وأنه ناتج عن القرع والقلع قريب مما تذهب إليه هذه النظرية ، يقول : " وأما في القرع فلاضطرار القارع الهواءَ أن ينضغط وينفلت من المسافة التي يسلكها القارع إلى جنبتيها بعنف وقوة وشدة وسرعة ، أما في القلع فلاضطرار القالع الهواءَ إلى أن يندفع إلى المكان الذي أخلاه المقلوع منهما دفعة بعنف وشدة . وفي الأمرين جميعاً يلزم المتباعد من الهواء أن ينقاد للشكل والموج الواقع هناك ، وإن كان القرعيّ أشد انبساطاً من القلعي وقد رفضت هذه النظرية كذلك لأنها لا تفسر لنا نشأة ألفاظ اللغة كلها ، ولأنها " بُنيت على أساس غامض ، وأحاطها أصحابها أنفسهم بالألغاز والسحر ، مما جعل معظم اللغويين الآن يمرون بها مر الكرام

٥ ــ نظرية الأصوات التعجبية والعاطفية ، أو نظرية Pooh-pooh

تذهب هذه النظرية إلى أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة شهقات أو تأوهات صدرت عن الإنسان بشكلل غريزي للتعبير عن انفعالاته في فرح أو ألم أو دهشة أو غضب أو حزن أو استغراب أو نحو ذلك من الانفعالات فيرتبط الصوت الصادر عن الإنسان بالحالة التي هو فيها ، فعندما يطأ الشخص جسماً صلباً فإنه يصرخ (أوه ، أو آه) وعندما يضجر من شيء فإنه يتأفف قائلاً (أف) وهكذا . وهذه الأصوات التي أصبحت معبرة عن وضع معين قد تكون مشتركة بين البشر ، ولعل بعض أسماء الأصوات في اللغة العربية يدل على شيء من هذه النظرية (أف ، آه ، أوه ، آخ ، صه ، مه) . إلا أن هذه النظرية رفضت لأنها لا تقدم لنا كيف تتم تلك الشهقات أو التأوهات ، وحاول داروين الربط بين هذه الأصوات وبين تقلصات أعضاء النطق أو انبساطها ، أي أنه حاول تفسيرها تفسيراً فسيولوجياً ، فيقرر أن الشعور بالازدراء أو الغضب يصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ومن هنا ينشأ صوت Poohفي الانجليزية ، أو (أف) في العربية والحقيقة أن مثل هذه الصرخات أو الصيحات لا تصدر عن الإنسان عن وعي وإدراك أو بصورة إرادية

، إنما أصوات فجائية " فينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكرلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول أو حين يأبى الكلام ولهذه الأسباب رفضت هذه النظرية .

٦- نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية
أو نظرية Yo-he-ho

وملخصها أن اللغة الإنسانية نشأت في صورة جماعية عند قيام مجموعة من الناس بعمل شاق مرهق فإنهم قد يتفوهون بأصوات معينة يجدون في إصدار مثل هذه الأصوات ما يعينهم أو يساعدهم أو يخفف عنهم هذا العمل المضني ، كأن يقوم عدد من العمال برفع شيء ثقيل فيصدرون صوتياً يحدد نقطة البداية ، أو الانظلاق في العمل ، ويلمسون في هذا الصوت شحذاً للهمم والحث على عدم التراخي . وكذلك الحجار الذي يقطع الصخر طيلة النهار فإنه ينفث زفرات تعينه على إنجاز عمله وتقوم بتسليته في يومه . وقد رفضت هذه النظرية كسابقاتها لأنها لا تستطيع أن توضح لنا كيف ظهرت كل ألفاظ اللغة .

ملاحظة :

هذه هي أهم النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة ، وقد رفضت جميعها لأنها لم تستطع أن تقدم حلاً معقولاً لنشأة اللغة فهي لم تفسر إلا ناحية قليلة من نواحي اللغة ، ثم إن هذه النظريات لم تفسر لنا متى بدأ الإنسان في استخادم اللغة ، وكأن اللغة عنده بدأت فجأة دون أية مقدمات ، كما أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً من هذا القبيل إلا من خلال الحدس والتخمين

--المحاضرة الثانية--

وظيفة اللغة

يرى بعض الباحثين أن وظيفة اللغة تقتصر على نقل المعاني والأفكار وتوصيلها للآخرين ، فحصروا وظيفتها في التوصيل فقط ، لكن الحقيقة غير ذلك فلا تقتصر وظيفتها على التوصيل فقط ، بل لها عدد من الوظائف كما يلي :

١- وظيفة الإيصال والتوصيل :

ذهب عدد من الباحثين إلى أن اللغة وسيلة من وسائل الاتصال ، أو التعبير عن المعاني ونقل الأفكار ، وقد أشار محمود السعران إلى ذلك بقوله : " الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة من الاتصال ، أو التوصيل ، أو النقل ، أو التعبير ،

عن طريق الأصوات الكلامية . وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات ... أو الفكر بوجه عام ، وهو ما أشار إليه أندريه مارتينيه بقوله : " إن الوظيفة الأساسية لهذه الآلة التي هي اللغة ، هي الاتصال هذه هي الوظيفة الأساسية للغة التي كان أصل نشأة اللغة من أجلها وقد تُستخدم اللغة ولا يقصد بها توصيل أو إيصال ، وهنا تكون ذات وظيفة ثانوية تتجلى هذه الوظيفة فيما يلي :

أ- المناجاة والقراءة الانفرادية بصوت عالٍ . ب- استعمال اللغة في السلوك الجماعي ، كالصلاة والدعاء وغيرهما .

ج- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف غاية ، مثل لغة التحيات ولغة التأدب والكلام عن الطقس ... .

د- استعمال اللغة أحياناً لإخفاء أفكار المتكلم ، على ما يتضح في لغة السياسة واللصوص وغيرهم

إلى جانب الوظيفة السابقة للغة عدد من الوظائف أهمها أنها :

٢ – مساعد آلي للفكر :

ترتبط اللغة بالفكر ارتباطاً وثيقاً والعلاقة بينهما من الموضوعات الشائكة التي شغلت العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً ، ولا يزال هذا الموضوع يحتل مكانة كبيرة في علم اللغة ، فالعلاقة بينهما علاقة جدلية ، فاللغة لها " تأثير مساعد على مجال التفكير الرمزي وإنها قد تكون ضرورية للمستويات العليا للتفكير المنطقي وليست الكلمات إلا " علامات حسية على الأفكار ، وهذه الأفكار هي معناها المباشر . فاللغة وسيلة المواصلات للفكر ، أو هي التمثيل الطبيعي والخارجي لحالة داخلية ، أو اللغة عبارة عن سلسلة من الكلمات عن تفكير كامل إن الحديث عن الفكر مع إهمال اللغة حديث ناقص ولا ينم عن فهم في العلاقة بينهما ، فالفكر يتعمد في وجوده على اللغة ولا نستطيع أن نتصور الفكر أو أن نتعرف عليه بدون وساطة اللغة " فقد أصبح من الواضح لنا بشكل مضطرد أن الحديث عن التفكير مع تجاهل اللغة أمر يفتقر كثيراً إلى التوازن ، نظراً لأن الألفاظ ليست فقط ذات أهمية قصوى في تجارب تعلم المفاهيم ، ولكنها أيضاً الوسط أو القناة الموصلة لجميع أنواع التفكير فاللغة هي الطريق الموصل للفكر والناقل له والمعبر عنه إنها " طريق ممهِّد أو أخدود كالأخاديد التي تراها على سطح أسطوانة تمهد وتحدد السبيل إلى الإبرة لتمر فيه لتردد الصوت فالعلاقة بين اللغة والفكر علاقة جدلية حتمية ، فهي المعبرة عن الفكر والمساعدة له في نموه ، والفكر يؤثر في نمو

اللغة وتطورها " فاللغة ترتقي وفقاً لارتقاء الفكر ، إذ هي الفكر ذاته ، والفكر لغة صامتة . ودرجة الارتقاء تبدأ بالحدس فهما يتفاعلان تفاعلاً حتمياً لا بد منه ، فالفكرة لا تكون فكرة ما لم تصبح رمزاً لغوياً " فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع . إن ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح أو غير الواضح ، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبّس رمزاً لغوياً وبالرغم من كل هذا الارتباط وهذه العلاقة القوية التي تجعلهما شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد ، وأنهما وجهان لعملة واحدة ، يمكن القول أنها علاقة ليست إيجابية مطلقة في جميع الأحوال بل إن فيها من السلبية ما تجعل اللغة معيقة للفكر مقيدة له وذلك من خلال تحديدها لطرائق معينة محدودة للتعبير تحول دون خروج الفكر إلى الآخرين .

٣ – أحد مقومات الوطن والوطنية :

اللغة رابط قوي يجمع كل من يتكلمون بها ، ويصهرهم في بوتقة واحدة من خلال خلق شراكة في الفكر والإحساس والثقافة ؛ لأنها أداة الإبداع وأساس التفكير والترابط بين أفراد المجتمع ، كما تخلق بينهم التآلف والمحبة ، إنها مدعاة للانتماء والوحدة ، فهي الرابط الأقوى الذي يلتف حوله كل الناطقين بهذه اللغة أو تلك ، فهي الوطن الروحي لكل من يتكلمون بها ، إنها ذاتيهم المعبرة عنهم ، كما أنها وعاؤهم الفكري ومستودع تراثهم . وقد حرصت الدول على الاهتمام بلغاتها القومية إيماناً منها بأنها هي القادرة الوحيدة على خلق مجتمع موحد مترابط متناغم في كل أمور حياته ، فالمجتمع الذي يتحدث أهله بلغات مختلفة مهدد بالتفكك والانهيار . وتتجلى وظيفة اللغة هذه فيما يقوم به المستعمر من فرض لغته على الدولة المحتلة ، ومحاولة إبعاد لغتها من الحياة الاجتماعية والثقافية وغيرها ، في محاولة لصهر أبنائها في مجتمعه وبذلك يضمن استمرار احتلاله لهذا القطر أو ذاك . وقد أدرك الزعماء السياسيون في العالم أهمية اللغة ووظيفتها في توحيد أبناء الوطن والتفافهم حول الأهداف التي ينادون بها ، إيماناً منهم أن الشعور بوحدة الأمة مرتبط أصلاً برباط اللغة التي هي الجامع الأساسي والرابط الوحيد بين أفراد الأمة ، فأول ما يطالبون به في ثوراتهم ضد المحتل وأملهم في الاستقلال هو تحرير لغتهم لتصبح اللغة الرسمية في كل جوانب الحياة المختلفة سياسية واجتماعي وثقافية وعلمية ، فهذا هو الهدف الأول لبناء الوحدة والتحرير .

٤- وسيلة للترابط الدولي والقومي :

إن ما يظهر من هيئات ومؤسسات دولية وإقليمية يدل بوضوح على هذه الوظيفة للغة ، فالكومنولث هيئة تجمع الدول الناطقة بالانجليزية ، والفرنكفونية هيئة تجمع الدول الناطقة بالفرنسية ، وليست جامعة الدول العربية إلا وجهاً من وجوه هذه الوظيفة اللغوية .

٥- وسيلة للترابط الاجتماعي :

اللغة ظاهر اجتماعية والرابط الذي يجمع بين أبناء المجتمع الواحد بها يتفاهمون ويتعاونون ، إنها مسؤولة إلى حد كبير عن إقامة العلاقات الودية بين أفراد المجتمع ، وتتجلى هذه الوظيفة في الاجتماعات العامة و في لغة المجاملات ولغة التحيات والسؤال عن الحال والكلام عن الطقس وما إلى ذلك ، فمثلاً لو التقى شخصان لا يعرف كل منهما الآخر في عيادة طبيب ، وبعد قليل يبدأ أحدهما الحديث العام كأن يتحدث عن الطقس أو حديث عن جانب من جوانب الحياة ، فيقوم الآخر بمشاركته حديثه ويستمر بينهما تجاذب أطراف الحديث ، ويتكون بينهما شيء من المودة والألفة وقد ينظر إلى الصمت وعدم المشاركة في الحديث في الاجتماعات أو اللقاءات العامة أنه شيء من التعالي أو عدم الانسجام وقد يتحول إلى سلوك عدائي غير مقبول لدى المجموعة .

٦- وسيلة للتنفيس عن الأحاسيس وبخاصة العنيفة منها :

تتجلى هذه الوظيفة للغة فيما يصدر عن الإنسان في خلوته عندما يبث آلامه وأحزانه على شكل أشعار حزينة باكية تسعفه في التنفيس عما يجيش في خاطره من أحزان ، بفقد الأهل والأحباب ، وما يعانيه في غربته من وحدة وبعد عمن عاش معهم وألفهم ، ودون أن يقصد من هذا الأمر نقل معلومة أو توصيل فكرة للآخرين ، فكأنه في هذه الحالة يواسي نفسه ويعزيها وينفّس عما بداخله من أحاسيس " وتبدو الأشكال العليا للوظيفة التنفيسية في التعبير الجمالي . فكل الفن الأدبي تنفيس ، طالما حركته الدوافع الجمالية كالشعر والقصة والمقالات والدراما . وتوصيل الأفكار العلمية غالباً ما يتخذ وظيفة جمالية ، وذلك حين يُعنى الرياضيّ مثلاً لا بالتطبيق العملي للرياضيات بل بجمال التفكير المنظم نفسه ساعياً إلى مشاركة الآخرين في المتعة بهذا فكل المشاعر والأحاسيس التي يحاول الإنسان التعبير عنها عندما يخلو لنفسه يمكن أن تكون ضمن هذه الوظيفة اللغوية

٧- وسيلة للتسلية أحياناً :

كثيراً ما يقوم المرء باستخدام أعضائه النطقية من أجل التسلية فقط ، فيتلاعب بألفاظه وما تحدثه من نغمات قاصداً الاستمتاع بصوته والتلذذ بتلك النغمات التي يصدرها وكأنه يلمس في أعضائه النطقية آلات موسيقية خاصة به ، وعليه ان يستغلها ويشغلها ليسلي نفسه ، ولعله يرى أنها " آلة يجب على الإنسان أن يلعب بها ، وهي تحرك النفوس كالموسيقى عند أقوام والخمور عند آخرين " وكأنه يجعل للغة وظيفة التسلية وتزجية الوقت . من هنا ندرك أن وظيفة اللغة في المجتمع لا تقتصر على الإيصال والتوصيل بل إن لها عدداً آخر من الوظائف لا تقل أهمية عن الوظيفة الأساسية لها ، فاللغة إذن ظاهرة من أهم الظواهر في المجتمع ، إنها " أكثر من واسطة إنها غاية شرط أن نفهمها فهماً دينامياً . هي ليست أجزاء تتركب ، فيما بينها بصورة اصطلاحية . هذا فهم مومياائي لها وتحديد جامد لحياتها . اللغة أصوات في حروف وحروف في كلمات وكلمات في جمل وجمل في نحو ونحو في بيان والبيان وحدة لا تتجزأ . هو الإنسان رمّة في أفكاره ومشاعره والإنسان كائن مجتمعي واللغة تعكس هذا الإنسان . عليها إذن أن تعكس حياة أمته في مظهريها النفسي والمادي ، هي وحدها المؤتمنة على تاريخه البعيد لأنها ليست كمَّ ألفاظ موسيقية

--المحاضرة الثالثة--

المعنى اللغوي لفقه اللغة ولعلم اللغة

أجمعت المعاجم العربية على أن الفقه هو العلم ، قال ابن فارس في مادة فقه : " الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح ، يدل على إدراك الشيء والعلم به وكل علم بالشيء فهو فقهه ... ثم اختص بذلك علم الشريعة ، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه وجاء في لسان العرب : " الفقه : العلم بالشيء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم ... والفقه في الأصل الفهم . يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين أي فهماً فيه . قال الله عز وجل : ((ليتفقهوا في الدين)) أي ليكونوا علماء به ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال : اللهم علمه الدين وفقه التأويل ، أي فهمه تأويله ومعناه وفي القاموس المحيط : " الفقه : العلم بالشيء والفهم له ، والفطنة ، وغلب على علم الدين لشرفه وهكذا ، فإذا كان الفقه يعني العلم فإن فقه اللغة هو علم اللغة عينه ، إنهما شيء واحد كما جاء في سائر المعاجم العربية .

فقه اللغة وعلم اللغة من الناحية الاصطلاحية :

إذا كان هذان اللفظان (فقه ، وعلم) لهما نفس الدلالة ونفس المعنى ، فهل هما كذلك في الاصطلاح ؟
يبدو أن علماءنا القدماء لم يكونوا يفرقون بين هذين المصطلحين ، والسبب في هذا أن علم اللغة
(Linguistics) لم يكن قد ظهر إلى الوجود كمصطلح مستقل ، لذلك نجد كتب لغوييننا القدماء تضم موضوعات هذين المصطلحين دون تفريق ، يدلنا على هذا الأمر ما جاء في أشهر كتبهم ، وأهمها ما يلي :

١/ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها:

أولها : كتاب (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لأبي الحسين أحمد بن فارس ، وهو أول كتاب وصل إلينا يحمل هذا المصطلح " فقه اللغة " ويفهم من عنوان الكتاب أنه يتناول نوعين من الدراسة ، الأول فقه اللغة ، والآخر سنن العرب في كلامها ، ونلحظ في الكتاب خلطاً واضحاً بين ما يصنف اليوم ضمن موضوعات فقه اللغة وما يصنف ضمن موضوعات علم اللغة .
فقد اشتمل الكتاب على قضايا لغوية عامة تتحدث عن نشأة اللغة ، وتطورها ، وأفضلية اللغة العربية ، ولهجاتها وغير ذلك من القضايا التي تصنف ضمن موضوعات فقه اللغة . كما اشتمل على مسائل صوتية وهي منتشرة في الأبواب النحوية وذلك عند دراسته للحروف .ومسائل صرفية انتشرت في أماكن مختلفة من الكتاب ، كباب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر وباب البناء الدال على الكثرة ، وباب الفعل اللازم والمتعدي بلفظ واحد ، وغيرها .
كما ضم مسائل نحوية ، مثل حديثه عن أقسام الكلام والحروف ، وحروف المعاني ، النعت وقد أفرد لكل منها باباً خاصاً . كما تحدث عن الإعراب ، ورأى أن علامات الإعراب ذات دلالة على معانٍ فقال : " فأما الإعراب فيه تُميَّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين
كما اشتمل على مسائل دلالية تناثرت في أماكن مختلفة من الكتاب كحديثه عن " معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء

إلى جانب مسائل بلاغية تشمل بعض قضايا البيان وبعض قضايا علم المعاني وعلم البديع . مما سبق ندرك أن ابن فارس قد خلط خلطاً واضحاً بين موضوعات اللغة دون أية إشارة للتفريق بين ما يصنف في إطار فقه اللغة أو ما يصنف في إطار علم اللغة .

٢/ فقه اللغة وسر العربية :-

الكتاب الثاني : فهو كتاب (فقه اللغة وسر العربية) لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩هـ) وقد قسمه مؤلفه إلى قسمين : القسم الأول "فقه اللغة" ضمنه ثلاثين باباً ، وهو عبارة عن معجم خاص ضمنه مؤلفه الألفاظ التي تتصل بموضوع واحد وهو ما عرف باسم الكليات " وهي ما أطلق أئمة اللغة في تفسيره لفظة كل ، من ذلك : كل ما علاك وأظلك فهو سماء ، كل أرض مستوية فهي صعيد ، كل حاجز بين شيئين فهو مؤبق كما نجد فيه أبواباً تناولت : الأطعمة والأشربة ، أسنان الناس ، الأمراض ، الطول والقصر ، أوائل الأشياء ، وغير ذلك . وكأن كل باب من هذه الأبواب رسالة لغوية من الرسائل التي عرفها العرب في بداية تأليفهم المعجمي .

أما القسم الثاني من الكتاب " سر العربية " فإنه يشتمل على قضايا لغوية مختلفة ، كبعض الأمور الصوتية عند حديثه عن (الإتباع) إلى جانب بعض الأمور الصرفية كحديثه عن (أبنية الأفعال) وحديثه عن (الإبدال) و (في المفعول يأتي بلفظ الفاعل والفاعل يأتي بلفظ المفعول) و (في اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة " . كما اشتمل على بعض الجوانب النحوية عند حديثه عن الحروف وتقديم المؤخر وتأخير المقدم وغيرها . كما نجد فيه بعض المسائل البلاغية كالحديث عن الاستعارة والتجنيس والطباق والكناية والالتفات .

٣/ الخصائص :-

الكتاب الثالث : هو كتاب (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جنّي ت٣٩٥هـ ، وهو من أشهر الكتب اللغوية عند قدماء العرب ، وأوفرها مادة ، وأكثرها دقة ، وقد ضمنه مؤلفه عدداً من القضايا اللغوية كما يلي :

١- جوانب تتضمن البحث في اللغة ، من حيث تعريفها ، ونشأتها ، وتفرعها إلى لهجات وتطورها .

٢- مسائل تتعلق بمنهج البحث في اللغة ، كحديثه عن حجية اللغة وجمع اللغة وتعليل ظواهرها .

٣- جوانب صوتية : كحديثه عن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه ، ومضارعة الحركات للحروف والحروف للحركات ، والساكن والمتحرك وغيرها من المسائل التي تصنف ضمن المستوى الصوتي في الدرس اللغوي .

٤- جوانب صوتية : كحديثه عن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه ، ومضارعة الحركات للحروف والحروف للحركات ، والساكن والمتحرك وغيرها من المسائل التي تصنف ضمن المستوى الصوتي في الدرس اللغوي
٥- قضايا صرفية : كحديثه عن الاشتقاق ، والقلب ، والزيادة وغيرها .
٦- قضايا نحوية : كحديثه عن النحو والإعراب والحذف (حذف الفعل وحذف الحرف) والبناء .
٧- قضايا بلاغية ودلالية : تحدث فيها عن الحقيقة والمجاز وقوة اللفظ لقوة المعنى والدلالة التي قسمها إلى الدلالة اللفظية والدلالة الصناعية والدلالة المعنوية . يتضح مما سبق أن لغوييننا القدماء نظروا إلى كل الموضوعات اللغوية نظرة واحدة ، ولم يفكروا في وضع حد فاصل ينبغي اتباعه بين موضوعات كل مصطلح من المصطلحين (فقه اللغة وعلم اللغة) فسووا بينهما في مؤلفاتهم وهذا الاتجاه من عدم التفريق بين علم اللغة وفقه اللغة وجد صداه في العصر الحديث لدى عدد من الباحثين العرب ، فذهب علي عبدالواحد وافي إلى أنهما شيء واحد ، وأن فقه اللغة هو أفضل ما يطلق على كل بحث يتناول أية قضية لغوية ، فيقول : " أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة ، أشهرها (فقه اللغة) وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث ، فإن فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه الوقوف على ما يسير عليه من قوانين أما صبحي الصالح فيرى أنهما شيء واحد ، لأنه ليس من السهولة تحديد ما بينهما من الفروق الدقيقة ، لذا يرى أن التفرقة بينهما تافهة لا قيمة لها ، يقول : " من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ، لأن جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً . وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى ... وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا وزن لها ... وإنه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألّا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً ، وأن يعمموها على جميع البحوث اللغوية ، لأن كل علم لشيء فهو فقه ، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تُسمى فقهاً ويرى محمد المبارك : " أن علم اللغة بهذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين (علم اللغة) أو (فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة ... وإننا باستعمالنا هذه التسمية وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما وأصابوا كل الإصابة في ذلك وإلى جانب هذا الفريق من الباحثين الذين يرون أن (فقه اللغة) و (علم اللغة) شيء واحد ولا ضرورة للتفريق بينهما ، هنا فريق آخر يرى أن التفريق بين هذين العلمين ضرورة ملحة وأمر واجب . فقد ذهب كمال بشر إلى مصطلح

(فقه اللغة) عند القدماء كان يدل على نوعين من الأبحاث اللغوية ، النوع الأول يتناول البحث في المعجمات وقضاياها المختلفة وما يدور حولها ، إلى جانب مشكلات الألفاظ من حيث معانيها وسماتها وأصالتها ، وترادفها ، وصورها المجازية والحقيقية وما إلى ذلك . ويتضمن النوع الثاني القضايا اللغوية العامة كالحديث عن أصل اللغة ووظيفتها ومصادرها واللهجات والقياس والتعليل وغير ذلك من هذه القضايا التي تعد مدخلاً لدراسة العلم . ثم ينتقل إلى الحديث عن وضع هذين المصطلحين (فقه اللغة وعلم اللغة) فيقول : " أما في الحديث فلم يزل (فقه اللغة) يعني البحث في هذه القضايا وأضرابها ، غير أن بعض الدارسين يخلطون بينه وبين علم اللغة بالمفهوم الجديد ، فيطلقونهما في مناقشاتهم كما لو كانا مترادفين ، وهو خلط واضح . ففقه اللغة بمفهومه القديم أو الحديث لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات الدرس في علم اللغة ، وبهذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام (علم اللغة) الذي يجري تطبيقه الآن على أي نوع من أنواع الدرس اللغوي أما عبده الراجحي وبعد أن عرض لآراء العلماء حول نشأة البحث اللغوي وتطوره عند القدماء والمحدثين رأى أن هناك فرقاً واضحاً بين هذين العلمين (فقه اللغة وعلم اللغة) فقال : " ومهما يكن من أمر فإن تطور (علم اللغة) في هذا القرن – على اختلاف مناهجه ومدارسه – قد ساعد على التمييز الواضح بينه وبين (فقه اللغة) وبعد أن عرض إلى منهجي العلمين وموضوعات كل منهما عاد ليؤكد على ضرورة الفصل بينهما فقال : " وغني عن البيان الآن أن هناك فرقاً واضحاً بين موضوعي العلمين التفريق ينبغي أن يكون واضحاً عند بحث ومنهجيهما في درس اللغة ، وهذا المنهج اللغوي عند العرب بعد هذه الجولة في عدد من الكتب التي تناولت مفهومي (فقه اللغة) و(علم اللغة) ندرك أن التطور السريع للبحث اللغوي يرى ضرورة التمييز بين هذين المصطلحين ، ولعل أهم الفوارق بينهما تتمثل فيما يلي :

١/المنهج : فمنهج (فقه اللغة) يختلف عن منهج (علم اللغة) فبعد أن حدد دي سوسير De Saussure الإطار العام لعلم اللغة بقوله : " إن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها " (١) . التزم علماء اللغة بهذا وقصروا بحوثهم على اللغة نفسها في مستوياتها المعروفة وغرضهم من الدرس اللغة لأجل اللغة ، أما فقهاء اللغة فهم يدرسون اللغة وسيلة إلى غاية ، يدرسونها من أجل معرفة الحضارة والآداب والفنون والقيم والمبادئ وما إلى ذلك ، من هنا ندرك فرقاً واضحاً بين منهجي العلمين يوجب التفريق بينهما ، وهو ما أشار إليه أحد الباحثين بقوله : " إن التفريق بين الاصطلاحين (فقه اللغة وعلم اللغة) واجب للتفريق بين دراسة اللغة باعتبارها وسيلة بين دراستها باعتبارها غاية في ذاتها

٢/ إن ميدان فقه اللغة أعم وأوسع وأشمل ، فهو يهتم بالجانب اللغوي للأدب وصيغ الفنون المماثلة ، كما يهتم بالجوانب الاجتماعية المختلفة للحياة ، وقد انصب اهتمام فقهاء اللغة على تقسيم اللغات والمقارنة بينها ومحاولة إعادة تشكيل اللغات ، وفهم النصوص القديمة وشرحها للتعرف على القيم الحضارية التي سادت مجتمعاً ما ، من أجل رسم حضارته بكل أبعادها : " ففقه اللغة هو الأرض الواسعة بين (علم اللغة) من ناحية من ناحية ، وبين الدراسات الأدبية والإنسانية من ناحية أخرى أما علم اللغة فيدرس ذات اللغة من حيث البناء والتراكيب ولا يتطرق في دراسته إلى جانب من جوانب الحياة الاجتماعية " وعلم اللغة بمعناه الضيق يركز على التحليل لتركيب اللغة ووصفها باعتبارها ميدانه الأساسي ، وعندما يوسع علماء اللغة ميدان موضوعهم فيعالجون المعنى فإنهم يقتربون من مجال فقه اللغة

٣/ مصطلح (فقه اللغة) سبق مصطلح (علم اللغة) من الناحية الزمنية ، فمصطلح (علم اللغة) حديث عهد ظهر في العصر الحديث ، أما (فقه اللغة) فقد ظهر منذ عصور ما قبل الميلاد ، نعلم إنما جاء " لتوضيح التركيز على التركيب اللغوي دون غيره كأساس للفرق بين الاثنين وذلك واضح في وصف فقه اللغة غالباً بأنه مقارن ، أما علم اللغة فهو تركيبي أو شكلي أي يعنى بالشكل فقط ولا يعنى بما حول اللغة أو ما يتصل بالشكل اللغوي

٤/ منذ ظهور علم اللغة وُصف بالعلم Science ، وقد ركز الباحثون فيه على هذه التسمية . ولا يوجد من حاول أن يصف فقه اللغة بالعلم .

٥/ اهتم فقهاء اللغة – منذ أن بدأوا دراسة اللغة – بالمقارنة بين اللغات ومحاولة إعاة تشكيلها ، ورصد تطورها والتأريخ لها مما جعل عملهم عملاً مقارناً تاريخياً في معظمه ، أما عمل علماء اللغة فهو وصفي تقريري . بعد هذا العرض لأهم الفوارق بين (فقه اللغة) و(علم اللغة) تجدر الإشارة إلى أن التفريق بينهما واجب لا بد منه ، فعدم التفريق سيؤدي حتماً إلى لبس غير هين لدى كثير من الدارسين والباحثين ، كما لا بد من الإشارة إلى أن الفصل بين هذين العلمين ليس فصلاً مطلقاً فكل مباحثهما وقضاياهما متداخلة ، فلا بد للباحث في علم اللغة أن يلم إلماماً تاماً بالقضايا العامة للغة التي تصنف على أنها مجال في فقه اللغة ، كالحديث عن تعريف اللغة ونشأتها وتطورها والعائلات اللغوية وغيرها . كما لا بد للباحث في فقه اللغة من أن يكون على علم تام باللغة ومستويات درسها (المستوى الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والدلالي) . فالفصل بين هذين العلمين يكون لغرض الدراسة فقط .

---المحاضرة الرابعة---

اللغة العربية واللغات السامية

عاشت في أقصى الغرب الآسيوي مجموعة من الأقوام تتقارب لغاتهم ، وقامت لهم حضارات متعاصرة أو متعاقبة أطلق عليهم اسم الساميين ،كما أطلق على مجموعة اللغات التي نطقت بها تلك الشعوب اسم اللغات السامية وتضم مجموعة من اللغات هي :اللغة البابلية والآشورية والعربية والعبرية والآرامية والفينيقية والحبشية ، " وبعضها حي لا يزال يتكلم به ملايين البشر ، ويحمل كنوزاً غنية من الثقافة والأدب ، وبعضها ميت عفت أثاره بذهاب الأيام وأول من أطلق هذه التسمية "اللغات السامية" هو العالم الألماني شلوتزر في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم سنة ١٧٨١م وقد استخلص هذه التسمية من الجدول الخاص بأنساب نوح عليه السلام الوارد في التوراة : (وهذه مواليد بني نوح سام وحام ويافت .... بنو سام : عيلام وآشور وارفكشاد ولور وآرام ...) يلاحظ أن ما جاء في التوراة من أنساب ليس دقيقاً ، فقد اعتمدت التوراة في تقسيم الشعوب على الروابط الجغرافية والسياسية والثقافية أكثر من اعتمادها على روابط الدم وأواصر القربى والروابط الشعبية ، يؤكد هذا أن نص التوراة السابق قد اعتبر كلاً من الليديين **Lydiens** والعيلاميين **Elym'eens** من الساميين وذلك لخضوعهم لسلطان الآشوريين وامتزاجهم بهم . والحقيقة أن لا صلة بين هذين الشعبين والشعوب السامية فهما أجنبيان عن الساميين وأجنبيان أحدهما عن الآخر ، فالعلاميون ينسبون إلى الجنس الإيراني ، ولم تذكر المصادر أي شيء عن أصل الليدين ز كما اعتبر نص التوراة السابق " الفينقيين من الشعوب الحامية ، لتعدد الصلات السياسية والثقافية التي كانت تربطهم بالشعوب الحامية المصرية والبربرية ، ولما كان بينهم وبين العبريين من عداء وحروب ، ولإختلافهم عنهم في النظم الإجتماعية وشؤون السياسة والدين ، مع أنهم من أخلص الساميين نسباً وأقربهم رحماً إلى العبريين أنفسهم ومهما يكن من أمر فإن نص التوراة السابق يوحي بعدم الدقة والصحة "وقد تسرب إلى نفوس الباحثين شيء من الشك في صحة ما جاء فيه ومع كل هذا فقد أطلق الباحثون على لغات هذه الأقوام اسم "اللغات السامية" ،معتمدين في ذلك على ما تم كشفه من النقوش التي تظهر كثيراً من صلات القربى والترابط بين هذه اللغات ، مما أنشأ بينهما كثيراً من الخصائص والمميزات .

الخصائص المشتركة بين اللغات السامية :-

١- تعتمد في الكتابة على الحروف الساكنة **Consonants** أكثر من اعتمادها على الحروف المتحركة **Vowels**.
٢- ترجع معظم كلماتها إلى أصل ذي ثلاثة أحروف.
٣- تتشابه في تكوين الاسم من حيث عدده ونوعه.
٤- تتشابه في تكوين الفعل من حيث زمنه وتجرده وزيادته وصحته وعلته.
٥- تتشابه في الضمائر وطريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف ، وفي صوغ الجمل وتركيبها ، وفي المشتقات لاسمي الفاعل والمفعول واسمي الزمان والمكان .
٦- تكاد تخلو من الأسماء المركبة تركيباً مزجياً إلاّ في ألفاظ العدد نحو :خمسة عشر ،بخلاف اللغة الآرية.
٧- تختص بمجموعة أصوات الحلق :الحاء والعين،والغين والخاء ،والهاء والهمزة، وهذه المجموعة موجودة بشكلها الكامل في العربية.
٨- توجد فيها مجموعة أصوات مطبقة وهي : الصاد والضاد ،والطاء و الظاء.
٩- تحقق الاشتقاق إما بتغيير حركة ،وإما بالزيادة في أحرف الكلمة ، وإما بإنقاصها من غير أن تلتزم موضعاً واحداً في هذا التغيير ، بخلاف الآرية التي يتحقق فيها الاشتقاق بزيادة أدوات تدل على معنى خاص في أول الكلمة غالباً.
١٠- تتشابه في كثير من المفردات الأساسية المشتركة وعلى الأخص المفردات الدالة على أعضاء الجسم ، وصلة القرابة والعدد وبعض الأفعال وبعض الحروف ومرافق الحياة التي كانت منتشرة في الشعب السامي الأم

أوجه الخلاف بين اللغات السامية :

ومع هذا التشابه والتقارب بين هذه المجموعة من اللغات ، يوجد بينها اختلافات كثيرة تميز كل لغة عن غيرها ، وأهم هذه الخلافات ما يلي :

١- الاختلاف في أداة التعريف : فهي في العربية " ال" في أول الاسم ، وفي العبرية وبعض اللهجات العربية البائدة حرف "ه" في أول الاسم ، وفي السبئية حرف "ن" في آخر الكلمة ، وفي الآرامية حرف "آ"في نهاية الكلمة ، ولا يوجد في الآشورية البابلية ولا الحبشية أداة للتعريف مطلقاً.
٢- الاختلاف في علامة الجمع : فهي في العبرية حرفا "يم" للمذكر و"واو وتاء" للمؤنث ، وفي الآرامية حرفا "ين" ، وفي العربية يستعمل للدلالة على جمع المذكر السالم "واو و نون "،أو "ياء و نون" في آخر الكلمة ،و" ألف و تاء " في آخر الكلمة للدلالة على جمع المؤنث السالم.

٣- الاختلاف في الأصوات العربية "ذ غ ظ ض" لا أثر لها في العبرية ، والصوتان العبريان "ب ا" و" ف v" لا وجود لهما في العربية ولا وجود للأصوات " ع ق س" في البابلية ، وأغلب ما يأتي في العبرية بالسين يأتي في العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس وبعد هذه الإشارة السريعة إلى هؤلاء الأقوام الذين عاشوا منذ القدم في أجزاء مختلفة من قارتي أسيا وأفريقيا وقامت لهم حضارات متعاصرة أو متعاقبة وأطلق عليهم اسم "الساميون" وعلى لغاتهم اسم "اللغات السامية" ، وبالاعتماد على نص من سفر التكوين ، وظهر ما يعرف باسم النظرية السامية.

فالسامية تسمية حديثة عهد أول من استخدمها العالم الألماني شلوتزر في أواخر القرن الثامن عشر ، فهي تسمية حديثة شاعت وأصبحت علماً على هذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من العرب "على الرغم أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي ، أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية إن هذا التصنيف للبشر الذي ورد في التوراة ليس إلا من باب الترهات التي دونها الحاخامات ورجال الدين اليهودي ، فهو لا يتند إلى أية حقيقة علمية كما أنه لا يقوم على أية اعتبارات لغوية أو عرقية أو جغرافية ، إن شلوتزر الذي اقترح هذه التسمية كان يهدف من ورائها تحقيق أهداف سياسية تخدم مصالح الدول الأوربية الاستعمارية ، ويقول الدكتور نعيم فرح : "وقد اكتسبت هذه النظرية مفهوما سياسيا ، حيث اهتم بها بعض المستشرقين الأوروبيين لتحقيق خدمات حكوماتهم في استعمارها أقطار الوطن العربي ، وكان معظم هؤلاء المستشرقين من رجال اللاهوت أو من اليهود التوراتيين ، كما كان بعضهم من الجواسيس والسفراء و رجال الاستخبارات وما شابه ذلك كما تخدم الصهيونية العالمية التي نشطت في تلك الفترة من أجل إقناع يهود العالم بالهجرة إلى فلسطين لإقامة وطن قومي لهم ، "وقد أصبحت فلسطين مركزاً يهودياً روحانياً مهماً منذ القرن السادس عشر ، أي إبان الفترة التي عاشت فيها سائر الطوائف بالشرق في حالة لا مثيل لها من التردي والركود الفكري إن الزعم بوجود جنس سام زعم باطل ووهم لا صحة له ، إنه من قبيل الدعاية السياسية التي تهدف إلى تحقيق أطماع استعمارية ، والعمل على تحطيم الجذور التاريخية للأصول العربية وهدم وحدتها ، من أجل قطع حاضر هذه الأمة عن ماضيها لتبقى عاجزة عن إدراك ذاتها ومعرفة طاقاتها ، إنه زعم من باب الأساطير التي تحدثنا عن أقوام وشعوب ليس لهم وجود في الواقع ، كما أنه بعيد عن الموضوعية وليست له أية صفة علمية ، لذا فقد رفضه كثير من العلماء يقول سبيتنوموسكاني عند حديثه عن النظرية السامية :"هي نظرية تنتمي إلى ميدان الدعاية السياسية التي عفت آثارها الآن ، أكثر مما تنتمي إلى العلم الجاد ، وقد نبذها علماء الأجناس عن حق إن هذه الشعوب التي أطلق عليها خطأ اسم "الساميون" هي في الحقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل

العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثا عن الماء والمكلأ ،ومنهم تفرعت الأقوام الأخرى ، يؤكد هذا القول ما ذهب إليه "كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجناس والسلالات إلى أن العرب هم الأصل للعرق السامي ، ومن أورمتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها ، ولهذا الفريق شواهد تاريخية و عرقية و لغوية يدعم بها حجته ويثبت آراءه إذا كنا قد تجرأنا بفرضنا السابق من أن العرب هم الأصل للعرق السامي – إن وجد عرق سام – وأن اللغة العربية هي أصل اللغات السامية ، فهل يمكننا أن نتقدم خطوة إلى الأمام في محاولة لإثبات هذا الافتراض ؟.

إن الحديث في هذا المجال شاق ومعقد ، لأن جل قضاياه غائمة يلفها الغموض كما أنها متشابكة جدا لا تكاد حدودها تتضح ، ولعل السبب في ذلك أن هذا الموضوع بني منذ بدايته على افتراض توراتي لا يقوم على دليل علمي و لا أساس له من الصحة . إن كثرة الآراء وتزاحمها وكثرة التخمينات والتخريصات والاجتهادات في هذا المجال جعلت منه أمرا يصعب اكتشاف كنهه وإدراك غوره ، مما جعل من العسير علينا أن نقول فيه بقول أو نجزم فيه بأي قاطع . ولكن بعد طول مراجعة وكثرة إطلاع على كتب التاريخ وكتب تاريخ اللغات واللهجات إلى جانب الكتب التي تبحث في الحضارات القديمة ، تجمع لدينا عدد من الآراء والأقوال لعدد كبير من العلماء العرب وغير العرب ، وبعد دراسة هذه الآراء وتلك الأقوال وتمحيصها والمقارنة بينها أمكن الاعتماد عليها أو الاستئناس بها من أجل تدعيم فرضنا السابق.

<u>وطن الساميين الأصلي :</u>

اختلف الباحثون اختلافاً شديداً في تعيين الموطن الأصلي للساميين وتباينت آراؤهم في تحديد البقعة التي عاش فيها سام بن نوح وذريته ، وحاول كل فريق أن يتلمس بعض الأمور التي يدعم بها زعمه ، وأن يجد له سندا يعتمد عليه ، فلجأ فريق منهم إلى الأساطير والمأثورات القصصية وما دار حول الطوفان وسفينة نوح والمكان الذي رست فيه ، ولجأ بعضهم إلى الاعتماد على تشابه بعض الكلمات في لغات تلك القوام كألفاظ أسماء النباتات والحيوانات وأعضاء الإنسان ، وبعض الظواهر الطبيعية ، ولجأ فريق آخر إلى الاعتماد على خصب البقعة التي زعم أنها موطن سام فالأرض الخصبة لابد من أن تكون مكانا للعيش ومهدا للحضارة . ويمكن استخلاص خمسة آراء في تحديد هذا الموطن كلها لا يعتد بها في هذا الأمر ولا يعول عليها في تحديد موطن حقيقي للساميين ، وهذه الآراء هي:

- الرأي الأول :

قال به كل من : إرنست رينان ، وفرانسوا لنورمان ، وفرينز هومل ، وبيترز ، وأغناطيوس جويدي، ويذهب القول بأن موطن الساميين الأصلي هو شمال شرق جزيرة العرب ، أي جنوب العراق ، وذلك لوجود بعض الكلمات التي تتشابه في اللغات السامية المختلفة كأسماء النباتات والحيوانات وغيرها ،

هذا ما جعل جويدي يجزم بأن "سهول العراق لابد أن تكون الموطن الأصلي للساميين ، ولاسيما إذا أضفنا إلى ذلك أن البابلية الأشورية توجد منها نصوص مكتوبة منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وهي أقدم كتابة في تاريخ الساميين على الإطلاق ويعلق الدكتور حسن ظاظا على هذا الزعم بقوله :" ولكن هذه النظرية أيضا مجروحة لسبب بسيط جدا ، وهو أن أحد الملوك الساميين الأول في العراق وهو الملك سرجون الأول الأكادي " حوالي سنة٢٦٠٠ قبل الميلاد " كتب عن أصله في نقش مشهور ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته نزحوا إلى العراق من شرقي جزيرة العرب

- الرأي الثاني :

ويذهب إلى أن مرتفعات كردستان وأرمينيا هي موطن الساميين الأصلي ، معتمدا على كثير من الأساطير التوراتية والمأثورات القصصية التي تدور كلها حول تحديد المكان الذي رست فيه سفينة نوح بعد الطوفان ، وزعم أنه جبل آرارات بإرمينيا ،وهذا الفرض ليس صحيحا ، إذ لو كانت سفينة نوح قد رست في هذه المنطقة لكانت هذه لمنطقة موطنا لجميع البشرية لا للساميين وحدهم.

- الرأي الثالث :

ويقول أن إفريقيا وبلاد الحبشة هي ذلك الموطن الأصلي للساميين ، وكان المستشرق " تيودور نولدكه " أشهر من قال بهذا الرأي ، معتمدا على بعض التشابه بين اللغات السامية والحامية التي يذهب بعض العلماء إلى اعتبارها لغة سكان إفريقيا الحاميين ، ويمكن دحض هذا الرأي بالسؤال الآتي : لم اندثرت اللغات السامية من إفريقيا وبقيت الحامية ؟

- الرأي الرابع :

فيذهب إلى أن بلاد سوريا (أرض كنعان) هي الموطن الأصلي لهؤلاء الأقوام ، وبه قال المستشرق الأمريكي " كلاي" ، وهو افتراض تعوزه الدقة لأنه بني على بعض المقارنات بين الأساطير والمأثورات الشعبية ، وحاول أن يستنتج رأيه هذا من تلك المقارنات ، وهي دراسة لا يعتمد عليها لإثبات حقائق علمية ، خاصة إذا كانت تلك الحقيقة تعيين وطن أصلي لأقوام عاشت في عصور سحيقة من القدم ، ولا يستطيع أحد أن يعرف عنهم شيئا إلا بالاعتماد على الكشوف الأثرية والحفريات ، وما يكتشف من نقوش تشير إلى بعض جوانب حياتهم أو تدل على بعض أخبارهم .

- الرأي الخامس :

ويذهب إلى القول بأن جنوب غرب جزيرة العرب (اليمن) هو الموطن الأصلي للساميين نظرا لخصب تلك المناطق ولوجود بعض الألفاظ المشتركة بين اللغتين السبئية والعبرية .هذه هي المناطق التي دار حولها التخمين بأن أحدهما لابد هو الموطن السامي الأول ، وإذا نظرنا على تلك المواقع التي افترض العلماء أن موطن الساميين لا يخرج عن واحد منها وجدناها في معظمها تقع على تخوم جزيرة العرب و مشارفها سواء من شمالها الشرقي أو شمالها أو شمالها الغربي أو جنوبها الغربي أو غربها ، وهذا يؤكد أن الساميين لابد قد خرجوا من جزيرة العرب طلبا للماء والكلأ ، وقد دفعت بهجرات متتالية عمرت مناطق شاسعة من شرق البحر المتوسط ووادي النيل والساحل الغربي للبحر الأحمر حتى عدت هذه الجزيرة مصدراً هاماً للهجرات البشرية ، فقد ذهب معظم المؤرخين إلى القول بأن مصادر الهجرة البشرية ثلاثة : أواسط آسيا بالنسبة لشرق آسيا ، وأستراليا ، وشمال أوروبا ، والجزيرة العربية بالنسبة لحوض البحر المتوسط وإفريقيا ووادي النيل وجنوب إفريقيا ، وأمريكا مصدر هجرتها غير محدد ومعروف .... فليس لنا بد من أن نتمثل ما يذكره العلماء من أن الجزيرة العربية كانت في حقبة من الحقب مصدرا يوزع على العالم الثروة البشرية أما السبب في تلك الهجرات من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها فيعود إلى ما أصابها من جفاف لأنهارها وتصحر لأراضيها مما أجبر سكانها على الهجرة ، ويؤكد لنا جواد علي هذا الأمر بقوله :" وقد رأى بعض العلماء أن جزيرة العرب كانت في عصر البلايستوسين Pleistocene خصبة جدا كثيرة المياه تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة ، وذات غابات كبيرة وأشجارها ضخمة كالأشجار التي نجدها في الزمان الحاضر في الهند وإفريقيا ، وأن جوها كان خيرا من جو أوروبا في العصور الجليدية التي كانت تغطي الثلوج معظم تلك القارة ، ثم أخذ الجو يتغير في العالم ، فذابت الثلوج بالتدريج ، وتغير جو بلاد العرب ، بالطبع حدث هذا التغير في عصر النيوليتك Neolithic أو عصر الكالكوليتك Chalcolithic ولم يكن هذا التغير في مصلحة جزيرة العرب لأنه صار يقلل من الرطوبة ويزيد في الجفاف ويحول رطوبة التربة إلى يبوسة ،فيميت الزرع بالتدريج ويهيج سطح القشرة فيحولها رمالا وترابا ، ثم صحاري لا تصلح لإنبات ولا لحياة الأحياءوما يجعلنا نجزم بأن الجزيرة العربية كانت ذات جو مطير وذات غابات وأشجار قول الرسول صلى الله عليه وسلم :"لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها ، وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا . فالرسول عليه الصلاة والسلام في قوله :" حتى تعود"

يؤكد أن هذه الجزيرة كانت مروجا وأنهارا لكثرة الأمطار وطيب الجو ، وأنها ستعود كما كانت مروجا وأنهارا . وهذا ما ذكره كثير من المؤرخين عن طبيعة جزيرة العرب وصفات أنهارها وخصائصها وأن مناخها قد تغير لتصير إلى الجفاف والتصحروهناك رأي آخر يذهب إلى أن الموطن الأصلي للساميين هو جزيرة العرب ، وقد قال بهذا الرأي عدد كبير من العلماء والمستشرقين ، يقول الدكتور حسن ظاظا :"هناك رأي أخير ذهب إليه من أوائل المستشرقين إيرهارد شرادر وأيده من بعد فنكلر ، وتيله ، والأب فنسان ، والأثري الفرنسي جاك دي مورجان ، والمستشرق الايطالي كايتاني ، وهو يرى أن الموطن الأصلي للساميين كان شبه الجزيرة العربية وهذا ما أكده إسرائيل ولفنسون بقوله :"والذي يمكننا أن نجزم به هو أن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية التي علمنا أخبارها وأسماءها كانت من نزوح جماعات سامية من أرض الجزيرة إلى البلدان المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة ، فأقدم هجرة سامية اتجهت إلى بابل كانت من ناحية جزيرة العرب.... وكذلك هاجرت البطون الكنعانية والآرامية تاركة بلاد العرب ، وكان لحوادثها أثر عظيم في حياة العالم القديم ، ثم كانت الهجرة الإسرائيلية التي فتحت بلاد فلسطين بعد أن صدرت من الجزيرة العربية . وقد كان شبرنكر أول القائلين عام ١٨٦١م بأن أواسط شبه الجزيرة هي الموطن الأول للساميين

ندرك مما سبق أن العلماء والمؤرخين يكادون يجمعون على أن جزيرة العرب هي الموطن الأصلي لتلك القبائل والشعوب التي هاجرت منها متأثرة بما أصابها من جفاف وتصحر أدى إلى تعسر الحياة فيها وأوجب الرحيل عنها طلبا للماء والمرعى ، وقد أطلق على هذه القبائل " القبائل السامية " بناء على ذلك الافتراض الذي يزعم أنها من نسل سام بن نوح . ولكن لم كانت هذه البلاد وطنا لسام ؟ هل أن سفينة نوح قد رست فيها ؟ أم أن ساما وذريته قد وجدوا في مكان آخر ثم هاجروا إليها؟ وإن كانوا قد هاجروا إليها ، فما سبب هجرتهم ؟ ومن أين أتوا ؟ ثم إن المكان الذي سكنوه قبل هجرتهم إلى جزيرة العرب أولى بأن يسمى موطنهم الأصلي . أسئلة كثيرة تجعلنا أمام حيرة واضطراب ، لكن هذه الحيرة وهذا الاضطراب يمكن تبديدهما إذا قلنا أن هذه الشعوب والقبائل شعوب وقبائل عربية وجدت في جزيرة العرب منذ فجر التاريخ ،وعاشت في هذه البلاد وشيدت فيها حضارات علمنا بعض أخبارها مما توفر من نقوش تدل على ذلك . وبعد أن بدأ التصحر يلف هذه البلاد ، تحركت تلك القبائل في هجرات متتالية خارج مناطق التصحر والجفاف باحثة عن أسباب الحياة والاستقرار التي ترتبط بالماء والكلأ .فكانت القبيلة أو المجموعة المهاجرة تبقى سائرة إلى أن تجد ضالتها فتحط عصا الترحال وتقيم في ذلك المكان ، ولم تكن كل القبائل لتسير في نفس الطريق وتتجه نفس الاتجاه ، فاستقر بعضها في الشمال الشرقي للجزيرة العربية في جنوب

العراق وعلى سواحل الخليج العربي حيث مصب دجلة والفرات ، واستقر البعض الآخر في بلاد سوريا حيث المياه والأنهار ، واستقر البعض في اليمن ، وهكذا مما جعل علماء الآثار يكتشفون نقوشا متشابهة اللغة في هذه المناطق مما أدى إلى تخبطهم واضطراب آرائهم في تحديد الموطن السامي الأصلي .وقد رأى عدد من المؤرخين والعلماء أن من الخير لنا وللحقيقة العلمية أن نطلق على هذه الشعوب التي نزحت من جزيرة العرب اسم الشعوب العربية ، يقول الدكتور أحمد سوسة :"يرى بعض الاختصاصيين وجوب تسمية هذه الأقوام بالأقوام العربية لتشمل كل من سكن الجزيرة العربية وخرج منها ، لأن العرب والساميين شيء واحد وهذا ما أكده الدكتور جواد علي بقوله :" لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن إطلاقه على الشعوب ، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح " عربي " و" عربية " ب" سامي " و" سامية " ولم تقتصر وجهة النظر هذه على المؤرخين العرب ، بل إن المؤرخ الفرنسي بيير روسيه يرى أن الساميين لم يوجدوا في الحقيقة ، وأن وجودهم كان من وحي الخيال ومن الوهم ، وأن الأقوام التي وجدت في الواقع وأنشات حضارات واسعة وفرضت الاستقرار على تلك المناطق التي وجدت فيها هم العرب ، فيقول :" كل شيء يمكن أن يكون بسيطاً لو أننا بدل أن نتحدث عن الساميين – الأبطال الوهميين – نتحدث عن العرب ، عن الشعب الذي وجد في الواقع ، له كيان اجتماعي ثقافي ولغوي دائم ، الشعب الذي منح الحياة والتوازن للبحر المتوسط منذ آلاف السنين إن ذلك الجفاف والتصحر الذي بدأ يزحف إلى جزيرة العرب منذ حقب طويلة من الزمن سبقت ميلاد المسيح بآلاف السنين لم يكن ليشمل أرض الجزيرة كلها في آن واحد ، بل كان زحفا تدريجيا ذا تأثير محدود في جو تلك البلاد وفي طبيعة أراضيها ، ولازمه زحف بشري في موجات متتالية إلى خارج تلك الجزيرة بحثا عن مقومات الحياة في تلك الأزمان ،" ويرى كيتاني أن هذا التغير الذي طرأ على جو جزيرة العرب إنما ظهر قبل الميلاد بنحو خمسة آلاف سنة ، وعندئذ صار سكان بلاد العرب وهم الساميون ينزحون عنها أفواجا للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير ، وحياة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق أكثر منذ هذا الزمن

سكان بلاد العرب هم الساميون ، كما قال كيتاني ، لست أدري لم أطلق عليها اسم بلاد العرب إذا كانت موطناً للساميين !! ولماذا لم يطلق عليها بلاد الساميين ؟ علماً أن الموطن السامي الأول لا يزال مجهولا حتى الآن ، ولم يستطع العلماء أن يتفقوا على رأي واحد فيه ، كما أنه من المعروف إطلاق اسم الجماعة البشرية على الأرض التي عاشت فيها ، أو قد يطلق اسم الأرض على القوم الذين عاشوا فيها ، وقد خالف كيتاني هذا العرف فلم يطلق اسم الجماعة البشرية على الأرض التي عاشت عليها ، ولم ينسب الجماعة إلى

تلك الأرض ، فهو لم يقل العرب سكان بلاد العرب . وقد حدد زمن تأثر تلك البلاد بالجفاف ونزوح أهلها بالقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذي ذكرت فيه كلمة (العرب) لتدل على سكان جزيرة العرب ، يقول الدكتور نعيم فرح :" وفي القرن الخامس قبل الميلاد ذكر المؤرخ اليوناني هيردوت (أبو التاريخ) كلمة العرب وقصد بها سكان الجزيرة العربية كلها يؤكد هذا القول ما ذهب إليه مرجوليوث من أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل هو بلاد اليمن وليس شبه جزيرة سيناء ، وقد اعتمد في رأيه هذا على بعض الخصائص اللغوية المشتركة بين السبئية والعبرية ، إلى جانب اعتماده على تشابه العادات والتقاليد والأخلاق الدينية عند السبئيين وبني إسرائيل ، ويقول إسرائيل ولفنسون :" يذهب العالم مرجوليوث إلى أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل لم يكن في شبه جزيرة طور سيناء ، بل كان ببلاد اليمن التي خرجت منها أمم كثيرة من أقدم الأزمنة التاريخية ، ويستدل على رأيه هذا ببعض أدلة منها وجود ألفاظ كثيرة مشتركة بين اللغتين السبئية والعبرية ، ومنها أن هناك شبها عظيما بين العادات الاجتماعية والأخلاق الدينية عند أهل سبأ وبني إسرائيل ولا يشك ولفنسون في ما قاله مرجوليوث ، بل يؤكد أن عادات بني إسرائيل وأخلاقهم الاجتماعية في عصورهم الأولى بفلسطين كانت قريبة من أخلاق العرب في الجاهلية، ويشير في موضع آخر إلى أن هناك قبيلة يهودية تدعى قبيلة كلب ، هاجر منها اليهود الذين سكنوا في جنوب فلسطين ، كما يشير إلى وجود قبيلة عربية بهذا الاسم تعيش في شمال جزيرة العرب ، وأنها قد هاجرت من اليمن ، فيقول : "وكانت بطون كلب من أعظم البطون اليهودية التي تسكن في جنوب فلسطين ، وكذلك نجد بين القبائل العربية من يلقب بهذا اللقب ، فقد كانت القبائل الكلبية العربية في شمال الجزيرة التي نسبت إلى العصبية اليمنية . وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن تلك البطون الكلبية اليهودية التي تشبه في عاداتها وأخلاقها عرب الجاهلية والتي تقطن جنوب فلسطين أي شمال جزيرة العرب هي أحد بطون قبيلة كلب العربية التي كانت تعيش في اليمن منذ العصور الأولى ، وقد اعتنق هذا البطن الديانة اليهودية خاصة إذا عرفنا أن الديانة اليهودية قد انتشرت في جنوب بلاد العرب ، وهذا البطن الكلبي أو بعض منه قد نزح شمالا إلى أن استقر في جنوب فلسطين ، وليس بعيدا أن تكون هذه البطون قد نزحت إلى شمال الجزيرة ثم اعتنقت اليهودية هناك ، حيث أن بعض بطون كلب العربية المسلمة سكنت في شمال بلاد العرب . وإذا حاولنا استقصاء تاريخ العبرانيين أمكننا القول بأنهم عرب من الكنعانيين العرب الذين هاجروا من الجزيرة العربية متجهين شمالا حيث أقاموا في بلاد سوريا (أرض كنعان) ، فالعبرانيون من أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام ومعروف أنه كنعاني .

من كل ما سبق يمكن القول إن هذه التسمية – السامية – لا أساس لها من الصحة ، إنها تسمية ذات نزعة سياسية معينة ، ظهرت في فترة زمنية معينة ، من أجل خدمة بعض الأغراض السياسية ، كما أنه يمكن القول أن السامية ليست دالة على عرق معينة فلا وجود لجنس سامي بين أجناس العالم ، وهذا ما يؤكده الدكتور جواد علي بقوله :" إني حين أتحدث عن السامية لا أتحدث عنها على أنها جنس أي رس صاف بالمعنى الانثروبولوجي ، بل أتحدث عنها على أنها مجموعة ثقافية ، وعلى أنها مصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتميزها عن بقية الأجناس البشرية ، فأنا أجاريهم لذلك في هذه التسمية ليس غيره فهذه التسمية فارغة المحتوى لا تدل على أي جنس بشري ، ويجب علينا إسقاطها من تفكيرنا مطلقا ، يقول الأب هنري فليش :" إنه ينبغي ألا نفهم من استعمال كلمة السامية أي شيء أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الأمور على الباحثين ، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية إن هذه الشعوب التي أطلق عليها اسم شعوب سامية ، ليست إلا شعوبا عربية عاشت في وطنها العربي منذ آلاف السنين ، وإن القول بوجود لغات سامية وشعوب سامية لا أساس له من الصحة ، ولا يعتمد على أي سند علمي صحيح ، إنها أسطورة خيالية روجت لها الصهيونية العالمية والاستعمار ، وعلى هذا يجب علينا – نحن العرب – أن نرفض هذه النظرية الكاذبة و نستبدل تسمية " أسرة اللغة السامية – الحامية " و " الهجرات السامية – الحامية " باسم " أسرة اللغة العربية " و " الهجرات العربية

---المحاضرة الخامسة ----

اللغة العربية بين الساميات

بعد هذا العرض السريع لتاريخ الساميين ومحاولة توضيح حقيقة النظرية السامية، وحقيقة تلك الشعوب و الأقوام التي أطلق عليها خطأ اسم " الساميون " وبعد أن عرفنا أنهم عرب هاجروا من جزيرتهم بعد أن أصابها الجفاف و التصحر إلى أماكن أكثر أمنا وملاءمة للحياة ، يجدر بنا التحدث عن لغات هؤلاء الأقوام ومحاولة الوقوف على خصائصها ومدى تطورها وبعدها عن اللغة الأم . خرجت تلك القبائل في موجات متتالية ، اتجهت كل مجموعة منها إلى جهة معينة ، حاملة معها لهجتها الخاصة بها ، التي أخذت في الابتعاد التدريجي عن الأصل بسبب بعدها عن الأم ، والتطور اللغوي الذي يرافق اللغات ، والظروف البيئية الجديدة واحتكاكها بغيرها من اللغات ، مما أسهم في تكوين صفات خاصة لهذه اللهجة أو تلك ، أدت في النهاية إلى قطع أواصر الصلة بينها وبين أمها من جهة وبينها وبين أخواتها

من جهة أخرى ، فأخذت تستقل شيئا فشيئا إلى أن أصبحت لغة مستقلة تماما لها خصائصها وصفاتها التي تميزها عن غيرها ، " فاللغات التي ظهرت لنا في العصور التاريخية في صور لغات مستقلة لم تكن إلا لهجات للغة واحدة ، في الوقت الذي كان فيه الشعب الأول لا يزال أفراده يعيشون معها في منطقة واحدة ونحاول الآن أن نتتبع أقوال العلماء والمؤرخين حول هذه القضية ، فقد ذكرت المصادر التي توفرت لنا أن هؤلاء الأقوام الذين رحلوا من جزيرة العرب قد احتكوا بغيرهم من الأمم التي كانت تسكن المناطق التي نزلوا بها ، مما أدى إلى اكتسابهم صفات اجتماعية وخصائص لغوية أسهمت في إبعاد لهجاتهم عن اللغة الأم أكثر وأكثر ، وعملت على منحها الاستقلال التام كلغات جديدة لكل منها كينونة و نظام خاص بها ، وقد أطلق على تلك اللغات " اللغات السامية " ، وقد أشار إلى ذلك إسرائيل ولفنسون عند حديثه عن البابليين ، فقال :" رحل هؤلاء الساميون من الجزيرة العربية ، أو من ناحية سوريا إلى أرض الشومريين ، وغلبوهم على أمرهم ، وأخضعوهم لحكمهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغلبوهم في الدين والحضارة واللغة وفي كل نواحي التفكير ، بل كان التغلب في هذه الجوانب للشومريين ، فتأثر الفاتحون بدين المغلوبين وعمرانهم ، واقتبسوا خطهم ، وشوهت لغة الساميين بعد أن امتزجت بعناصر كثيرة من لغة المقهورين فتأثرت تلك اللهجة العربية التي حملها البابليون معهم بلغات الشومريين ، وقد أدى هذا التأثر إلى تطوير لتلك اللهجة أفقدها كثيرا من صفاتها التي ورثتها عن اللغة الأم ، مما أدى إلى انفصالها انفصالا تاما لتصبح لغة جديدة مستقلة ، لا يربطها بأخواتها اللهجات إلا بعض الخصائص التي لم تتمكن من التنازل عنها ، مما جعل تحديد أصلها ليس سهلا ، ومثل هذا يقال عن بقية اللهجات العربية التي هاجرت من الجزيرة ، فقد أصابها شيء من التطور القسري نتيجة احتكاكها بلغات الشعوب التي عاشت معها ، إلى جانب ما أصابها من التطور الطبيعي الذي تتعرض له كل اللغات . ويزعم ولفنسون أن الأمم السامية قد تأثرت بلغات الجزيرة العربية ، كما يلاحظ أن مظاهر هذه الأمم تكاد تكون صحراوية ، فعواطفها وخيالها وطرائق تفكيرها يشعرنا بروح الصحراء على زعمه . وهذا ما يجعلنا نتساءل ، أي لغات تلك التي يقصد بها لغات الجزيرة العربية ؟ هل كان يعيش في تلك الجزيرة أقوام وشعوب غير الساميين ؟ وإذا كان الجواب بنعم ، فلن نسأل عن جنسهم ، بل نسأل : إذا كان الساميون قد هاجروا من الجزيرة العربية هربا من الجفاف والتصحر، فلم بقيت تلك الشعوب ولم تهاجر كما فعل الساميون ؟ أم أنها لا تتأثر بالجفاف وانعدام الحياة ؟ ثم نسأل عن نوع ذلك التأثر الذي تأثرت به اللغات السامية ، هل كان تأثراً صوتياً أم صرفياً أم في التراكيب أم الدلالة والمعنى ، وما مقدار هذا التأثر ودرجته ؟ وما السند العلمي الذي اعتمد عليه المؤلف في إصدار رأيه هذا ؟ كل هذه أسئلة بحاجة إلى إجابات ....!! ثم لم لا تكون هذه الأقوام التي هاجرت من الجزيرة العربية قبائل عربية هاجرت ومعها لغاتها ، لا

قبائل سامية و معها لغاتها التي تأثرت بلغات جزيرة العرب ثم يذهب ولفنسون إلى أن من مميزات اللغة العربية أنها تشتمل على عناصر قديمة جدا من اللغات السامية الأصلية ، وهذا يدل على أن اللغة العربية كانت موجودة في مهد اللغات السامية ، أو في ناحية قريبة منه ، أو أن العناصر التي نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم الساميةإن هذا الاستدلال الذي توصل إليه ولفنسون يمكننا من استنتاج أن اللغة العربية لم تكن سامية ، بل جاورت السامية وعاشت معها في نفس الإقليم أو أنها كانت في أقاليم مجاورة ، مما أدى إلى حصول احتكاك بين تلك اللغات تأثرت العربية من جرائه ببعض الخصائص السامية ، ثم إن زعمه بنزوح أمم سامية إلى بلاد العرب زعم يعوزه الدقة والتحقيق أيضا ، فمن أي الأقاليم نزحت تلك العناصر السامية إلى بلاد العرب ؟ ومتى كان هذا النزوح ؟ وما أسبابه ؟ ثم أين عاشت تلك الشعوب قبل هجرتها إلى بلاد العرب ؟ كل هذه التساؤلات لا نجد إجابة لها . إن هذا الغموض وعدم الوضوح الذي يطغى على ما ذهب ولفنسون لخير دليل على أن اللغة العربية هي اللغة التي عاشت في مهد العرب " الجزيرة العربية " وإن ما يدور حول ذلك القول من تساؤلات يدل دلالة واضحة على أن تلك اللغة التي عاشت في بلاد العرب هي لغتهم العربية ، كما أن اشتمالها على عناصر قديمة جدا من العناصر السامية المزعومة يؤكد صحة ما نقول ، وإلا فلم اشتملت العربية على هذه العناصر القديمة جدا دون غيرها من بقية الساميات ؟ أليس من الجائز أن تكون العربية قد حافظت على خصائصها وصفاتها ولم تفقدها كما في تلك اللغات السامية ، التي ليست في حد ذاتها سوى لهجات عربية كانت تعيش في جزيرة العرب إلى جانب اللغة الأم ، ومع الهجرة والنزوح بدأت تلك اللهجات بفقد بعض خصائصها تدريجيا بفعل احتكاكها بغيرها من لغات الأمم ، أضف إلى ذلك التطور اللغوي الذي يسهم في ابتعاد اللهجة عن أمها ، كل هذا أدى إلى قطع الصلات بين هذه اللهجات المهاجرة من جهة ، وبينها وبين أمها التي بقيت في الموطن الأصلي من جهة أخرى ، مما أدى إلى استقلال كل لهجة منها لتصبح لغة مستقلة قائمة بذاتها كما هو شأن اللغات الأخرى " لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة ، بعدت اللهجة عن أخواتها ، فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها ومما يؤكد أيضا أن هذه اللغة العربية هي السامية الأم ما ذكره ولفنسون نفسه من أن هناك شبها كبيرا بين العربية والعبرية في كثير من الخصائص والتراكيب وأسماء الأعلام فقال :" وزيادة على المادة اللغوية العبرية التي تشبه العربية شبها كبيرا نجد كثيرا من أسماء الأعلام العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية فوجود كثير من أسماء الأعلام مشتركا بين العبرية والعربية يؤكد لنا تجاور هاتين اللغتين وحياتهما معا في محيط واحد ، وقد أسلفنا أن العبرانيين عرب ولغتهم لهجة عربية ، وأن أسماء الأعلام المشتركة بين العبرية والعربية هي أسماء أعلام عربية احتفظت بها العبرية باعتبارها لهجة عربية وقد أكد

هذا الدكتور علي العناني بقوله :" إن هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية إنما هو اللغة العربية الأولى التي نطقت بها سبأ في غابر الدهور حين عمرت اليمن وجعلت منها موطنا لها ، وجعلت تبتعد هذه الساميات عن أمها السبئية بتراخي العصور وتنائي الديار واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الأقوام ممن جاورهم في أصقاع الأرض هذا رأي صائب لاشك ، فاللغات التي أطلق عليها اسم الساميات ليست إلا لهجات عربية انسلخت من العربية الأم بمرور الزمان ، هنا قد يقول البعض كيف انسلخت تلك اللهجات من العربية الأم ، ولازالت هذه العربية محافظة على سماتها وخصائصها ، ولم تندثر كما اندثر غيرها من اللغات ، كما لم ينسلخ عنها لغات جديدة ؟ إن تلك اللهجات قد انفصلت عن العربية بفعل عوامل كثيرة ، كالبيئة الجغرافية ، والوسط الاجتماعي ، واحتكاكها بلغات الأمم الأخرى ، والتطور اللغوي ، كل هذه الأسباب مجتمعه أدت إلى انفصال تلك اللهجات القديمة عن العربية الأم ، أما اللهجات العربية المعاصرة فكل لهجة منها تتحفز لتنطلق من عقالها ، وتفلت من رباطها ذلك الرباط الذي يربطها باللغة الأم ، محاولة الخروج من هذه الحضيرة اللغوية ، إلا أن رباطها قوي متين لا ينفصم إنه رباط الإسلام الأبدي ، وهذا الرباط هو الذي حافظ على بقاء هذه اللغة قوية متماسكة دون أن يصيبها ما أصاب غيرها من اللغات من تشرذم وانقسام . ويرى البعض أن اللغة العربية القديمة يمكن تقسيمها إلى قسمين ، لغة فصيحة عاشت على تخوم الجزيرة مع تلك القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية وهي ما أطلق عليها خطأ اسم اللغات السامية ، ولغة فصيحة أخرى عاشت داخل الجزيرة منذ عصور التاريخ الأولى . وقد أشار إلى ذلك إسماعيل العرفي بقوله :" كان للغة العربية في زمن ما قبل الإسلام نوعان من اللهجات الفصحى : لهجات خارجية ، ولهجات داخلية ، أما اللهجات الخارجية فهي اللهجات التي نشأت خارج شبه الجزيرة العربية عبر أقوامها العربية النازحة منها والمستوطنة حولها ، والتي يطلق عليها خطأ " اللغات السامية " كالسومرية ، والبابلية ، والآرامية ، والكنعانية ، والعبرية ، والمصرية ، والحبشية ،أما اللهجات الداخلية فهي اللهجات التي نشأت داخل شبه الجزيرة العربية عبر شعوبها وقبائلها المتعددة القاطنة في جميع أرجائها الشاسعة من بائدة وعاربة ومستعربة وجاهلية وقد ذهب ابن حزم إلى أن أصل اللغات السامية كلها اللغة العربية ، وأن تلك اللغات قد انبثقت عنها على مر العصور ، وأن هذا التنوع والاختلاف بين هذه الساميات ليس إلا خلاف لهجي فقط ، قال :" إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها ، فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيران ، ومن القيرواني إذا رام لهجة الأندلسي ومن الخرساني إذا رام نغمتيهما . ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة ، كاد أن يقول : إنها لغة غير لغة أهل

قرطبة ، وهكذا في كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله هذا العرض لآراء العلماء يخلق لدينا اقتناع تام بأن النظرية السامية تسمية واهية خالية من كل مضمون ، وليس لها أية دلالة عرقية أو لغوية ، إنه ينطوي قبل كل شيء على نقض للنظرية التي تنادي بمجموعة جنسية تتفق والمجموعة اللغوية السامية إن الحديث عن لغة سامية حديث بعيد عن الواقع ولا يمت إلى الحقيقة بصلة إنه وهم أشبه ما يكون بالخرافة لأنه لا يقوم على سند نقلي أو دليل عقلي ، إن هذه السامية المزعومة التي يتحدثون عنها لا يستطيع أي باحث أن يوضح شيئاً من صفاتها أو خصائصها ، ولا أن يعرف حتى كلمة واحدة من كلماتها ، فالزعم بوجود لغة سامية زعم باطل يدور حول لغة " مندثرة لا نملك منها نصوصاً مكتوبة ولا مروية في كتابات الآخرين إنها لغة مندثرة ، إنها عدم لا وجود له ، قال أحمد ياقوت :" ونبادر إلى القول بأننا نظن أن اللغة العربية هي السامية الأم نفسها ، وليس كما قال العلماء هي أقرب الساميات إلى اللغة الأم . ونظن أيضاً أن باقي الساميات هي لهجات أو لغيات ناقصة النمو متفرعة عن اللغة العربية ، والدليل على ذلك ما يلي :

أول هذه الأدلة وهو أهمها أننا إذا افترضنا أن اللغة العربية هي أقرب الساميات شبهاً باللغة السامية الأم ، فأين اللغة السامية الأم إذن ؟ يقولون إنها اندثرت ولا نملك منها نصوصاً مكتوبة ولا مروية في كتابات آخرين وهذا شيء عجيب حقاً ، فنحن لا نعرف هذه اللغة ولا نملك نصوصاً مكتوبة عنها ، ولا نقوشاً ، ولم يرو واحد من العلماء نصوصاً بهذه اللغة ، ثم بعد ذلك نحكم بأنها كانت موجودة ثم اندثرت ، كأننا نحكم على العدم بأنه كان موجوداً ثم أصبح عدماً. هذه واحدة وأخرى أن هذه اللغة السامية الأم إن كانت قد اندثرت ، فلم لم تندثر اللاتينية أيضاً أو السنسكريتية وكلاهما لغة أم انبثقت عنها لغات أخرى، بل كلاهما يقاربان اللغة السامية الأم في القدم ؟ وإذا حاولنا أن نقارن بين هذه اللغات التي زعم أنها لغات سامية من حيث الخصائص والصفات المشتركة بينها ومدى محافظة كل لغة منها على تلك الخصائص لوجدنا أن اللغة العربية قد تميزت على غيرها في المحافظة على تلك الخصائص والصفات التي فقدتها بقية اللغات ، مما يؤكد لنا أن العربية هي السامية الأم وقد احتفظت بمعظم الصفات والمزايا التي غالباً ما تفقدها اللهجات المنبثقة عن الأم،

وأهم هذه الخصائص التي تميزت بها العربية ما يلي:

<u>الخصائص التي تميزت بها اللغة العربية :</u>

١- أبجدية العربية أوفى هذه الأبجديات وأكثرها قربا والتصاقا بالأبجدية الأم السامية المزعومة – فهي تفوق غيرها في عدد الأصوات والمخارج التي تستعملها ، يقول الدكتور حسن ظاظا :"ولو عرضنا على هذه الأصوات مجموعة مخارج الحروف الموجودة في كل لغة من اللغات السامية ، لوجدنا أن أوفى الأبجديات ، وأشدها انطباقا على مخارج السامية الأول هو أبجدية

اللغة العربية الفصحى التي تحتوي على كل ما جاء هنا ماعدا السين التي بين بين والصاد الفرعيتين ، وقد حدث في العربية نطقان جديدان هما الضاد والظاء فالسبب الذي جعل العربية دون غيرها من بقية مجموعة هذه اللغات تحتوي على كل المخارج وزيادة هو أنها أصل هذه اللغات جميعاً ولم تخسر شيئاً من هذه الأصوات و المخارج إلا ما خضع للتطور الصوتي واللغوي ، أما غيرها من اللهجات المتشعبة عنها فكان لا بد لها من التغير وفقدان بعض الخصائص والبعد عن الأصل حتى يمكن استقلالها لتصبح لغة جديدة . إذن فخسارتها أمر حتمي ، وبناء على ما سبق فإن مخارج الحروف البالغة ثمانية وعشرين حرفاً ستكون أكثر من أصوات أية لغة أخرى ضمن هذه المجموعة " فهي تنقص عن ذلك كثيراً في العبرية والآرامية والحبشية والبابلية والأشورية . مع ملاحظة أننا نتكلم هنا عن المخارج الأصلية للحروف التي تؤخذ في الاعتبار عند المقارنة اللغوية والبحث عن أصول الألفاظ

٢- إلى جانب محافظة العربية على المخارج ، حافظت كذلك على الأصوات بين السنانية وهما صوت الذال وصوت الثاء ، اللذان فقدا من اللغات الأخريات ، ليحل صوت الزاي محل الذال في بعض اللغات ، ويحل الدال محله في البعض الآخر ، أما صوت الثاء فأصبح ينطق في بعض اللغات شينا وفي البعض الآخر سينا ، كما ينطق تاء في بعض آخر ، وقد أشار إلى هذا الدكتور حسن ظاظا عند حديثه عن صوتي الثاء والذال فقال : "وهما شائعان في العربية ، والمقارنة تثبت أنها حافظت عليهما من اللغة السامية الأم ، بينما أضاعتهما اللغات السامية الأخرى ، فكلمة " أذن " في اللغة العربية ، تأتي في البابلية الآشورية وفي العبرية والحبشية بالزاي ، بينما تأتي بالدال في الآرامية والسريانية ، وفي عربية اليمن القديمة ورد " أذن " بالذال كما في العربية الفصحى . وأما حرف الثاء فإنه يتأرجح في غير العربية من اللغات السامية بين الشين أو السين أو التاء ، فالعبرية تنطق " شورو " وفي الآرامية والسريانية " تورا " ، ولم ترد الثاء إلا في الفينيقية إلى جانب العربية وهذا التغير في هذه الأصوات نجده الآن في لهجاتنا المحلية ، فصوت الذال ينطق زايا في كثير من الكلمات ، فكلمة " حذاء " مثلا تنطق "حزاء " فلا نسمع ذالا بل زايا ، كما أن هذا الصوت قد نسمعه في بعض الكلمات دالا كما في نطق كلمة " دهب " بدلا من " ذهب " . وكذلك الثاء فإنا نسمعها سينا في بعض الكلمات كما في " ثلاثة " التي نسمعها " سلاسة " ، وقد نسمعها تاء كما في " تعلب " بدلا من " ثعلب ". والسبب في تغير نطق هذين الصوتين هو تغير مواضع نطقهما ، وهو ما يعزي إلى التطور الصوتي الذي لا تسلم منه لغة ، وما يحصل لهذين الصوتين الآن في لهجاتنا المعاصرة هو عينه الذي حصل مع تلك اللهجات العربية القديمة التي أطلق عليها اللغات السامية ، وهذا يجعلها تؤكد أن العربية هي أم لتلك اللغات السامية ، لأنها حافظت

على هذين الصوتين قديما وحديثا بينما خسرتها اللهجات في القديم كما خسرتها في الحديث .

٣- وإذا حاولنا تقصي بعض الصوائت القصيرة (الحركات) في هذه المجموعة من اللهجات العربية القديمة (السامية) أدركنا أن تلك الحركات كلها قد أصابتها تغيرات مطردة أدت إلى تغير صفاتها وخصائصها ، وهذا ما لا نجده في العربية الأم التي احتفظت بتلك الحركات كما هي منذ نشأتها باستثناء بعض التغيرات التي يمكن أن نقول عنها أنها شاذة وغير مطردة ، السبب في ذلك التغير ما طرأ عليها من بعض التطورات الصوتية التي لا تسلم منها أية لغة ، " وأكثر تغيرات الحروف الصائتة الواقعة في اللغة العربية ، غير المذكورة إلى الآن اتفاقية ، وليس فيها إلا القليل من المطردة ، فبقيت الحركات السامية على العموم سالمة على حالها في اللغة العربية

٤- ومن الخصائص اللغوية التي حافظت العربية عليها ظاهرة الإعراب ، الذي هو من أقدم السمات اللغوية للغة السامية المزعومة ، يقول برجشتراسر :" الإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الاكادية ، وبعض الحبشية ، ونجد آثارا منه في غيرها أيضا وقد فقدت هذه الظاهرة من معظم المجموعة اللغوية التي زعم أنها الساميات ، ولم يظهر واضحا جليا إلا في العربية فقط ، يقول يوهان فك :" لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها الأدبي إن هذا التفرد للعربية باحتفاظها بظاهرة من أهم الظواهر اللغوية يشير إلى أنها أصل تلك اللغات التي استغنت عن تلك الظاهرة ، وأن اللغات التي فقدت الإعراب ليست إلا لهجات عربية انبثقت عن العربية الأم . ولعل أول وأهم تغير يظهر في اللهجات ويبعدها عن الأم هو إهمال حركات الإعراب ومحاولة التخلص منها ، وهو ما نشهده في لهجاتنا المعاصرة . " إن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولدة ، لا العكس ، أي أنه ليست العربية المولدة منحصرة في التحرر من الإعراب

٥- ومن الخصائص التي تؤكد أن العربية هي الأم لكل مجموعة اللغات السامية أن العربية تشتمل على ثروة لفظية كبيرة لا تجاريها فيها أية لغة من تلك اللغات ، قد تشترك في عدد قليل من تلك الألفاظ بعض اللغات دون غيرها ، وهذا يجعل اللغة العربية تنفرد بعدد كبير من الألفاظ لا توجد في غيرها من تلك المجموعة السامية ، وهذا ما دفع برجشتراسر إلى القول :" فأما أصل هذه الكلمات الكثيرة الخاصة بالعربية ، فقد فقد مال بعض العلماء إلى أنها أو أكثرها سامية أصلية أيضا ، وسقطت من كل اللغات السامية غي العربية ، وهذا بعيد عن الاحتمال في الغاية ، ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها ، وحتى كونها هي اللغة الأصلية بعينها زعم برجشتراسر أن تلك الألفاظ قد سقطت من كل اللغات السامية إلا العربية التي احتفظت بها دون غيرها ، وهو زعم غير منطقي ،

إلا إذا قلنا بأن العربية هي أصل اللغات السامية ، وأن تلك اللغات قد فقدت معظم خصائصها ، وخسرت كثيرا من ألفاظها أثناء عملية انتقالها وتحولها من لهجة إلى لغة مستقلة ، وقد أدرك برجشتراسر أن زعمه السابق غي مقبول ، فحاول الاقتراب من الحقيقة عندما افترض أن اللغة العربية هي أصل الساميات . كما يفترض أن العربية ليست كغيرها من الساميات بل تتفوق عن تلك المجموعات بصيغ وأشكال كثيرة ، وأفانين متعددة ، مما جعلها لا تكتفي بهذه الصيغ القليلة التي ورثتها عن اللغة الأم ، مما جعلها تضع صيغا جديدة من أجل الوفاء بالأفانين والأغراض المختلفة ، فقال :" ويتضح من ذلك أن العربية لما لم تكتف بصيغ قليلة ، مثل سائر اللغات السامية ، كانت تميل إلى كثرة الأشكال ، والتفنن في الصيغ الكثيرة ، ونرى ذلك في صيغ جمع التكسير ، فهي متعددة أيضا وبعضها افترضته العربية مع الحبشية ، وبعضها اقترحته العربية وحدها

٦- كما تتميز العربية عن بقية الساميات بخصائص فعلية كثيرة ، إذ أن الفعل فيها يستخدم بطرق متعددة وصيغ مختلفة ، لا نجدها في غيرها من اللغات ، فهي تقوم بتحديد معنى الفعل وتخصيصه داخل السياق باستخدام الأدوات المساعدة الكثيرة والمختلفة الدلالات والأغراض ، كل هذا أسهم في تنويع معاني الأفعال ، فعندما نقول مثلا " فعل " و" قد فعل " و " قد يفعل " و " سيفعل " و " سوف يفعل " فإن كل صيغة من هذه الصيغ تدل على معنى مغاير لما يدل عليه غيرها من الصيغ الأخرى ، " فكل هذا ينوع معاني الفعل اليوناني والغربي ، أو بالأحرى : أغنى منهما في بعض الأشياء . وهذا أكبر دلالة على سجية اللغة العربية وطبيعتها ، فهي أبا تؤثر المعين المحدد على المبهم المطلق ، وتميل إلى التفريق والتخصيص ، فاللغة العربية أكمل اللغات السامية وأتمها في هذا الباب ، أي باب معاني الفعل الوقتية وغيرها

٧- إضافة إلى ما سبق فقد حافظت العربية على عمل الفعل من رفع ونصب ، ووافقها في هذا بعض اللغات السامية ، وقد انفردت بالمحافظة على عمل الأسماء التي تعمل عمل الفعل ، فوضعت لها أحكاما دقيقة وقواعد ثابتة لا نجد لها أثرا في بقية الساميات

٨- وقد تفوقت عن غيرها من اللغات السامية إلى جانب تفوقها عن أكثر لغات العالم ، وهو ما دفع برجشتراسر إلى القول :" ومن غرائب العربية التي تتميز بها ليس عن سائر اللغات السامية فقط ، بل عن أكثر اللغات على العموم : اسناد الفعل أو الخبر إلى ظرف الزمان . نحو : إذا نام ليل الهوجل

٩- ويقوم بناء الجملة في العربية على عملية الإسناد ، ولابد من مراعاة الترتيب بين المسند والمسند إليه ، وقد اختلفت اللغات في ترتيب الألفاظ داخل الجمل ، فمنها ما قد عين موقعا محددا لكل لفظة داخل الجملة ، لا يمكنها مغادرته إلا في بعض الحالات النادرة ، ومن اللغات ما تتحرك كلماتها داخل الجملة كما تشاء دون تأثير على المعنى ، أما في العربية فإن التقديم والتأخير بين مفردات الجملة الواحدة ممكن ، ولكن وفق أطر ومعايير معينة ، وشروط

لابد من مراعاتها ، فقد وضعت لتقديم الخبر في الجملة الاسمية قواعد أثبت مما يوجد في سائر اللغات السامية ... وهي أشد اللغات السامية تقييدا لترتيب الكلمات

١٠ - ومع اشتمال العربية على كثير من الأدوات وطرائق التعبير المختلفة التي تساعد في تنوع التعبير وتسهم في إيضاح كل غموض وإبهام ، رغم كل هذا فقد حافظت على كثير من الخصائص التي تؤكد قدمها إذا ما قورنت باللغات السامية الأخرى ، فنجدها قد حافظت على خصائص الجملة الاسمية التي هي " من أقدم تركيبات اللغات ، والعربية مع احتوائها على وسائط التخصيص والتعيين قد حافظت على هذا التركيب الأولي المبهم أيضا

--المحاضرة السادسة--

العربية البائدة والعربية الباقية

منذ عصور سحيقة في التاريخ انتشرت اللغة العربية في كل مناطق الجزيرة العربية وأنحائها المختلفة وتفرعت بفعل عوامل التطور اللغوي إلى لهجات متباينة لكل قبيلة لجهتها الخاصة بها ، أدى ذلك إلى أن قسم المستشرقون هذه اللهجات إلى قسمين : لهجات الشمال ولهجات الجنوب . وقد أشار إسرائيل ولفنون إلى ذلك بقوله " وقد وجدنا العلماء من العرب والإفرنج يقسمون اللهجات العربية إلى قسمين يشتمل القسم الأول على جميع اللهجات العربية في شمال الجزيرة ، والآخر يشمل اللهجات التي في الجنوب إلا إن هذا التقسيم لم يَرُق له " ول فنسون " فاعترض عليه ورأى أن لا يعتمد على أسس علمية سليمة وإنما يعتمد على أسس جغرافية وتاريخية غير دقيقة ، كما يرى أن أصحاب هذا التقسيم لم يقدموا تبريراً معقولاً لهذه التسمية ، فيقول : " إنهم لم يشرحوا لنا شرحاً وافياً السبب الذي حملهم على تقسيمهم هذا ولم يبينوا له علة ... إنه ليس تقسيماً جغرافياً صحيحاً ولا تاريخياً دقيقاً فليست هناك حدود واضحة تفصل شمال الجزيرة عن الجنوب ، وتبين لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبي من اللغة العربية ، ومن أين وإلى أين سادت اللهجات الشمالية من العربية [١] " ثم يقترح أن تقسم هذه اللهجات العربية إلى عربية بائدة وأخرى باقية ، فيقول : " والذي نراه صواباً أن تقسم اللهجات العربية إلى بائدة وباقية ومهما يكن من أمر فإن أي تقسيم سواء كان جغرافياً أم تاريخياً أم غير ذلك سيقودنا إلى القول بأن اللهجات العربية القديمة قد انقسمت إلى عربية بائدة تضم تلك اللهجات التي عثر عليها في جنوب بلاد العرب ، وبعضاً من لهجات الشمال ، حيث سادت هذه اللهجات في فترات تاريخية مختلفة ، ثم أتت عليها يد الدهر

فأبادتها . وعربية باقية ، وهي التي سادت في العصور الجاهلية ، ونظمت بها القصائد ونزل بها القرآن الكريم ، وهي التي تستخدمها في كتابتنا بها إبداعتنا ونتحدث بها اليوم . وبناءً على ما سبق سنقوم بدراسة اللهجات العربية على هذا الأساس " العربية البائدة والعربية الباقية " .

1 -العربية البائدة أو " عربية النقوش " :

يطلق هذا الاسم على لهجات لمجموعة من القبائل العربية التي عاشت في منطقة العلا شمال الحجاز ، على مقربة من الآراميين وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي ولشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، وبعدها عن المراكز العربية الأصيلة بنجد والحجاز صبغ من يتكلمون بها بالحضارة الآرامية والنبطية ، واستعملوا حرفاً قريباً من الخط المسند وأرخوا نفوسهم بحرب النبط ، وحرب الفرس والروم ، وتاريخ بصرى وأشهر هذه اللهجات الثمودية والصفوية واللحيانية .) سمي بذلك لأن حروفه تستند إلى أعمدة ، وتمثل بذلك طرازهم المعماري الذي كان يرتكز على الأعمدة في تشييد القصور والمعابد والسدود وأبواب المدن والأسوار

أ- الثمودية :

وهي اللهجة التي تنسب إلى قبائل ثمود التي ورد ذكرها وذكر مساكنها في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، وقد عثر على نقوش هذه اللهجة في المناطق التي يعتقد العرب أنها كانت مساكن لقبائل ثمود ، وتاريخ هذه النقوش يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ، وقد زاد عدد هذه النقوش على ألف وسبعمائة نقش عثر عليها فيما بين الحجاز ونجد وفي شبه جزيرة سيناء وبالقرب من دمشق ، وقد كتبت بخط مشتق من الخط المسند يتجه من أعلى إلى أسفل ولا يثبت على حال واحدة .

ب- الصفوية :

وهي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفا مع أن نقوشها قد عثر عليها في مناطق مختلفة في الحرة الواقعة بين ثلول الصفا وجبل الدروز ، ويزيد عددها على ألفي نقش . ويرجع تاريخها إلى القرن الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وقد حلّ رموزها واكتشف حروفها المستشرق الألماني إنوليتمان Enno Litmann ، واتضح له أن خط هذه النقوش قريب من الخط النموري ، وقد يكون " مشتقاً منه إلا أنه شديد التغير والاختلاف فما يكاد يستقر على حال واحدة ، فهو تارة يقرأ من الشمال إلى اليمين ، وتارة أخرى من اليمين إلى الشمال . وهذا التشابه بين الخطين الثمودي والصفوي جعل بعض العلماء يطلقون على الخط القديم الذي يبدو فيه أثر النوعين كليهما اسم " الخط الثمودي الصفوي

وهذا الشبه الشديد بين الخطين ، وعدم نسبة اللهجة الصفوية إلى قبائل بعينها ، بل نسبتها إلى المنطقة التي وجدت فيها ، منطقة الصفا ، وهي نفس المنطقة التي عثر فيها على النقوش الثمودية ، إضافة إلى أن " بعض الدارسين يقسمون تطور الخط الصفوي إلى مرحلتين اثنتين ويعتبرون أن المرحلة الأولى هي امتداد للخط الثمودي ، في حين يرون أن الخط الصفوي الخالص لا يظهر إلا في المرحلة الثانية كل هذا يجعلنا نقول إن اللهجة الصفوية قد تكون إحدى لهجات الثمودية تفرعت عنها نتيجة للتطور اللغوي الذي يصيب اللغات ، وأصبح لها ملامح خاصة بها ، يتجلى ذلك في خطها الذي كان في المرحلة الأولى من مراحله شديد الشبه كثير الالتصاق بالخط الثمودي ، ثم تطور تدريجياً وابتعد عن الخط الثمودي لتبدأ المرحلة الثانية من حياته ، وليصبح خطاً مستقلاً واضح المعالم .

ج- اللحيانية :

تنسب هذه اللهجة إلى قبائل لحيان التي يرجح أنها كانت تسكن في شمال الحجاز ، وقد اختلف العلماء في أصل هذه القبائل اختلافاً كبيراً . وقد عثر في هذه المنطقة على نقوش كثيرة لم يثبت بصورة قاطعة تاريخها ، وأغلب الاحتمالات أنه يعود إلى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ قبل الميلاد ، وكتبت بخط مشتق من الخط المسند ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال ، ومعظم هذه النقوش يتحدث عن أسماء ملوك لحيان وألقابهم وتعدادهم وإلى غير ذلك .

2- العرب الباقية :

هي التي تنصرف إليها كلمة " العربية " عن إطلاقها ، وهي التي لا تزال متسخدمة في الكتابة والتأليف في كل أرجاء الوطن العربي ، وقد تكونت من احتكاك اللهجات العربية بعضها ببعض وتخلصت من الخصائص اللهجية لكل من تلك اللهجات ، وقد أشار إسرائيل ولفنون إلى ذلك بقوله " اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات عربية بعضها من شمال الجزيرة وهو الأغلب ، وبعضها من جنوب البلاد اختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة وقد أطلق عليها اسم اللغة المشتركة ، فهي لغة موحدة منسجمة في كل جوانبها ، وتخلو من الخصائص اللهجية المختلفة ، وهي لغة منتقاة من بين كل اللهجات العربية ، وقد أنشأت هذه اللغة المشتركة ، ونمت وازدهرت قبل الإسلام " وأقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، الغزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت البيئة معينة ، في شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها ، والتغلب على اللهجات الأخرى وقد تكونت هذه اللغة المشتركة جراء احتكاك العرب بعضهم ببعض في كثير من مجالات الحياة . فهناك احتكاك في النشاط

التجاري المتمثل في الأسواق ، فقد كان للعرب في جاهليتهم عدد كبير من الأسواق يربو على ستة وعشرين سوقاً أشهرها : عكاظ ، والمجنة ، وذو المجاز ، ودومة الجندل ، وخيبر ، والشحر . وهناك احتكاك عن طريق الحروب ، كحرب الفجار ، وحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء وغيرها ، إلى جانب احتكاكهم من خلال الأحلاف والعهود والمناظرات الأدبية والمساجلات الشعرية ، وغيرها ، فقد كان سوق عكاظ " مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً ، له محكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيد ، وما بهرجوه فهو الزائف إلى جانب هذه العربية المشتركة كانت هناك لهجات متعددة " ففي كل بلاد العالم لا بد للغة المشتركة من مكان تتميز فيه ، وأسباب وظروف معينة تساعد على تكوينها وازدهارها ، وحياتها بجانب اللهجات الأخرى وقد اختلفت هذه اللهجات فيما بينها في كثير من مظاهرها الصوتية والدلالية وغيرها ، وكان العربي يتكلم مع أهله وعشيرته بلهجتهم الخاصة ، وإذا أراد أن يربح خطبة أو أن ينظم شعراً لجأ إلى تلك اللغة المشتركة التي يفهمها كل العرب والخالية من كل الصفات اللهجية الخاصة ، قال إبراهيم أنيس : " ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التي عُرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح أثراً لتلك الصفة في شعر شعرائها ، ورواية شعر فيه كشكشة بشعر خال منها تأباه بعض الأوزان الشعرية ، بل حين نرجع إلى ديوان الهذيين لنستشف منه الصفات التي عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحة أو تسهيل الهمزة أو الأستنطاء ، لا نكاد نعثر على أثر له في أشعارهم ولولا أن هذه اللغة المشتركة لم تكن في متناول جميع العرب ، وأنها أرقى مستوى من بقية اللهجات ، لما اعتبرت مقياس البلاغة والفصاحة ، ولما أمكن الحكم على كلام بأنه أفصح من غيره ، وعلى شاعر بأنه أفضل من غيره .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : كيف تكونت هذه العربية المشتركة ؟ بداية يجب الإشارة إلى أن اللهجات العربية القديمة التي كانت موجودة في جزيرة العرب لا بد أن تكون قد انشعبت عن لغة واحدة ومعلوم أن اللغة تزرع بذور فنائها في رحمها ، لأنها تتطور فينتج عن تطورها بعض الاختلافات ، وتنمو هذه الاختلافات تدريجياً ، ويستعمل كل مجموعة منها مجموعة من الناس ، وتعرف حينئذٍ باللهجة التي تنمو وتبتعد تدريجياً عن اللغة الأم التي يبدأ الضعف يدب في أرجائها وتبدأ تفقد من يتكلمون بها ولا تلبث أن تموت وتندثر ، وتخلفها تلك اللهجات التي تصبح لغات مستقلة لكل منها خصائصها وقوانينها .هذا الأمر يحدث مع كل اللغات إلا اللغة العربية التي سادت بعكس سنة تطور اللغات ، فبدلاً من أغلالها وتمزقها إلى لغات مختلفة ، تجلّت العناية الإلهية في توحيد اللهجات العربية في لغة مشتركة تميزت عن بقية اللهجات بالبلاغة والفصاحة والبيان ، وهذا ما أوحى بأن هذه اللغة المشتركة سيكون لها شأن عظيم تجلى ذلك في نزول القرآن الكريم بها ، وجاء هذا القرآن وهذا الدين للعالم كافة لتكون هذه اللغة للعالم كافة .

وكان لعلمائنا القدماء والمحدثين آراء متباينة حول نشأة اللغة المشتركة تمثلت فيما يلي :

الرأي الأول : يؤكد أن لهجة قريش أفصح اللهجات العربية ، وأنها استطاعت التغلب على سائر اللهجات العربية التي كانت في شبه الجزيرة العربية ، وبه قال كثير من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ، فابن جنّي يربأ بلهجة قريش عن أن يكون لها صفات لهجية مذمومة ، فيقول : " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة وتلتلة بهراء ويرى ابن فارس أن قريشاً أفصح لأن الله سبحانه اختار منهم رسوله الأمين ، فيقول : " أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله – جل ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم

ونجد صدى هذا الحديث لدى بعض الباحثين المعاصرين ، فيرى علي عبد الواحد وافي أن لهجة قريش تغلبت على سائر اللهجات العربية وانتصرت عليها بعد صراع مرير معها ، يقول : " اشتبكت اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب النصر فيه للهجة قريش فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة ، واستأثرت بميادين الأدب وشعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربية فأصبح العربي أيّاً كانت قبيلته يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبي بلهجة قريش وهذا كلام غير دقيق ومجافٍ للحقيقة العلمية ، فليس من السهولة بمكان أن تسيطر لهجة مهما كانت سطوتها وجبروت أهلها على غيرها ، كما لا يمكن أن يقبل أهل اللهجات المغلوبة هذا الأمر ، خاصة إذا كان هؤلاء الأقوام يعيشون بالعقلية القبلية التي تأنف الخضوع للغير .ثم يزعم في موضع آخر من كتابه : " أن لا غرابة إذاً في أن القرآن وقد جاء بلغة قريش كان مفهوماً لدى جميع القبائل ، وكان يؤثر في العرب جميعاً ببيانه وبلاغته . فقد نزل بعد أن تمَّ للهجة قريش التغلب على اللهجات العربية الأخرى ، وبعد أن أصبحت لغة الآداب لسائر قبائل العرب إنه يجزم أن القرآن نزل بلهجة قريش وهذا القول بجانب الصواب ، فالقرآن كما هو معلوم نزل بلغات العرب كلها ليكون مفهوماً لكل العرب ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : نزل القرآن بلغات العرب وكلها كافٍ شافٍ . ويمكننا أن نتعرف على اللهجات العربية في القرآن الكريم بسهولة ويسر .أما صبحي الصالح فيرى أن لهجة قريش هي العربية الفصحى ، مع أنه يعترف أنها لم تكن في جميع حالاتها أفصح من لهجة تميم ، فيقول : " وسنرى أن لهجة قريش التي جعلتها العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية اللغة العربية الفصحى المقصودة عند الإطلاقش ، لم تكن في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم ، بل كثير ما ثقفوها في بغض ذلك تميم ، ولكنها - أي القرشية – باعتراف من جميع القبائل وبطوعية واختار من مختلف لهجاتها

، كانت أغزرها مادة ، وأرقها أسلوباً ، وأغناها ثروة ، وأقدرها على التعبير الجميل الدقيق الأنيق في أفانين القول المختلفة

الرأي الثاني : جاء على لسان طه حسين الذي يرى أن لهجة قريش بما توفر من سلطان سياسي وديني واقتصادي حريّ بها أن تسود غيرها من اللهجات إلاّ أنه لا يعلم متى تمت لها هذه السيادة ، قبل الإسلام أم بعده ، فيقول : " فالمسألة إذاً هي أن نعلم أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول إنها سادت قبيل الإسلام حين عَظُم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية ... فقد اجتمع لقريش سلطان سياسي واقتصادي وديني . وأخلق بمن يجتمع له هذا السلطان أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية ... لغة قريش إذاً هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف ، وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية ، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب ، كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش

الرأي الثالث : جاء على لسان عبده الراجحي الذي رأى أن الآراء التي ذهبت إلى أن لغة قريش هي العربية المشتركة إنما جاء لتمجيد لغة قبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : " إن هذه الآراء التي تذهب إلى أن لهجة قريش هي اللغة المشتركة الفصحى لا تقوم على أساس لغوي علمي صحيح ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على لغة من اللغات من أقوال الرواة عنها ، خاصة وأن هذه الأقوال ينبغي أن نأخذها بقدر كبير من الحيطة والحذر ، لأنها – كما نحسب – لم تصدر إلاّ عن تمجيد لقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه الروايات التي تزعم أن لغة قريش هي اللغة المشتركة لا يمكن الاعتماد عليها ، فليس لها سند علمي يمكن من خلاله الحكم على ما جاءت به . " وقد كنا نستطيع أن نحكم هذا الحكم لو توافرت لدينا نصوص لغوية من لهجات القبائل تتميز بها أمامنا لهجة قريش وغيرها بحيث يُظهر لنا تطور هذه النصوص أن لهجة قريش استطاعت أن تسود غيرها من اللهجات ، وأن تفرض نفسها لغة نموذجية مشتركة يصطنعها الشعراء في شعرهم والخطباء في خطبهم وهذا يعني أن لغة قريش ليست اللغة العربية المشتركة ، يقول حاتم الضامن : " إن اللغة المشتركة هي ليست لغة قريش وحدها ، أو تميم أو غيرها من قبائل العرب ، بل هي مزيج من كل هذا تكونت له شخصيته وكيانه وأصبح مستقلاً عن اللهجات وبهذا نؤكد أن العربية المشتركة لم تكن لهجة قريش فقط ، بل هي مزيج اشتركت في إنتاجه معظم لهجات العرب " فهذه اللغة المشتركة لا تنسى إلى قبيلة بذاتها ، ولكنها تنسب إلى العرب جميعاً ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها ، وهذه النصوص – كما تعلم – ليست قرشية أو تميمية أو هذلية فقط ، بل هي من

قبائل مختلفة مما يدل على أن هذه اللغة المشتركة هي التي كان الأدباء يصطنعونها في فنهم القولي ومهما يكن من أمر فإن لغة قريش ليست اللغة المشتركة ، لأنها لم تكن أفصح اللهجات العربية ، وقد اعترف بذلك القرشيون أنفسهم وأكدوا ذلك بإرسال أبنائهم إلى البادية لتعلم الفصاحة ، فلو وجدوا في أنفسهم فصاحة أكثر من فصاحة " البادية " أرسلوا أبنائهم لهذا الغرض . كما أن نتائج الدراسات اللغوية تميل إلى ما يلي :

١- نزل القرآن بهذه اللغة المشتركة المصطفاة من معظم اللهجات العربية حتى يكون مفهوماً لدى كل العرب .
٢- كانت في جزيرة العرب لهجات متعددة تختلف في كثير من الجوانب اللغوية ، تختلف في الأصوات ، وفي التركيب وفي الدلالة وغيرها ، وإلى جانب هذه اللهجات وجدت اللغة المشتركة التي كان يستخدمها الخاصة في معاملاتهم ، والشعراء في نظم قصائدهم والخطباء في تبريج خطبهم ، وكانت مستعصية على عامة الناس .
٣- في القرآن الكريم أشياء كثيرة من لهجات القبائل المختلفة ، حتى ذهب أحد الباحثين إلى القول إن في القرآن خمسين لغة
٤- لهجة قريش هي الأكثر وروداً في القرآن الكريم ، يؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم .

المحاضرة السابعة

العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية

اللغة وسيلة للتعبير عما يدور في خلجات النفس من أفكار ، وإخراجه إلى عالم الحسن ، والإدراك الخارجي ، وهي خير أداة للتفاهم بين بني البشر ، وأفضل وسيلة للاتصال ونقل الآراء والأفكار بينهم . كما أنها كائن حي ينمو ويتطور ، وينتج عن هذا النمو والتطور ارتقاء لغوي تدريجي ، يساير الارتقاء العقلي والحضاري ، هذا الارتقاء اللغوي ناتج عن تطور ذاتي في اللغة لأنها لم تحتفظ في تطورها وارتقائها بالأصل الذي وجدت به ، بل نجدها دائمة التفرع والتشعب إلى لهجات ولغات مختلفة ، كما أن هذا الارتقاء ناتج أيضاً عن تطور في أعضاء النطق الإنسانية إلى جانب الاحتكاك الحتمي بين اللغات المختلفة ، وقد أدت هذه الأمور مجتمعة إلى ظهور أنماط متعددة في استعمال اللغة الواحدة ، ولدى الفرد الواحد ، وداخل المجتمع الواحد هذه الأنماط تدور في فلك اللغة الأصل ، تشابهها في كثير من الصفات والخصائص ، وتبتعد عنها في صفات وخصائص أخرى . هذا ما جعل الفرد في المجتمع يعرف نوعين مختلفين للغته الأم : النوع الأول هو اللغة الأصل

، العالية أو الراقية التي تستخدم في التعليم ، وفي الكتابة وفي المعاملات الرسمية ، وهي اللغة الفصيحة أو الرسمية . أما النوع الثاني : فهو الجانب المتطور للغة الذي يمثل البعد عن اللغة الأم ، ويستخدمه أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة في الاستعمال اليومي ، وهو ما يطلق عليه اسم اللغة العامية ، أو الدارجة ، أو المحكمية ، أو اللهجة المحلية ، وغير ذلك من الأسماء . فنحن هنا أمام نمطين أو تنوعين مختلفين للغة واحدة ، ويمكن القول بشيء من التسامح إن الفرد في هذه الحالة يعرف لغتين مختلفتين لكن أصلهما واحد .

واحتكاك اللغة بغيرها من اللغات يؤثر عليها سلباً أو إيجاباً ، ويفرض عليها تغيراً معنياً يقاس بمقدار ما اقتبست من خصائص ، وما اكتسبت من صفات جديدة ، وقد يسود في المجتمع لغتان مختلفتان لظروف سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو دينية ، أو غير ذلك ، وقد يتعلم الفرد لغة أو أكثر غير لغته الأم ، فيصبح عارفاً للغات ليست من أصل واحد ، فنحن هنا أمام ظاهرتين لغويتين مختلفتين : الأولى ، معرفة لغتين من أصل واحد " اللغة الأم إلى جانب لهجة محلية " والثانية : معرفة لغتين مختلفتي الأصول كالعربية إلى جانب الإنجليزية مثلاً ، وقد ترتب على معرفة اللغات بهذا الشكل اختلاف العلماء في تحديد مفهوم دقيق لكل ظاهرة من هاتين الظاهرتين وحديثاً عن الاختلاف في الاستعمال اللغوي داخل المجتمع أو لدى الفرد يقودنا إلى الحديث عن الثنائية اللغوية ، والازدواجية اللغوية والتعددية اللغوية .وقد أطلق على هذين التنوعين اللغويين ، ازدواجية اللغة Diglossiaوثنائية اللغة Bilingualism . وعند ترجمة هذين المصطلحين نجد أنهما يحملان نفس المعنى .فمصطلح Diglossia يتكون من سابقة يونانية Di معناها مثنى أو ثنائي أو مضاعف ، و gloss ومعناها لغة ، ولاحقة iaللحالة ، فحاصل الترجمة : صفة أو حالة لغة مثناه أو مضاعفة (الثنائية اللغوية) والمصطلح Bilingualism يتكون من سابقة لاتينية Bi معناها مثنى أو مضاعف Lingual لغوي ، واللاحقة ism الدالة على السلوك المميز أو الحالة أو الصفة ، فحاصل الترجمة سلوك لغوي مثنى أو مضاعف (الثنائية اللغوية) فيظهر للوهلة الأولى أن المصطلحين يدلان على معنى واحد هو لغتان . إلا أن الحقيقة غير ذلك فالمصطلحان غير متطابقين ، بل يدل كل مصطلح منهما على معنى مغاير لما يدل عليه الآخر .وإذا حاولنا أن نحدد كل مصطلح من هذين المصطلحين وكيفية ظهوره ، وجدنا اختلافاً في تحديد كل منهما لدى علماء الغرب ، ترتب عليه خلط واضطراب لدى علمائنا . فقد ظهر مصطلح Diglossie أو ما ظهر عند الفرنسيين على يد العالم وليم مارسيه الذي نحت هذا الاصطلاح LaDiglossia عام ١٩٣٠م ، وعرفه بقوله : " هو التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ، ولغة عامية شائعة ولما لم يكن في اللغة الإنجليزية كلمة لها مثل هذه الدلالة ، صيغ هذا المصطلح Diglossia ليدل على

نفس المعنى إلا أن " اللغات الأوربية الأخرى بوجه عام تستعمل كلمة Diglossia عوضاً عن كلمة Bilingualism الثنائية اللغوية في نفس هذا المعنى الخاص أيضاً وفي عام ١٩٥٩م نقل شارل فرغسون Charles Ferguson مصطلح Diglossia إلى الإنجليزية ، ليدل به على شكلين مختلفين من الاستخدام للسان نفسه أي أنه تنافس بين تنوعين للسان واحد ، ووجود وضع مختلف لكل من هذين الشكلين اللغويين إذ يستخدم أحدهما في الحياة اليومية العامة ، ويستخدم الآخر في الأمور الرسمية والدوائر الحكومية في المدارس والمحاكم والوزارات وغيرها ، ويعتبر هو المعيار الرسمي والحقيقي ، وقدم لهذه الظاهرة تعريفاً ، قال فيه : " حالة لغوية ثابتة نسبياً ، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية التي ربما تضم نمطاً محدداً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم ، نمط آخر في اللغة مختلف ، عالي التصنيف " وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية القواعدية " فوقي المكانة ، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع الجماعات المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية هكذا وضع فرغسون الحدود العامة لمصطلح Diglossia وقصد به الازدواج اللغوي الذي يقوم على تنوعات مختلفة للسان واحد ، وقد أشار أندريه مارتينية إلى عدم وضوح هذه الظواهر اللغوية ، فقال " إن المعيار الدولي في شأن التوسع المفرداتي انطلاقاً من الألسن الكلاسيكية للغرب قلما بينا ، وهو غالباً اليوم مساء الاستعمال من قبل الألسنيين أنفسهم فهذه الظواهر اللغوية غير واضحة المعالم عند علماء اللغة أنفسهم ، لأنها ظواهر لا تهم اللغويين وحدهم ، بل يهتم بها كثير من العلماء على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم . ويتابع مارتينية حديثه عن المعيار الذي يمكن أن يحدد الجوانب العامة لهذه الظواهر فيقول : " إن النظرة إليه حظيت باحترام عندما افترضنا مقابل اللتينانية " النزعة اللاتينية Latinisme " ثنائي اللسان Bilingualisme " المفردة الهلينية Hellenisme الازدواجية الألسنية Diglossia وفي عام ١٩٥٩م اقترح شارل فرغسون استعمال هذه المفردة (التي لها تماماً في اللسان الإغريقي قيمة ثنائي اللسان bilinguisme ، للإشارة إلى موقف معين حيث نسجل الاستعمال التنافسي لشكلين مختلفين لما نعتبره بمثابة اللسان الواحد . إن اختيار مفردة الازدواجية الألسنية في هذه الحال يُفسر على نحو جيد من قبل بعضهم ، الذي يعتبر أن عنصر لسان " ألسونة Lingu " في كلمة ثنائي اللسان bilinguisme يتماثل مع المفردة الفرنسية لسان Langue أو الإنجليزية language ، للإشارة إلى ما نعتبره بسذاجة بمثابة " لسان حقيقي " من حيث حالته كلهجة محلية ، والذي لا يني أبداً أن يكون هو نفسه عندما يظهر على شكل عاميات dialects متميزة لن يكون هناك إذن

ثنائية لسان إلا إذا كان موضوع الخلاف لسانين من هذا النموذج ، فلنقل الإنجليزية والروسية والألمانية والصينية .

هنا حيث اللهجات المتنافسة متماثلة كتنوعين varieties اثنين للسان بعينه ، نفضل الكلام على ازدواجية ألسنية ، لأن العنصر gloss لا يفرض أبداً بالضرورة مفهوم اللسان الحقيقي لأي كان فيما عدا الشخص اليوناني.
يحاول مارتينية في النص السابق أن يكون متفقاً مع ما ذهب إليه فرغسون ، فيلجأ إلى القول بأن مصطلح bilinguisme يدل في جذوره اللغوية على معنى الثنائية اللسانية ، ويدل Diglossia على الازدواج اللغوي ، وقد وصل إلى هذه القناعة من العودة إلى جذر كل مصطلح من المصطلحين ، إذ ذهب إلى القول بأن عنصر لسان " ألسونة lingnu " يتماثل مع مفردة لسان في اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وأن عنصر gloss لا يفرض مفهوم اللسان الحقيقي ، بل يوحي بمعنى تنوع اللسان الواحد .
ويرى R. Fasold أن فرغسون يعتبر ازدواجية اللغة تكاملاً وظيفياً بين شكلين لغويين ، فيقول إن " فرغسون قصد أن ازدواجية اللغة هي تكاملاً وظيفياً Complenentarity Functional بين شكلين لغويين مرتبطين ارتباطاً أبعد من التقارب بين أساليب اللهجة الواحدة ، ولكنه في الوقت نفسه أقرب من التباين بين اللغات المختلفة (٧) " . وكأنه يقصد بهذا الفهم لما قاله فرغسون ما يمكن أن يطلق عليه اسم اللغة الهجين التي هي مزيج لغوي خاص نشأ نتيجة للاحتكاك بين لغتين مختلفتين ، ربما كانتا متساويتي المكانة والقوة ، ولا تظهر فيها خصائص إحدى اللغتين أكثر من الأخرى .
أما ج . فيشمن j. Fishman فيرى أن هذين المصطلحين " ثنائية اللغة وازدواجية اللغة " ليسا إلا وجهين لعملة واحدة ، فيقول " وثنائية اللغة صفة مميزة للتصرف اللغوي على المستوى الفردي ، أما ازدواجية اللغة ، فإنها خاصية من خصائص التنظيم اللغوي على مستوى المجتمع ثنائية اللغة هي سمة الاستخدام اللغوي من قبل الأفراد ، بينما ازدواجية اللغة هي وصف لتخصيص المجتمع لوظائف معينة للغات أو لهجات مختلفة فالفرق بينهما في نظره ليس فرقاً جذرياً ، إنه فرق من ناحية الاستخدام فقط ، فالنمط اللغوي الذي يستخدمه الفرد هو الذي يطلق عليه اسم الثنائية اللغوية ، أما الازدواجية فهي صفة خاصة تطلق على تلك الوظائف التي فرضها المجتمع على استخدام مستويات لغوية محددة لأغراض لغوية واجتماعية محددة . كل هذا الخلط والاضطراب وعدم الوضوح في تحديد مفاهيم هذه الظواهر اللغوية " دفع كاي Kay إلى اعتبار أن الفرق بين الكلام المعد مسبقاً والآخر الفوري شكلاً من أشكال ازدواجية اللغة ونتيجة لتشابك هاتين الظاهرتين اللغويتين ذهب محمد الخولي إلى اعتبار وجود لهجتين إحداهما فصيحة والأخرى عامية في المجتمع نوعاً من الثنائية اللغوية ، اسماها

ثنائية رأسية ، فقال : " أما إذا كانت اللغتان لهجتين للغة واحدة ، كأن تكون لهجة عالية فصيحة ، ولهجة عامية محلية فتدعى هذه ثنائية رأسية Vertical Bilingualism [١٠] " ويوضح سبب هذه التسمية فيقول " وجاء مفهوم الرأسية من وجود لهجة عالية هي اللهجة الفصيحة ، وأخرى أقل شأناً أو علواً هي اللهجة العامية أو المحلية ويضرب مثلاً لذلك فيقول " مثال ذلك حال العرب مع اللهجة الفصيحة واللهجات العامية أو المحلية ، وتدعى هذه الحالة أيضاً الثنائية اللهجية ويحاول توضيح فكرته هذه في موضع آخر من كتابه فيقول : " ويجب ألا ننسى حالة شائعة لدينا جميعاً من الثنائية الرأسية والتي يمكن أن ندعوها ثنائية لهجية **bidialectalism** والتي يدعوها البعض ازدواجية اللغة أو الازدواجية اللغوية **diglossia** وهي حالة استخدام الفرد للهجتين من لغة واحدة وبصورة تكاملية هكذا نجد أن هذين المصطلحين – كما يظهران في أقوال العلماء – غير واضحي الدلالة في أذهانهم ، مما ترتب عليه عدم فهم أبعاد كل مصطلح منهما ، وعدم التحديد الدقيق لمجالاته وخصائصه ، وأدى بالتالي إلى لبس غير هين عند كثير من الدارسين .

هذا الخلط والاضطراب وعدم الفهم الدقيق انعكس سلباً على كتابات العلماء العرب من جراء ترجمة هذين المصطلحين ، فمن ترجمهما عن الفرنسية خالف من ترجمهما عن اللغات الأوربية الأخرى ، كما أن كثرة الدراسات وتشعبها في هذا المجال زاد من سوء الفهم وعدم وضوح الرؤيا عن علمائنا .فنجد من يستخدم مصطلح **diglossia** ويقصد به الثنائية اللغوية ، ويستخدم **Bilingualism** ويريد به الازدواجية ، ومن يعمل عكس ذلك ، فيستخدم **diglossia** ويقصد به الازدواجية ، و **Bilingualism** ويريد به الثنائية . ظهر هذا واضحاً في الكتابات التي تناولت هذه الظواهر اللغوية ، إذ نجد أن علماءنا في المشرق العربي يستخدمون **diglossia** للدلالة على الازدواجية اللغوية و **Bilingualism** للدلالة الثنائية اللغوية ، وشاع لدى علمائنا في المغرب العربي عكس ذلك ، فهم يعنون بـ **diglossia** الثنائية اللغوية و **Bilingualism** الازدواجية اللغوية ، وهذا الاستخدام غير مطرد إذ نجد من علماء المشرق من ساير المغاربة في استخدامه لهذين المصطلحين فذهب إلى القول بأن الازدواجية تكون " بين عامية وفصحى لأنهما فصيلتان من لغة وكل لغة بشرية تنقسم إلى عامية وفصحى وعليه فإن الفارق بينهما هو فارق فرعي لا جذري . الازدواجية الحقة هي التي تقوم بين لغتين مختلفتي الروح والعبقرية . بين الفرنسية والعربية . بين الألمانية والتركية . بين الصينية والروسية ويذهب نهاد الموسى إلى أن الازدواجية اللغوية مقابل عربي لـ **diglossia** في حين تكون الثنائية هي المقابل العربي لـ **Bilingualism** ، وبعد أن عرض لآراء العلماء العرب في هذا المجال ، قال : " وعلى الرغم من هذا فإننا نؤثر اتخاذ " الازدواجية

" في الدلالة على هذا المفهوم من تقابل شكلين أو مظهرين أو مستويين لغويين في إطار العربية نفسها ، وذلك أن الذين اختاروا الازدواجية في إفادة هذا المطلب أكثر ، والغلبة من مستلزمات المصطلح ، ثم إن الازدواجية مادتها " الزوج " وقد استقرت هذه المادة في العربية بدلالة جلية على الاقتران والمشاكلة ، شأن العربية ولهجاتها ، أو الفصحى والعامية . وهذه المادة في الطبيعة تشي بتوحد العرق والسلالة ... أما الثنائية فأن أس دلالتها مطلق العدد حتى تطلق على متقابلات الأضداد كالخير والشر والنور والظلام والفقر والغنى ، وذلك أشبه بالتقابل البعيد بين اللغات المتباينة . وهكذا تكون الازدواجية عندنا – مقابلاً عربياً لـ diglossia ، على حين تكون الثنائية عندنا هي المقابل العربي لـ Bilingualismهكذا فإنه لابد من التفريق بين هذين المصطلحين ، وتحديد مفهوم كل منهما .إننا نأخذ بوجهة النظر التي تذهب إلى ترجمة diglossia بـ " ازدواجية لغوية " ، لأن هذه الترجمة تبعدنا عن استخدام العديد من الكلمات ، والتي بالتالي يصعب الرجوع إليها كلما دعت الحاجة ، فبدلاً من القول بأن ازدواجية اللغة هي ازدواجية اللغة الخاصة بالمجتمع ، وثنائية اللغة هي ازدواجية اللغة الخاصة بالفرد ، ثم إن ازدواجية اللغة هي خاصية أو صفة نطلقها على وضع المجتمع ككل ، فعندما نتحدث عن ازدواجية اللغة فإننا نتعامل مع الأشكال اللغوية الموجودة في ذلك المجتمع وبمعنى آخر فإن ازدواجية اللغة هي أحد مصطلحات علم اللغة الاجتماعي ، أما ثنائية اللغة فإنها تصف قدرة الفرد على التعامل مع أكثر من لغة . فازدواجية اللغة تتعامل مع أشكال اللغة الواحدة بينما تتعامل ثنائية اللغة مع لغتين مختلفتين ، إضافة إلى كونها أحد مصطلحات علم اللغة النفسي وإن كانت تستخدم بين الحين والآخر في مجال علم اللغة الاجتماعي . كما أن مصطلح ثنائية يحمل معنى وجود أكثر من شكل من الأشكال اللغوية والتي ليست بالضرورة مزدوجة ، فالشخص الثنائي بالخيار في استخدام إحدى اللغتين متى شاء ، وهذا مالا يجب عند الشخص المزدوج الذي يتمكن من معرفة الشكل اللغوي الأعلى ، كما أن ثنائية اللغة لها مستويات لغوية محددة ، وهذا غير موجود في ازدواجية اللغة ثم إن الثنائية اللغوية استخدام للغة من قبل الأفراد ، أي أنها صفة لتصرف الفرد لغوياً ، أما الازدواجية اللغوية فإنها من خصائص الاستخدام اللغوي في المجتمع ، الذي يقوم بدوره بتحديد وظائف اللغة وطرائق استعمالها ، أي أنه يمكن القول أن الثنائية ظاهرة تخص الفرد ، أما الازدواجية فهي ظاهرة تخص المجتمع . كذلك يمكن أن تظهر الثنائية في المجتمع في مدة أقل من المدة التي تحتاجها الازدواجية للظهور إذ ظهور الازدواجية قد يحتاج إلى مرور ثلاثة أجيال على الأقل ، بينما لا يحتاج ظهور الثنائية لأكثر من جيل واحد .بعد هذا العرض لنشأة مصطلحي الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وإيضاح المراد بكل مصطلح منها وتحديد مجاله ، حري بنا أن نتحدث عن العربية الفصحى ، وماذا يقصد بهذا المصطلح ، وما

هي حدوده ومجالاته . العربية الفصحى هي أو لغة استخدمها العرب في حياتهم وعرفت بهم وعرفوا بها ، إنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ووسعت كل أحكامه وقواعده وقوانينه وعلومه ، إنها لغة العقيد والدين الإسلامي ، وهي لغة التراث العربي الذي تضمن ما أبدعه سلفنا من آداب وعلوم وفنون في مختلف مجالات الحياة ، إنها لغة الكتابة ، لغة العلم والتعليم في كل أرجاء وطننا العربي الكبير يتفق عليها كل أبنائه كتابة وفهماً واستخداماً ، فهي اللغة الرسمية في المدارس والمعاهد والجامعات ، بها تدرس كل المواد الدراسية المختلفة في كل مراحل التعليم ، وبها تدون كل الإبداعات الأدبية والفنية ، وجميع الابتكارات العلمية والتقنية ، تكتب بها الكتب والصحف والمجلات ، وتستخدمها كل وسائل الإعلام ، إنها اللغة التي تصدر بها الأوامر الرسمية والبلاغات والبيانات ، كما أنها لغة الوعظ والإرشاد إلى جانب كونها لغة الخطابة والشعر والأدب والفن . إنها الرابط القوي الذي يربط أرجاء الوطن العربي ، ويجمع بين أفراده ، إنها الوطن الروحي لأبناء هذه الأمة الموحدة لها ، الحافظ لكل تاريخها وحقائق حياتها قديماً وحديثاً بعد الحديث عن الفرق بين ازدواجية اللغة وثنائيتها ، وتحديد المراد بكل مصطلح من المصطلحين ، يجدر بنا أن نتحدث عن كل مصطلح منهما بشيء من التفصيل ، وإبراز أثر كل منهما على العربية الفصحى وعلى الفرد والمجتمع .

الازدواجية اللغوية :

إن تحديد مفهوم هذا المصطلح لا يزال عسيراً ومبهماً عند كثير ممن تصدوا لدراسة هذه الظاهرة اللغوية . فكلمة ازدواجية ترجمة للمصطلح الإنجليزي diglossia ويعتقد البعض أن أول من تحدث عن ظاهرة الازدواج اللغوي هو العالم الألماني كارل كرمباخر عام ١٩٠٢ إلا أن هذا القول لم يحظ بتأييد كثير من العلماء ، فذهب بعضهم إلى القول بأن العالم الفرنسي وليم مارسيه هو الذي نحت هذا المصطلح بالفرنسية La diglossia وعرفه في مقالة كتبها عام ١٩٣٠ بقوله " هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة. وفي عام ١٩٥٩ . قدم العالم الأمريكي شارل فرغسون هذا الاصطلاح إلى الإنجليزية محدداً ظاهرة الازدواج اللغوي بأنها " وضع لغوي مستقر نسبياً يوجد فيه – بالإضافة إلى اللهجات في لغة ما " اللهجات التي يمكن أن تشتمل على معيار إقليمي أو أكثر " نمط فوقي عالي التشفير (وفي الغالب معقد نحوياً) ومتباعد جداً ، ويعد هذا النمط أداة لتسجيل حجم كبير من الأدب المكتوب ، سواء في مرحلة مبكرة أو في مجتمع لغوي آخر ، كما أن تعلمه يتم أساساً بواسطة التعليم الرسمي ، ويستعمل في معظم الأغراض المكتوبة والأحاديث الرسمية ، لكنه غير مستعمل في المحادثة العادية من قبل أي قطاع من المجتمع وهذا الفهم نجده عند اندريه مارتينية حيث يقول : " نميل إذن إلى أن نخصص تحت مفردة الازدواجية الألسنة موقفاً لغوياً اجتماعياً ، حيث تستخدم بشكل تنافسي لهجتان لهما وضع اجتماعي – ثقافي

مختلف : الأولى باعتبارها لغة محلية أي شكلاً لغوياً مكتسباً أولوياً ومستخدماً في الحياة اليومية ، والأخرى لساناً يفرض استخدامه في بعض الظروف من قبل أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة هكذا نجد أن تحديد الازدواج اللغوي يقوم على معيارين اثنين : تنافس بين نمطين عائدين لنفس اللغة ، ووضع مختلف لهذين النمطين من حيث الوظيفة والمكانة ، فالازدواج اللغوي يخصص وظيفة لكل من الفصحى والعامية ، فتخصص الفصحى للاستخدام الرسمي ، في الدوائر والمؤسسات الحكومية كالمدارس والجامعات والمحاكم والوزارات وغيرها ، وهي المناسبة الوحيدة لهذا الاستخدام ، وتكون العامية هي الأنسب للاستخدام اليومي بين عامة الناس .
ومن حيث المكانة فإن كثيراً من المتكلمين يرى ضرورة استعمال الفصحى عند الحديث في قضايا هامة كالخطب السياسية أو البيانات والمحاضرات والندوات والمؤتمرات ، في حين أنهم لا يجدون غضاضة من استخدام العامة في مواضع ومناسبات أخرى . وإذا حاولنا الوقوف على أسباب تنوع اللغة في الاستخدام لوجدنا أن هذه الأسباب تتمثل في الآتي :
التطور اللغوي في كل مستويات اللغة ، المستوى الصوتي الذي يتمثل في انحراف بعض الأصوات عن مخارجها ومواضع نطقها ، والمستوى الصرفي كظهور صيغ ومشتقات جديدة غير مقيسة ولا مسموعة عن العرب القدماء كصيغ الجمع في بعض اللهجات العربية ، وصيغ التصغير وغيرها ، كذلك المستوى النحوي وعدم مراعاة علامات الإعراب إن نطقت ، وتركيب الجمل الذي يتم دون مراعاة للتركيب الصحيح ، ثم المستوى الدلالي وما يطرأ على معاني الألفاظ والصيغ من تغير جراء أمور نفسية أو اجتماعية وغيرها ، كل ذلك يؤدي إلى ظهور فروق في النطق بين المتكلمين للغة الواحدة ، وقد لاحظ مؤرخو اللغات أن القبائل والجماعات والطوائف الدينية وأصحاب المهن والجماعات الخارجة على القانون وغيرها ، كل مجموعة من هذه المجموعات تميل إلى إيجاد لغة خاصة بها يمتنع فهمها على المجموعات الأخرى ، إنها أشبه ما تكون بالشفرة التي لا يستطيع أحد فك رموزها غير أصحابها .كذلك فإن الفوارق الطبقية بين طبقات المجتمع لها دور في ظهور مثل هذه اللهجات ، إذ تعمل كل طبقة على إيجاد لغة خاصة بها تميزها عن غيرها من الطبقات ، فالطبقة الأرستقراطية لها لهجتها الخاصة ، والطبقة الوسطى لها لهجتها ، كذلك تختص الطبقة الدنيا بلهجة معينة .ويجب ألا يغيب عن بالنا دور الاحتكاك اللغوي بين اللغات وما ينتج عنه من ظهور لغات أو لهجات جديدة خسرت شيئاً من خصائصها وصفاتها الأصلية ، وبدأت الابتعاد التدريجي عن اللغة الأم . كل ذلك يوصل إلى ظهور الازدواج اللغوي .كما أن اختلاف البيئات داخل المجتمع الواحد له دور هام في ظهور الازدواجية اللغوية ، فأبناء الريف مثلاً يتحدثون بلهجة تختلف عن تلك التي يتحدث بها أبناء المدن ، وهاتان تختلفان عن لهجة أبناء البادية ، فأفراد كل بيئة يتفقون على طريقة نطقية معينة يتعاملون بها في بيئتهم الخاصة . فلا

تستطيع اللغة الأم أن تستمر في حياتها في كل البيئات وتحت كل الظروف دون تغير أو تطور . من هنا ندرك أن الازدواج اللغوي أمر حتمي موجود في كل اللغات ، وليس خاصاً بلغة دون أخرى ، إنه التطور اللغوي القسري ، كما أنه امتداد لازدواجية العقل والحس عند البشر ، ففي كل لغة لسان عامي وآخر فصيح .بعد هذا العرض لأسباب ظهور الازدواج اللغوي ، نحاول تحديد ظهوره في اللغة العربية ، بتحديد الزمن التي ظهرت فيه العامية في هذه اللغة ، ثم بعد ذلك نستطيع القول إنه أصبح هناك ازدواج لغوي في العربية .

وقد ذهب عدد من العلماء العرب إلى القول بأن الازدواجية اللغوية ظهرت في اللغة العربية بعد الفتح العربي الإسلامي الذي نتج عنه دخول أمم وشعوب كثيرة إلى الإسلام ، وأدى ذلك إلى صراع بين العربية واللغات الأخرى ، نتج عنه هذا الازدواج اللغوي .وهذا يعني أن العربية قبل الفتح الإسلامي كانت مستوى لغوياً واحداً فصيحاً أو عامياً دون جمع بينهما ، وهذا القول تعوزه الدقة لأنه لا يتصور وجود لغة دون وجود نمط آخر غير النمط الفصيح . ومن أجل تحديد ظهور العامية علينا أن نطرح عدداً من الأسئلة : أليست اللغة العربية لهجة سامية ذات صفات وخصائص وسمات تختلف عن بقية الساميات ؟ ألا يمكن الافتراض أن هذه اللهجة السامية – اللغة العربية – هي العربية الأولى التي لم يعرف العرب غيرها ؟ إنها لهجة سامية فهي العامية مقارنة مع السامية الأم – الفصحى – ولكنها الأولى في حياة العرب فهي المستوى المعياري الذي عرفه العرب للغتهم ، هذا المستوى المعياري الأول هل يمكن أن نصفه بأنه المستوى الفصيح ، أم أنه المستوى العامي للغة العربية بدون مستوى فصيح ؟ ألا نتفق مع علماء اللغة على أن استخدام اللغة يعني تطوراً لها وبعداً تدريجياً عن الأصل ، ألا يعني هذا ظهور لهجات مختلفة تنمو تدريجياً ؟ وإن كنا قد وصلنا إلى وجود لهجات نشأت عن استخدام اللغة الأم ، فهل نكون قد دخلنا في مجال الازدواج اللغوي ؟ هل انبثقت اللهجات العربية القديمة بهذه الأشكال المختلفة مباشرة عن اللغة السامية أم أن ما انبثق عن السامية لهجة واحدة فقط هي العربية الأولى الفصيحة ؟ ونتيجة لاستخدام هذه اللغة ، ونتيجة للتطور اللغوي ظهرت عنها لهجات واحدة مختلفة كما هو الحال مع لغات العالم كافة . هل يمكن القول بأن العرب تركوا اللغة الأم التي خرجت من السامية دون أن تربطهم بها أية صلة ، وما الذي يسوغ لنا أن نطلق على اللهجات القديمة التي كانت موجودة في جزيرة العرب لهجات عربية ، ونحن عندما نطلق عليها اسم لهجات نُقرُّ بأنها انشعبت عن لغة واحدة هي اللغة الأم ؟ الجواب عن هذه التساؤلات يؤكد أن اللهجات العربية كل منبثقة عن لغة واحدة هي اللغة الأم ، هي التي خرجت من السامية كلهجة عامية ، وهي التي يمكن أن نصفها باللغة العربية الفصيحة مقارنة باللهجات العربية ، هذه اللهجات تصارعت زمناً طويلاً لا نستطيع تحديده لأننا لا نملك تاريخاً لظهور اللغة العربية ثم عادت بفعل عوامل متعددة – بيئية وسياسية واقتصادية ودينية

واجتماعية – إلى التوحد فيما عرف فيما بعد باللغة المشتركة ، علماً أن ظهور اللغة المشتركة لم يقض على اللهجات ، بل بقي المستويات جنباً إلى جنب في الواقع اللغوي ، وإن كان لكل مجاله تلك اللغة التي وصلت إلى مرحلة متقدمة من النضج في كافة جوانبها ومستوياتها ، مما هيأها لأن تكون اللغة الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم .وبعد هذا الحدث العظيم في تاريخ العربية والناطقين بها أكملت العربية وحدتها ، وحاولت التخلص من بعض الخصائص اللهجية التي كانت تتصف بها اللهجات التي تكونت اللغة المشتركة منها . ويمكن القول أن اللغة العربية الفصحى الموحدة نشأت بهذا التاريخ ، واستمرت على هذا الحال من التوحد إلى أن فتح المسلمون بلاد فارس والروم ، وبدأ الأعاجم يدخلون الإسلام ، وبدأ احتكاك حقيقي قوي بين العربية وغيرها من لغات الأمم المغلوبة ، أدى إلى تفشي ظاهرة اللحن في اللسان العربي . تلك التي كانت قد عرفت منذ زمن مبكر في تاريخ اللغة العربية ، فقد وصلتنا روايات كثير تؤكد ظهور اللحن منذ عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، قال أبو الطيب اللغوي : " واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب ، لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روينا أن رجلاً لحن بحضرته ، فقال : " أرشدوا أخاكم فقد ضل " ... بل قد روينا من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن ظهر اللحن في اللسان العربي ، وبدأ الانحراف عن اللغة الفصحى في كل مستوياتها ، وقد رصد علماؤنا هذه الانحرافات وسجلوا مظاهرها المختلفة ، وكانت سبباً رئيسياً في وضع كثير من علوم العربية ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى هذه الانحرافات التي شملت جوانب اللغة كلها ، فقل في حديثه عن التساهل في التقيد بعلامات الإعراب : " إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول . كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا ، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول ، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع ، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً ، وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم ، فقيدوها بالكتاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو هذا الانحراف صورة من صور العامية ، وخطوة من خطواتها تجاه تأصلها استعداداً لمقارعة الفصحى والتغلب عليها . وقد

أدرك علماؤنا خطورة هذا الوضع وتنبهوا لما سيحل بالعربية فقاموا بوضع النحو لوقف تلك الانحرافات التي ظهرت على الألسنة في تلك الفترة ، ولفهم النص القرآني فهماً تاماً كما ظهر الانحراف في استخدام الألفاظ والصيغ في غير ما وضعت له ، مما ترتب عليه انغلاق المعنى وسوء فهم كثير من النصوص وقد سجل ابن خلدون ملاحظاته حول هذا النوع من الانحراف ، فقال في حديثه عن علم اللغة " هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، وذلك لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب ، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحهم المخالفة لصرح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين ، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين وقد أدرك العرب هذا الانحراف الذي تقوم به العامية من أجل ترسيخ نفسها كلغة بديلة عن الفصحى ، فتصدوا بقوة وحزم لهذا الزحف العامي الخطير ، وألفوا المعاجم اللغوية التي حصرت ألفاظ العربية كاملة ، وحافظت عليها من التغير والاندثار ، كما وضعت الكتب أو المعاجم التعليمية أو المعيارية التي راقبت استعمال اللغة وأشارت إلى الأخطاء التي يقع فيها مستخدمو اللغة ، ودلت على صوابها ، ككتاب لحن العامة للكسائي ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، ودرة الغواص في أوهام الخواص للحريري ، ولحن العوام للزبيدي وغيرها ولا يزال هذا النوع من التأليف مستمراً حتى عصرنا الحاضر . ولم تكتف العامية بمهاجمة النحو ، بل استمر زحفها لينال كل جوانب الفصحى ، فبدأت تعمل من أجل انحراف التراكيب اللغوية الفصيحة ، هذا الانحراف الذي ربما كان نهاية المطاف بالنسبة للغة الفصحى ، لأن الانحراف في التراكيب اللغوية والأساليب الكتابية يعني بداية ظهور لغة جديدة . وقد تابع ابن خلدون تدوين ملاحظاته حول الانحرافات التي أصابة العربية نتيجة الاحتكاك بغيرها من اللغات ، تلك الانحرافات التي أصبحت متداولة بين مختلف طبقات المجتمع الإسلامي آنذاك ومسموعة على معظم الألسنة ، قال : " إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم ، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصيد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب أيضاً ، فاختلط عليه الأمر ، وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدثت ملكة كانت ناقصة عن الأولى ، وهذا معنى فساد اللسان تيجة لهذا الاحتكاك ، ظهرت أشكال تعبيرية وأسلوبية تخالف ما عند العرب من الأساليب والتعبيرات ، إنها أساليب وتعابير اقتبسها النشء الجديد من اللغات الأخرى ، إلى جانب أشكال تعبيرية وأسلوبية أخرى هي مزيج من أسلوب العربية

وطرائقها في التعبير ، وأساليب اللغات الأخرى وطرق تعبيرها ، هذه الأشكال الأسلوبية أشبه ما تكون بما يعرف الآن باسم الهجين Pidgin ، وهي لغة تنشأ عن اتصال متحدثي لغتين مختلفتين ببعضهم ، علماً أن كل طرف لا يتحدث لغة الآخر ، وهي نتيجة مبدئية للتفاعل بين الثقافات المختلفة ، ثم تظهر اللغة المولدة Creole بعد استقرار تلك اللهجة الهجين ، وتصبح لغة الاستعمال اليومي للناطقين بعد مرور جيل أو أكثر .هذه الانحرافات التي ظهرت في العربية أبرزت ملامح العامية ومظاهرها وعملت على تأصيلها وهذه العامية قامت بتشكيل الازدواج اللغوي والذي يشترط لنشأته شروط معينة ، يقول فرغسون : " والمرجح أن الازدواج اللغوي ينشأ عندما تتوفر الشروط الثلاثة التالية في مجتمع بعينه :

١- إذا توفرت مادة أدبية كبيرة بلغة ذات صلة وثيقة " أو حتى ماثلة " باللغة الأصيلة للمجتمع وهذه المادة الأدبية تجسد – سواء بوصفها مصدراً " وحي سماوي مثلاً " أو تعزيزاً – بعضاً من القيم الأساسية للمجتمع .
٢- عندما تكون الكتابة Literacy في المجتمع مقصورة على نخبة قليلة .
٣- عندما تمر فترة زمنية تقدر بعدة قرون على توفر الشرطين أو الحالتين الأوليين ، ويمكن على الأرجح أن نثبت أن امتزاج هذه الظروف الثلاثة قد حصل مئات المرات في الماضي ونتج عنه الازدواج اللغوي [(٢٧)] " بناء على هذا التحديد وهذه الشروط يمكن القول إن الازدواج اللغوي ظهر في اللغة العربية عدة مرات ، ربما كان آخرها هذا الازدواج الذي نعيشه الآن ، لاكما يذهب البعض أن الازدواج لم يظهر في العربية إلا بعد الفتوحات الإسلامية ، إذ لا يتصور أن العربية منذ أن وجدت وخلال عمرها الطويل لم تتطور ولم يظهر فيها انحرافات إلا بعد الفتح الإسلامي ، وخير دليل على صحة هذا القول هو ذلك العدد الكبير من اللهجات العربية التي غطت شبه الجزيرة العربية فترة طويلة غير معروفة البداية إلى أن تم ظهور اللغة المشتركة التي تكونت من مزيج منتخب من تلك اللهجات ، هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وأصبحت المعيار الحقيقي للفصاحة والبلاغة ، والتي أطلق عليها اسم الفصحى في مقابل العامية ، فالفصحى هي لغة القرآن والتراث العربي ، وهي التي تستخدم في الكتابة وفي تدوين العلوم والفنون والإبداعات كافة ، إنها لغة العلم والدين ، أما العامية فهي لغة الحديث اليومي والأمور العادية .إذا أردنا أن نضع تاريخاً للعامية الحديثة ، فإننا يمكن أن نقول أن العامية ظهرت منذ الفتح الإسلامي بعد أن اختلط العرب بالأمم الأخرى ، واستمرت هذه العامية في تأسيس بنيتها وتجذيرها ، ومخاصمة الفصحى حتى تميزت بشكل واضح الملامح والقسمات ، واتضحت سماتها في كل جوانب اللغة ومستوياتها ، فظهرت في الجانب الصوتي ، وفي الصيغ والتراكيب وطرائق التعبير حتى شملت المادة اللغوية كلها . وقد تنبه علماؤنا لهذا الأمر ، ورصدوا تلك التطورات ووضعوا الكتب والمؤلفات

الكثيرة التي تنبه على فداحة الأمر ، وتحذر من سوء العاقبة ، كل تلك الجهود لم تستطع أن توقف زحف العامية وخطرها على الفصحى ، وإن لم يستطع علماؤنا أن يمنعوا تغير اللغة ، إلا أنهم استطاعوا " أن يؤرخوا ذلك يحصروه في حدود ضيقة ، فلم تنشأ عند العرب بفضلهم وبفضل دراسة القرآن التي كانت أساس الثقافة الإسلامية لغات أخرى ، كما نشأت اللغات الرومانية من اللغة اللاتينية ، ولا تزال لغة الكتابة حتى أيامنا هذه قريبة من اللغة القديمة ، من حيث التزامها بقواعد اللغة على الأقل ، على الرغم مما أصاب لغة الكلام من تغير كبير واستمر هذا الخطر ينمو ويزداد حتى عصرنا الحاضر ، فلا زلنا نعيش حالة من الازدواج اللغوي المخيف الذي ينذر استمراره بعواقب وخيمة .إن خطر هذا الازدواج المتمثل في اللغة العامية يكمن في جوانب أساسية كبيرة من جوانب حياتنا فالفصحى التي هي لغة العلوم والدين هي الوطن الروحي لنا ، إنها رمز للوحدة والتواصل بين أفراد الأمة العربية ، أما العامية فإنها الخصم الحقيقي لأي توحد أو تقارب ، إنها دليل التعدد والتمزق ورمز للفرقة والتباعد ، إنها نذير انهيار لكل منجزات الأمة وتفتيت لجهودها .إن نمو العامية لا يكون إلا على حساب اللغة الفصحى ، إنها تصارع الفصحى من أجل البقاء والسيادة ، فإذا تحقق لها ذلك وأصبحت لغة أدبية مكتوبة ، انتقلت إلى الثبات وازدادت قوة وخلقت الفصحى وراءها ، ثم تأخذ تلك الفصحى بالتقوقع والاندثار ، ثم الاضمحلال شيئاً فشيئاً إلى أن يتركها المتكلمون ولا يبقى لها وجود في المجتمع .كما أن هذه الازدواجية رمز للتخلف الفكري والحضاري ، وعائق لكل تطور اقتصادي ، وهي تعيق كل محاولات النهوض بالتعليم والتربية ، إلى جانب كونها تحول دون قيام وسائل الإعلام وأجهزة الاتصال بدورها الحقيقي ، يقول سوتيرو بولص : " وإن تكن الازدواجية وبشكل موضوعي أداة بارعة للضرورة فإنها من وجهة النظر الاقتصادية والتمسك القومي وفعالية التعليم والاتصالات وأجهزة الإعلام لعائق هذه الازدواجية رمز للصراع بين طبقات المجتمع ، إنها عنوان للصراع الاجتماعي الذي يقضي على كل تماسك بين أفراد المجتمع ويؤدي في النهاية إلى تفتيت المجتمع إلى فئات متصارعة تعمل كل فئة لمصلحتها الخاصة ، وتصارع الفئات الأخرى للقضاء عليها ، مما يترتب عليه إفشال كل محاولة للإصلاح في أي جانب من جوانب الحياة ، والحيلولة دون أي تطور أو تقدم لصالح المجتمع ، إنها رمز للانحطاط والتخلف . " فالأمة الواعية هي المنسجمة طبقاتها في بوتقة واحدة وهي التي تدور طبقاتها في فلك واحد يكون وليد ذهنية واحدة وعقلية واحدة وعبقرية واحدة ، وروح واحدة . فإذا كان لكل طبقة لغة انعدم الانسجام ، وقامت الشقوق في صرح الأمة . اللغة حياة ، والإنسان لا يستطيع أن يتكلم لغة ما دون أن يميل بعض الميل نحو شعبها ، دون أن يتلبس عبقريتها بعض التلبس ، فإذا كانت الطبقة المثقفة تتكلم لغة ما ، والطبقة غير المثقفة تتكلم لغة أخرى ، دب التفسخ في بيت الأمة يبدأ الطفل من أطفالنا باكتساب

اللغة العامة التي يسمعها ممن حوله ، يتلقاها تلقياً مباشراً على مر الأيام ، فيتعامل بها ويتقنها ، وتستقر في وجدانه وذهنه ، تمده بكل ما يحتاج إليه من كلمات وتعابير ، وعند دخوله إلى المدرسة يبدأ بتعلم العربية الفصحى غير المألوفة لسمعه وفهمه ، فيجد في تعلمها عنتاً ومشقة ، ويحس بأنه يتعلم لغة أجنبية بعيدة عما اكتسبه وألفه من اللغة ، هذا الإحساس يخلق عنده نفوراً من هذه اللغة التي تفرض عليه فرضاً ، فيجد صعوبة بالغة في تعلمها ، ويقدم على هذا الأمر وكأنه شر لابد منه ، وهذا يوجب عليه أن يبذل مجهودات مضينة في تعلمها ، وإهدار وقت طويل في محاولة الترجمة بين الفصحى والعامية ولا يمكنه إتقان الفصحى كما يجب ، لأنه يلجأ إلى مخزونه اللغوي من العامية يستعين به عند الإجابة أو الكتابة ولولا هذا الازدواج لأمكن للطفل تعلم العربية الفصحى بسهولة ويسر ، إنه المسئول عن التعثر في تعلم العربية لأبنائها ، فهذه الازدواجية من أهم أسباب عزوف الطلاب عن تعلم الفصحى ، وهي التي تعيق تعلمهم لها ، " كما أن التدريس بالعامية يجعل الناشئ يعيش حالة ازدواجية أو فصاماً لغوياً ويعاني من لغة تتصارع مع مولود لها معقد التركيب ، أو مولود (غير شرعي) لابد أن يوهنها صراعه ، لأنه يحتل مواقع مهمة في المجتمع وجوانب مختلفة من حياة الفرد هذا الازدواج يخلق عند الطفل آثاراً نفسية سلبية بالغة الضرر ، إذ يوقعه دائماً في حيرة وتردد في فهمه للتعبيرات والجمل التي يسمعها ، فيجد نفسه بين خصمين يتجاذبانه ، مما يجعله غير قادر على تحديد الاتجاه الذي يريده ، واللغة التي يود استعمالها ، غير مطمئن لتعبيراته وتراكيبه غير واثق مما يقول ، سريع التراجع عن إجاباته .هذا الازدواج يؤدي إلى ضعف المستوى اللغوي ، ويؤدي بالتالي إلى قتل الإبداع بكل أنواعه فالشخص الازدواجي الذي يعيش حالة من التردد والحيرة لن يكون مبدعاً ، إذ الإبداع يتطلب إتقاناً تاماً للغة ، بالسيطرة الكاملة على ألفاظها ومعانيها ، والمقدرة الفائقة على التصرف في استخدام صيغها وتراكيبها ، الإبداع هو الإمساك التام بناصية اللغة فإن تحققت هذه الأمور مجتمعة لكاتب أو لأديب ، استطاع أن يصوغ العبارات والجمل بكل سهولة ، وأن يعبر عما يدور بخلده من المعاني والأفكار بكل يسر ، ولن نتوقع الإبداع من أي شخص مهما كثر علمه وزادت ثقافته ما لم يكن متقناً للغته . إن تلك المعاناة التي يعاني منها كثير من أدبائنا وكتابنا ، وتلك الحيرة الدائمة المسيطرة في كل فنون الأدب ناتجة عن عدم إتقان العربية الفصحى إتقاناً تاماً . من هنا ندرك أن هذه الازدواجية اللغوية التي نعيشها هي التي توصلنا إلى الانفصام في أدائنا الفكري ، وهي السبب الوحيد في تصدع البنية الثقافية لأمتنا ، كما أنها المسؤولة عن هذا التبديد القاتل لكل جهودنا ومجهوداتنا التربوية ، إنها عدوة كل تطور فكري أو حضاري .كما تعمل الازدواجية على خنق الفصحى ، وتقف حائلاً دون انتشارها خارج نطاق الوطن العربي ، إنها تمنع أن يكون للفصحى بعد عالمي ، فإذا رغب الأجنبي في تعلم اللغة العربية ، فإنه يتعلم

العربية الفصحى ، وإذا حادث أبناء العربية استخدام الفصحى التي قد يصعب فهمها على جمهور الناطقين بالعربية ، فلا يستطيعون مجاراته ، ولا يقدرون على نقاشه ومحاوراته ، فينتج عن حوارهم هذا فهم مشوش غير واضح المعاني والمقاصد ، وهنا ينقطع الاتصال ويتوقف الحوار . وإذا كان هذا الأجنبي قد تعلم العربية مشافهة في إحدى البيئات العربية ، فإنه يتعلم عامية تلك المنطقة أو البيئة التي عاش فيها ، فإذا انتقل إلى بيئة أو منطقة عربية أخرى انغلق عليه فهم عاميتها وصعب على أهل تلك المنطقة فهم العامية التي يجيدها هو ، فالازدواجية في الحالتين كلتيهما وقفت كالجدار الذي يحول بيننا وبين أمانينا ورغباتنا في نشر لغتنا في أرجاء العالم . إزاء هذا الخطر الداهم من العامية ، وإزاء أهمية هذه القضية في حياة أمتنا ، تباينت مواقف علمائنا ومفكرينا في العصر الحديث حيال الازدواجية ، فموقف يرى أصحابه أن الازدواج اللغوي أمر معروف في كل اللغات وليس حكراً على العربية إنه تطور لغوي طبيعي ، بل إنه إحدى السمات الحضارية عند الشعوب ، إذ أن البدائيين وحدهم هم الذين لا يوجد عندهم هذا الازدواج وفريق آخر يرى أن استمرار العامية يعني تشرذم الفصحى إلى لغات أخرى كما حدث للاتينية فاعتبر محاربة العامية أمراً جوهرياً لابد منه ووضعوا مجموعة من المقترحات لمحاربة هذا الخطر الناتج عن الازدواج اللغوي تمثلت فيما يلي :
أن نسموا بالعامية إلى الفصحى ، أي أن نحارب العامية تدريجياً فنترك خصائصها واحدة تلو الأخرى حتى تنتهي باندماج تام في الفصحى ، وأصحاب هذا الرأي مخلصون للغتهم وأمتهم ، أدركوا خطر العامية وما يترتب عليه ورأوا أنه لابد من المحافظة على الفصحى بالقضاء على العامية ، ويذهب بعض قصار الهمة إلى القول بأن هذا الأمر مستحيل ولا يمكنه تحقيقه ، إذ من المستحيل أن نرد العامية إلى الفصحى ، لأن العامية أكثر سهولة ويسر وليس لها قواعد تحكم استخدامها كما هو الحال في الفصحى ، وفي الحقيقة أن هذا القول فيه كثير من الصواب وليس كله صواباً ، فرد العامية إلى الفصحى أمر عسير وصعب لكنه غير مستحيل ، إذا كنا نؤمن بأن وجود العامية يعني قضاء على الفصحى ، وأننا في صراع مرير مستمر مع العامية صراع نخوضه من أجل البقاء ، وكأننا نقوم بترميم ما انهدر من خصائص الفصحى وسماتها كما يقوم صاحب البيت بترميم بيته الذي عملت فيه العوامل الطبيعية عملها ، فيرممه ليحافظ عليه ويعود البيت كما كان ، لكن هذا الترميم لن يدوم طويلاً ، لأن العوامل الطبيعية تستمر في تأثيرها السلبي في ذلك البيت الذي يتأثر بها ، فيقوم صاحبه بترميمه ثانية فالصراع مستمر ، وهكذا نحن إذا حاولنا أن نسمو بالعامية إلى الفصحى ، فإننا نقوم بدفع هذه العامية إلى أعلى حتى تندمج في الفصحى دون أن تتخلى هذه الفصحى عن أي شيء من صفاتها وخصائصها ، وعلينا أن نبقى متأهبين لمقاومة هذه العامية كلما بدأت في الظهور .

وذهب فريق آخر إلى القول بأن خير علاج لمشكلة الازدواج في مجتمعنا هو أن نستبدل لغة أجنبية بلغة عربية ، فصحى وعامية ، هذا القول ساقط من أصله ولا يمكن أن يكون ، لأنه فناء للذات العربية بفناء لغتها ، لأن استدلال اللغة الأجنبية باللغة العربية يعني الخروج النهائي من المجال العربي والدخول إلى إطار أجنبي كما حصل في بعض الدول مثل مالطا . ونسي أصحاب هذا الرأي أن اللغة الأجنبية الجديدة التي يريدون إحلالها محل العربية لن تستمر طويلاً في وحدتها ، بل ينشعب عنها عدد من العاميات جراء استخدامها وتطورها ، فنعود إلى ما كنا فيه من الازدواج اللغوي . ويرى فريق ثالث أن علاج هذه الازدواجية يكون بنوع من الملاقاة بين الفصحى والعامية . هذا القول نابع إما عن سوء نية وإما عن جهل وعد معرفة ، وهو يبدو للوهلة الأولى ولغير المدققين فيه أنه الصواب وأنه لا يخلف أي أضرار على الفصحى ، لكنه في الحقيقة يدس السم في الدسم ، إذ المقصود منه في النهاية التخلي التدريجي عن الفصحى ، لأننا عند قبولنا مستوى جديداً بين الفصحى والعامية نكون قد تنازلنا عن جزء من خصائص الفصحى لصالح العامية أي أن الفصحى تكون قد خسرت من سماتها بحجم ما تنازلت عنه ، ولن يقف الأمر عند هذا الحد لأن هذا الوضع اللغوي الناتج لن يستمر طويلاً على ما هو عليه ، فبعد جيل أو جيلين سيظهر ازدواج لغوي جديد يفرض التخلص منه علينا عمل نوع من الملاقاة كما حدث سابقاً ، فيتم التنازل عن شيء جديد من خصائص الوضع اللغوي الذي قبلناه في المرة الأولى وهكذا يستمر ظهور الازدواج ويستمر معه التنازل من أجل الملاقاة وهكذا إلى أن تنتهي كل صفات الفصحى وخصائصها لصالح العامية ، فهذا الرأي يطالب – وبطريقة غير مباشرة – بإحلال العامية محل الفصحى . ورأى فريق رابع أن علاج هذا الازدواج يكون باعتماد لغة مثقفي العرب أو عربية المثقفين Educated Arabic التي ليست إلا اسماً جديداً للعاميات داخل أقطار الوطن العربي ، أو داخل كل قطر من هذه الأقطار ، إنها لغة الحوار الذي يدور بين المتكلمين من أقطار عربية مختلفة ، وقد أجريت على هذا النمط اللغوي عدة دراسات اتفقت نتائجها على " أن ترتيب الكلام يبقى عامياً ، كذلك يبقى النحو والصرف عامياً ، ولكن هناك ميلاً لاختيار الألفاظ من الفصحى ، كما أن هناك ميلاً لاستعمال أصوات الفصحى وخاصة الصحيحة منها ، لكن هناك انتقالاً للاصطلاح الأجنبي في كثير من الأحيان إن هذا الشكل من اللغة ليس إلا خليطاً من العامية والفصحى وهو أقرب إلى العامية وأبعد من الفصحى ، أي أن هذه العربية الوليدة (عربية المثقفين) لا تستطيع الخروج عن العامية . بل تبقى العامية هي المسيطرة على الموقف في كل مجالات اللغة أصواتاً وصرفاً ونحواً وتراكيب ودلالة ، ويمكن القول أن هذا النمط من اللغة هو عامية بها بعض الألفاظ الفصيحة . هذا الحديث ربما قادنا إلى الحديث بما عرف في العربية الحديثة Modern

هذه اللهجة التي ظهرت في العربية بسبب وسائل Standard Arabic الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة إنها عربية الصحافة من صحف ومجلات كما تقدم بها البرامج الثقافية والإعلامية والإخبارية من المذياع والتلفاز ، هذا النمط من اللغة مختلف عن الفصحى ، ويزعم البعض أنه تبسيط لهذه الفصحى في بعض خصائصها حتى يمكن أن يفهمه كل عربي يستطيع القراءة والكتابة ، هذا النمط يختلف عن الفصحى في استخدامه الشائع من الألفاظ والتساهل في الاقتباس من اللغات الأخرى وما يترجم من تلك اللغات . ورأى فريق آخر أن الحل لهذه القضية والخلاص من الازدواجية التي نعيشها هو إحلال العامية محل الفصحى في كل مجالات حياتنا وهذا يعني إلغاء الفصحى التي كتب بها تراثنا العربي الإسلامي على مدى قرون طويلة ، كما يعني قطع الصلة بين مستقبلنا وماضينا وحرمان أجيالنا القادمة من تراث أجدادهم ، كما أن هذه العامية ستجزأ العالم العربي إلى دويلات مختلفة لا يربطها رابط . إن هذه العامية التي رُوج ولا يزال يروج لها بأشكال مختلفة وأساليب متعددة بدراسة الأدب الشعبي واعتماده في مقررات الجامعات حيناً وبالشعر الحر حيناً ثانياً وبلغة المثقفين حيناً آخر ، لها أخطار جسيمة على العربية الفصحى وعلى الفرد والمجتمع وعلى الأمة كلها فلا يمكن أن تفي هذه الأنماط العامية المختلفة والمتصارعة بحاجات الأمة إنها أنماط هزيلة لا تستطيع أن تزود الفرد بما يحتاج إليه من ألفاظ وأساليب تعبير في حواره أو فيما يكتب ، ولن تكون مقبولة هنا في مجال الكتابة ، كما انها تغلب عليها الإقليمية الضيقة والعنصرية البغيضة ، ولو افترض أن العامية وافية بحاجات التخاطب الاجتماعي العادي ، فإن هذا الوفاء محدود بحدود جغرافية ضيقة هي حدود البيئة المحلية التي يعيش فيها الفرد وإن تجاوزت ذلك فإلى حدود الإقليم الواحد ، ولو تجاوزت فرضاً حدود بيئتها الخاصة فإن تلقيها واستيعابها سيكون محوداً بمجال التخاطب المنطوق فقط ، أما في مجال التخاطب المكتوب فلا تكون مقبولة إلا في حالات نادرة وفي البيئات المختلفة فكرياً في الغالب ، وحتى لو قبلت فإن استخدامها لا يتجاوز التعبير عن مواقف أو نوزاع عاطفية محدودة أما في مجال التعبير عن الأمور الثقافية أو الفكرية أو الفلسفية فإنها تقصر وتضيق وتحوج المتحدث إلى الفصحى – إذا كان عارفاً بها – والاستعارة من مفرداتها وصيغها وتراكيبها والوفاء بمراده"

من هنا تتضح لنا الصورة القاتمة للعربية الفصحى والحالة المزرية للأمة العربية لو كتب للعامية أن تنتصر ، ولن يكون لها ذلك إلا بالقضاء على الفصحى الذي سيؤدي إلى تمزيق الأمة العربية لتصبح أمماً متناحرة وقبائل متصارعة ، إن الازدواجية اللغوية التي نحياها هي الخطر الأول الذي يحدق بالعربية الفصحى ، والخطر الثاني هو الثنائية اللغوية التي تزيد خطورته عن خطورة الازدواجية .

المحاضرة الثامنة

الثنائية اللغوية(١)

هذا المصطلح ترجمة للمصطلح الإنجليزي **Bilingualism** ، وقد تباينت آراء اللغويين حول ظاهرة الثنائية اللغوية واختلفت تعريفاتهم لها ، وكان مقدار إجادة اللغات هو معيار الأساسي لتلك التعريفات فقد عرفها بلومفيلد **Bloomfield** بأنها إجادة الفرد التامة للغتين وعرفها مكنمارا **namara** بأنها امتلاك الفرد للحد الأدنى من مهارة لغوية واحدة في لغة ثانية(٢) أما ألبرت **Albert** و أوبلر**Obler** فقد اتخذا في تعريف هذه الظاهرة موقفاً وسطاً ، فذهبا إلى أنها الاستخدام المثالي للغتين أو أكثرومنهم من يرى أن معرفة اللغة تبدأ من لحظة معرفة جملة فيها هذه التعريفات تشير في مجملها إلى الثنائية اللغوية الفردية **Individual Bilingualism** أما محمد الخولي فقد عرفها بطريقة أكثر دقة وشمولية فقال : الثنائية اللغوية هي استعمال الفرد أو الجماعة للغتين بأية درجة من الإتقان ، ولأية مهارة من مهارات اللغة ، ولأي هدف من الأهداف وجدت هذه الظاهرة منذ وجود الإنسان ، حيث وجدت لغته معه ، ثم بدأت هذه العناصر البشرية تكون جماعات مختلفة ، وتنقل بحثاً عن مقومات الحياة ، فعاشت في مناطق مختلفة على سطح الأرض ، وأصبح لكل جماعة لغتها الخاصة التي تميزها من غيرها ، ولم يكن ليمكن لهذه الجماعات أن تعيش مستقرة في مناطقها دون تحرك ، ومنعزلة عن غيرها ، ولم يكن ليمكن لهذه الجماعات اللغوية المختلفة ظهور الثنائية اللغوية.من هنا يمكن القول إن هذه الظاهرة قديمة قدم الحياة البشرية . وقد استمرت هذه الظاهرة في النمو والاتساع لكثرة وسائل الاتصال بين المجتمعات المختلفة كالتجارة والعمل والهجرة وغيرها ، كما ساهمت وسائل الاتصال في العصر الحديث في جعل هذه الحركة أكثر سهولة ويسرا .

أسباب نشأتها

وإذا أردنا تحديد منشأ هذه الظاهرة والأسباب التي أدت إلى ذلك ، فإنها نشأت في ظل ظروف مختلفة أهمها :

الهجرة الجماعية :

التي تحدث لأسباب اقتصادية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية وغيرها ، فقد تهاجر أعداد كبيرة من البلاد أكثر غنى ، بحثاً عن العمل ، وهربا من الفقر والجوع والمرض، كما حصل من هجرة أعداد غفيرة من العمال من دول

العالم الثالث إلى دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . كما يؤدي الاضطهاد السياسي الذي يحدث في بعض المجتمعات إلى نزوح أعداد كبيرة من أبناء هذه المجتمعات إلى دول أخرى هرباً من القمع والاضطهاد ، وبحثاً عن الأمن والسلامة كما حصل لعدد كبير من المواطنين الروس الذين تركوا بلادهم بعد ثورة ١٩١٧م . كما تحصل الهجرة نتيجة لما يلاقيه بعض الشعوب أو الأقليات من ممارسات سلبية ضد معتقداتها وأديانها فتجبر على ترك أوطانها والهجرة إلى بلاد أخرى صوناً لدماء أفرادها وحفظاً لمبادئهم ومعتقداتهم ، كما حصل من هجرة أعداد كبيرة من أبناء الشعوب التي وقعت في إطار الاتحاد السوفيتي. ومن أسباب الهجرة كذلك مهنة التجارة التي تؤدي ممارستها إلى انتقال أعداد من أبناء هذا المجتمع أو ذاك إلى مجتمع آخر يختلف معه في اللغة وطرق العيش ، وهذا بدوره يؤدي إلى احتكاك لغوي – ينتج عنه فيما ينتج – ظاهرة الثنائية اللغوية .

الغزو العسكري والاحتلال :

قد تغزو أمة أمة أخرى لسبب من الأسباب مما يترتب عليه انتشار اللغة الغازية التي تبدأ بمحاولة فرض هيمنتها وسلطانها على اللغة المغزوة التي تقاوم تلك الهيمنة وذلك السلطان بكل طاقاتها وإمكاناتها ، ويبدأ صراع مرير بين اللغتين يؤدي في النهاية إلى انتصار إحداهما ، أو إلى التهادن والتعايش داخل المجتمع ، وهناك عدة عوامل تتحكم في هذا الأمر وتؤدي إلى إنجاح اللغة الغازية وإدامة انتشارها كطول مدة الاحتلال : فكلما طالت مدة هذا الاحتلال نجحت اللغة الغازية في الانتشار والديمومة .

وكالمصلحة : فإذا وجدت مصلحة للشعب المغزو من وجود الغازي طالت مدة الاحتلال ، وكذلك مدى التفاعل بين الشعبين ، فإذا قبل الشعب المغلوب هذا الأمر أو اقتنع به وبدأ يتعامل مع المحتل بطريقة إيجابية فإن أمد الاحتلال سيطول ، وسينتج عن هذا الاحتلال احتكاك لغوي يؤدي إلى ظهور الثنائية اللغوية .

الإلحاق والضم Annexation

يحدث هذا عندما تقوم دولة بفرض سلطانها على دول أخرى ، وفرض لغتها لغة رسمية لتلك الدول ، كما حدث عندما قام الاتحاد السوفيتي بضم البلطيق (ليتوانيا ، واستوانيا ، ولاتفيا) إلى سلطانه ، وفرض اللغة الروسية لغة رسمية لهذه الدول ، مع بقاء لغاتها الأصلية لغات قومية تستخدم في الاتصال بين الأفراد وفي الأمور العامة . ويؤدي مثل هذا الضم إلى ظهور الثنائية اللغوية .

الحس القومي :

معظم دول العالم تضم قوميات وأعراقاً مختلفة ، إحدى هذه القوميات تمثل الأكثرية أو الغالبية ، وما عداها تمثل الأقليات ، فإذا أثيرت النعرة القومية لسبب أو لآخر في مجتمع ما ، فإن معنى ذلك بداية التمييز العنصري بين أفراد الشعب ، وسيترتب على المناداة بالقومية أن تهب الأقليات للدفاع عن

ذاتها وتعمل بكل طاقاتها على إحياء قومياتها مطالبة بالاعتراف بها كأجناس ، وأول ما تطالب به الاعتراف بلغاتها القومية لغات رسمية في مناطقها ، وستستجيب الحكومة المركزية في ذلك البلد لمطالب الأقليات وتعترف بلغاتها لغات رسمية كل في منطقته وذلك يعني اعترافا بالثنائية اللغوية .

المصاهرة والتزاوج :

التزاوج بين الأجناس وأبناء القوميات المختلفة سبب من أسباب ظهور الثنائية ، لأن الأبناء سيتعلمون اللغة التي يسمعونها ، فسيأخذون شيئاً من لغة الأم وشيئاً من لغة الأب ، فهم بهذا يمارسون الثنائية اللغوية ، وهذه الثنائية المستخدمة في المنزل تسمى ثنائية منزلية أو بيتية Home Bilingualism .

العقيدة والدين :

إذا انتشرت عقيدة أو ديانة معينة في هذا البلد أو ذاك ، فإنها ستحمل لغتها معها إلى ذلك البلد ، وسيؤدي اعتناق تلك الديانة إلى انتشار لغتها في ذلك البلد ، وقد حمل الدين الإسلامي اللغة العربية إلى البلدان التي فتحها المسلمون ، وانتشرت العربية فيها ، وصارعت لغاتها القومية وانتصرت على كثير منها حتى أصبحت العربية اللغة الأولى في تلك المناطق ، وهذا الانتشار للعربية أدى إلى ظهور الثنائية اللغوية في تلك الأقاليم .

طرق اكتسابها :

يكتسب الفرد هذه الثنائية بطرائق مختلفة خلال سني عمره من خلال احتكاكه بمن يتحدثون لغة غير لغته الأصلية ، وربما اكتسبها من المدرسة التي تعتمد لغة تعليم وخصائصه التي تميزه عن غيره ،وطرق اكتساب الثنائية اللغوية هي :

" ***الطريق الأول*** وهو أهم الطرق ويكمن في اكتساب اللغة الثانية في مرحلة الطفولة سواء كان هذا الاكتساب متزامناً مع اكتساب اللغة الأصلية أو يفصل بينهما بعض الوقت ..

الطريق الثاني من طرق اكتساب الثنائية اللغوية يتمثل في حالة الطفل الذي ترعرع وهو يتحدث بلغة واحدة مع أسرته ، ولكن عند دخوله المدرسة واجه لغة ثانية هي لغة التعليم ، وقد تكون أيضاً لغة المجتمع الذي يعيش فيه . ومثل هذا الوضع يحدث كثيراً للأطفال الذين ينتمون إلى أقليات لغوية أو أسر مهاجرة من بلد له لغة مختلفة . والثنائية اللغوية المكتسبة بهذه الطريقة قد تكون عميقة نسبياً ولكن عدم التوازن سيكون ظاهرة واضحة بسبب اختلاف الأوضاع الاجتماعية واختلاف وظائف كل من اللغتين ، وسوف يستمر الطفل في استعماله اللغة الأصلية للأغراض اليومية والشخصية محتفظاً باللغة التي تعلمها في المدرسة للاتصالات الأكثر رسمية والوظائف الاجتماعية الأعلى.

الطريق الثالث من طرق اكتساب الثنائية اللغوية يكون من خلال اكتساب لغة ثانية بعد سن الطفولة عن طريق الاتصال الدائم والمباشر مع هذه اللغة في المجتمع الذي يتحدثها.

الطريق الرابع لاكتساب الثنائية ويعتبر عكس ما قبله وهو يتمثل في اكتساب اللغة عادة في اكتساب اللغات الأجنبية ، وهي كمثيلتها السابقة ، درجة الإتقان اللغوي فيها كقاعدة عامة محدود جداً . والاختلاف بين الطريقتين يكمن في أن الأولى تتميز بطلاقة الحديث والكفاءة في الاتصال الشفوي ، بينما تمتاز الثانية بالاهتمام بالبناء اللغوي وفهم المادة المكتوبة

أنواعها :

وتظهر هذه الثنائية في مجالات كثيرة من مجالات الحياة ، وفي جوانب متعددة من جوانب المجتمع ، مما يترتب عليه اختلاف أشكال هذه الثنائية باختلاف المجالات الاجتماعية التي تظهر فيها ، وقد تحدث العلماء عن أنواع مختلفة من الثنائية اللغوية كانت محاورها في مجملها الفرد والمجتمع ، والأسس التي يعتمد عليها في تحديد هذه الأشكال هي درجة الإتقان ، والمستوى الذي تستخدم فيه هذه الثنائية وكذلك المكان ، وتوزيع الاستخدام ، وطريقة التعلم ، والمهارات اللغوية والثقافية ، والإنجاز اللغوي والتوقيت والتوازن والاختيار ، نتج عن هذه الأمور أنواع متعددة من هذه الثنائية أهمها :

الثنائية الفردية Individual Bilingualism

يتعلق هذا النوع من الثنائية بالفرد بشكل خاص ، فإذا كان مدار الحديث الفرد ولغتيه ، فإن معنى ذلك ، الحديث عن الثنائية اللغوية الفردية وفي مثل هذه الحالة تتم دراسة الثنائية اللغوية كظاهرة فردية ، وتسمى بالفردية لأنها تختص بالفرد وتنسب إليه ، وللفرد مع هذا النوع من الثنائية حالتان ، إما أن يكون قد ملك ناصيتي اللغتين الأولى والثانية ، ويستطيع أن يستخدم كلاً منهما بطلاقة ويسر ، يسمع الحديث باللغة الأولى ، ويجيب عنه بنفس اللغة ، كما يسمع حديثاً باللغة الثانية ، ويجيب عليه بنفس اللغة ، وإما أن يكون غير قادر على ذلك ، فهو يتقن اللغة الأولى أكثر من الثانية ، فإذا حادثه شخص باللغة الثانية فإنه لا يستطيع أن يجيب على ما سمع بنفس اللغة ، بل يقوم بترجمة ما سمع إلى لغته الأولى ، ثم يجيب عنه باللغة الأولى ويقوم بترجمة هذه الإجابة إلى اللغة الثانية ، لذا فقد " فرق الباحثون بين نوعين من الثنائية اللغوية : الثنائية اللغوية المركبة ، والثنائية اللغوية المتلازمة – لفت الانتباه إلى هذا الفرق أوسجود Osgood في عام ١٩٦٥م بناء على الأفكار التي طرحها فاينرايخ Weinnreich في عام ١٩٦٣م –

ويمثل الفرق بين هذين النوعين بالآتي : الشخص الذي يستعمل الثنائية المتلازمة يستعمل في حقيقة الأمر نظامين لفظيين مستقلين ، أي أنه يفهم الرسالة التي وصلته بلغة (أ) باللغة نفسها ، ويستجيب باللغة نفسها ، وكذلك يفهم الرسالة التي وصلته بلغة (ب) باللغة نفسها ، ويستجيب باللغة نفسها . أما الشخص الذي يستعمل الثنائية اللغوية المركبة ، فإن لديه نظاماً لفظياً راجحاً بلغة (أ) ، بحيث عندما تصله الرسالة بلغة (أ) يفهمها ويستجيب باللغة نفسها ، على عكس ما يحدث عندما تأتيه الرسالة بلغة (ب) ، فهو يترجمها إلى لغة (أ) ليستطيع فهمها ، ويستجيب بلغة (أ) ثم يترجم الاستجابة إلى لغة (ب) لتوصيلهاإذن نحن أمام نوعين من الثنائية، إلا أن بعض العلماء لم يكن مقتنعاً بهذا التقسيم ، واعتبر أن الثنائي هو الشخص الذي يتقن لغتين اتقاناً تاماً يستخدمهما بكل طلاقة دون تردد أو حاجة إلى الترجمة ، أما إن لم يكن قادراً على استخدام اللغتين بنفس الدرجة من الاتقان ولابد له من الترجمة ، فهو في هذه الحالة متعلم لغة وليس ثنائيا . يقول أحد العلماء : " أصبح هذا التفريق بين نوعين من ثنائية اللغة مشهوراً ومقبولاً لدى كثير من الباحثين ، ولكنه أيضاً واجه انتقادات شديدة على اعتبار أن الشخص الذي يتصف بالثنائية المركبة للغة والذي لا يستطيع أن يفهم إلا بترجمتها إلى لغة ثانية هو في حقيقة الأمر ليس ثنائي اللغة على الإطلاق ، بقدر ما هو متعلم للغة ثانية ، وهذا عكس الشخص الذي يستعمل الثنائية المتلازمة والذي يعتبر بحق ثنائي اللغة فشرط الثنائية عند أصحاب هذا الرأي هو الإتقان التام لكلتا اللغتين واستخدامهما من نفس الفرد بنفس الدرجة وفي كل مهاراته اللغوية وأدواره الحياتية .

الثنائية المجتمعية Societal Bilingualism

هذا النوع من الثنائية يعني دراسة هذه الظاهرة كظاهرة عامة في المجتمع ، وتتناول هذه الدراسة العوامل اللغوية المتصارعة داخل المجتمع ، وتفاعلاتها وتأثيراتها في ذلك المجتمع ، وهذا يتطلب دراسة اللغات المستخدمة في هذا المجتمع ، فتدرس اللغة الأكثرية ، ولغة الأقلية . والغرض من كل هذه الدراسات وضع سياسة لغوية ناجحة في التعليم ، وفي كل وسائل الإعلام ، من صحافة ولإذاعة وتلفاز . وهذه الثنائية تعني أن هناك لغتين مستخدمين في مجتمع ما ، كما أنها لا تعني ضرورة استخدام كل فرد من أفراد المجتمع للغتين .

الثنائية الأفقية Horizontal Bilingualism

إذا استخدم أفراد مجتمع ما لغتين مختلفتين بطريقة متكافئة ، وبنفس المكانة الاجتماعية ، وعلى كل المستويات الرسمية والشعبية والتعليمية ، فغن هذا يعني وجود ثنائية لغوية أفقية في ذلك المجتمع . وقد جاءت هذه التسمية نتيجة لتساوي اللغتين في المكانة ، وتناظرهما في الاستخدام . أما إذا كانت اللغتان لهجتين للغة واحدة ، إحداهما اللغة الفصحى أو العالية وهي التي

تتمتع بمكانة عالية وتستخدم في مستويات اجتماعية معينة وثانيتها اللهجة العامية أو الدارجة وهي أقل شأناً من سابقتها وتستخدم في الحياة العامة ،ولا ترقى إلى المستويات الرسمية أو الثقافية ، في مثل هذه الحال يطلق Vertical Bilingualism ، على الثنائية اللغوية اسم الثنائية الرأسية كما يطلق عليها اسم الثنائية اللهجية ، وتعرف كذلك بالازدواجية اللغوية .

وقد توجد ثنائية من نوع آخر تجمع بين لغة فصيحة ولهجة عامية من لغة أخرى كما هو الحال مع سكان لويزيانا الأمريكية حيث توجد اللغة الإنجليزية إلى جانب المحلية الفرنسية وهذا النوع من الثنائية يطلق علية اسم الثنائية القطرية Diagonal Bilingualism.

ولدرجة الإتقان دور في تفرع الثنائية اللغوية ، إذ أن معرفة اللغة تبدأ بمعرفة أول جملة من جملها ، وتتدرج صعوداً إلى درجة الإتقان ، فالإتقان إذاً عامل هام في الثنائية اللغوية ، فعندما يتقن الفرد لغته الأولى إتقاناً تاماً ، ثم يتقن لغة ثانية إتقاناً تاماً أيضاً ، فإن هذا يعني أن الفرد ثنائي مثالي ، ويدعى هذا النوع من الثنائية ، الثنائية اللغوية المثالية Ideal Bilingualism، وهذه الثنائية تعني إتقاناً تاماً للغتين معاً . وإذا تحدث الثنائي المثالي أو كتب بأي لغة من لغتيه فإننا لا نستطيع أن نلمح أثراً لإحداهما على الأخرى ، وهذا الثنائي المثالي يتقن جميع المهارات اللغوية للغتيه ، ويمكنه استخدام لغتيه في جميع الظروف ولجميع الأغراض . وفي الحقيقة أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذا النوع من الثنائية افتراضي ممكن الوقوع ولكنه نادر جداً ، " علينا أن لا نتعب أبداً من ترداد أن فكرة التملك التام للسان ما لا معنى لها أبداً

فليس من الممكن أن تتساوى مهارات شخص ما في لغتين تساوياً تاماً ، ففي الغالب تتفوق لغة على أخرى ، كما أنه من النادر أن يتقن شخص ما لغتين بنفس الدرجة من الإتقان في كل المناسبات وتحت كل الظروف ومن أجل كل الأهداف " إن الهجرة من لغة أم إلى لغة أم لا تعني أن الإنسان قادر على أن يتقن لغتي أم أو أكثر في آن واحد للإنسان قدرة مطلقة فور ولادته على أن يتعلم أي لسان يفرض عليه ، وأن يترك فيما بعد هذه اللغة في سبيل غيرها إذا استطاع ذلك . إن الإنسان لا يجيد الإجادة الكاملة إلا لغة أم واحدة . إذا هجرها ضعف زخمه فيها وتحولت طاقته إلى اللغة الثانية ، وهذا يعني أن اللغات الأخرى التي يتكلمها الإنسان اللغة الأم تتسلط بعبقريتها على

قد يكون هناك تساو في الضعف في لغتين لدى فرد ما ، أي أنه بدأ في تعلم اللغة الثانية ،وانقطع عن لغته الأولى مما جعله يبدأ في نسيانها تدريجياً ، ولم يستطيع إتقان اللغة الثانية ، وكأنه وقف في منتصف المسافة بين الإتقان وعدمه لكل من اللغتين فأصبح ذا لغتين جديدتين وبلا لغة أم ، ويطلق عليه Semilingualفي هذه الحالة نصف لغوي.

أما إذا بدأ الفرد في تعلم اللغة الأولى واللغة الثانية ، ووصل في إتقانهما إلى درجة كبيرة ، دون أن يصل إلى مستوى الإتقان التام أو المثالي ، سميت هذه المرحلة من الثنائية بالثنائية اللغوية المتوازية Balanced Bilingualism ، وهي حلة من الإتقان الجيد للغتين بنفس المستوى لأهداف متشابهة .معروف أن اللغة الأولى مكتسبة يكتسبها الفرد من الوسط الاجتماعي المحيط به ، وهو اكتساب طبيعي للغة ، أما اللغة الثانية فإن اكتسابها يختلف عن اكتساب اللغة الأولى ، فبعض الناس يكتسبها بطريقة طبيعية من وسطه الاجتماعي وبيئته التي يعيش فيها دون حاجة إلى تعلم رسمي ، وهذه الحالة تعرف باسم الثنائية الطبيعية Natural Bilingualism والبعض الآخر يكتسب هذه اللغة عن طريق التعليم المدرسي ويطلق على هذه الحالة الثنائية الاصطناعية Artificial Bilingualism . والحقيقة أن تعلم اللغة الثانية بالطريقة الطبيعية من المجتمع أفضل بكثير من تعلمها بالطريقة الرسمية .

<u>أقسام الثنائية بحسب أماكن تعلم اللغة :</u>

يمكن أن تقسم الثنائية – حسب أماكن تعلم اللغة – إلى ثنائية منزلية إذا تم اكتساب اللغة الثانية في المنزل ، وهذا يعني استخدام لغتين في المنزل ، وليس من الضروري أن يتم استخدام اللغتين من جميع أفراد المنزل ، فقد تستخدم اللغتين من جميع الأفراد ، وقد يستخدم بعض الأفراد لغة واحدة ، والبعض الآخر لغة أخرى ، والبعض الثالث اللغة الأولى واللغة الثانية ، وأكثر ما تحدث هذه الثنائية في المنازل التي تضم أبوين مختلفي اللغة ، كأن يكون الأب عربياً والأم غير ذلك ، فيسمع الطفل لغة أبيه كما يسمع لغة أمه ، وقد يسمع كلتا اللغتين من أبيه كما يسمعها من أمه ، فينشأ ثنائي اللغة .
وقد يتم اكتساب اللغة الثانية من المدرسة التي تقوم بتعليم اللغة الثانية ،أو التي يتم التعليم فيها بلغتين ، وفي هذه الحالة تسمى الثنائية ثنائية تعليمية Educational Bilingualism أو ثنائية مدرسية School Bilingualism . أما إذا كانت الثنائية اللغوية في وسائل الإعلام فإنها تسمى الثنائية الإعلامية Information Bilingualism وفي مثل هذه الحالة توجد في المجتمع صحف ومجلات وبرامج إذاعية وأخرى تلفزيونية بلغتين ، وقد تخصص لكل لغة مجلات وصحف إلى جانب محطات إذاعية وقنوات تلفزيونية . وقد تكون الثنائية ثنائية رسمية Officiail Bilingualism إذا كان استخدام اللغتين معترفاً به في أجهزة الدولة ومؤسساتها .

يستطيع الفرد استخدام لغتيه الأولى والثانية في كل أمور الحياة ، فيستخدم ما يشاء من اللغتين في أي مكان ، في البيت ، وفي الشارع ، وفي العمل ، مع أصدقائه وخاصته ، ومع عامة الناس ، في الوسط الرسمي وفي الوسط الشعبي ، فهو متقن للغتيه إتقاناً تاماً يخوله استخدامهما متى يشاء ، وقد يعجز البعض عن استخدام لغتيه في كل الأمور ، لذا يلجأ إلى توزيع الاستخدام بينهما ، فيخص كل لغة بوظيفة خاصة فقد يستخدم لغته الأولى في البيت ومع أفراد أسرته فقط ، ويستخدم لغته الثانية خارج البيت ، وربما اعتمد لغته الثانية في العمل والأولى خارج العمل ، وكذلك ربما استخدم لغته الأولى في الحديث مع طبقة معينة من الناس ، واللغة الثانية مع طبقة أخرى ، وقد يستخدم اللغة الثانية في التدريس ، والأولى في غير ذلك وهكذا ، وتسمى الثانية في مثل هذه الحالة الثنائية التكاملية Complementary Bilingualism ، أو ثنائية وظيفية Functional Bilingualism ، أي أن اللغتين تتكاملان الأدوار عند الفرد نفسه ، فلكل لغة منهما وظيفة خاصة بها لا تشاركها فيها الأخرى، وتتضح صورة هذا النوع من الثنائية لدى الأقليات في المجتمعات ، إذ يستخدم الفرد منهم لغة الأكثرية Majority Language ويستخدم لغة القلية Minorty خارج البيت ، لغته الأولى – مع أفراد أسرته داخل البيت . كما يظهر هذا النوع من الثنائية في كثير من الجامعات العربية ، فكثير من المدرسين يستخدمون اللغة الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) في محاضرتهم للتخصصات العلمية ، ويعودون للتحدث بالعربية بعد انتهاء المحاضرة . هذه هي أهم أنواع الثنائية اللغوية الفردية ، أما الثنائية اللغوية في المجتمع (الثنائية المجتمعية) فتظهر بصورة مخالفة لها عند الفرد . فالمجتمع الذي توجد فيه أقلية إلى جانب أكثرية يختلف فيه الوضع ، فالأقلية تكتسب لغتها الأولى ، ثم تتعلم اللغة الثانية (لغة الأكثرية) أما الأكثرية فلا تعرف سوى لغتها ولا تهتم بلغة غيرها ، فيكون في المجتمع جماعتان ، جماعة تعرف لغتين (لغة الأقلية ولغة الأكثرية)، وجماعة تعرف لغة واحدة فقط هي لغة الأكثرية ، فطوائف هذا المجتمع لا تتبادل معرفة اللغات ، فالثنائية هنا ثنائية غير تبادلية Non-reciprocal Bilingualism .

أما إذا كان في المجتمع فئتان متساويتان في المكانة والأهمية ، فإن لغتيهما تتساويان أيضاً في المكانة والأهمية ، ويطلق على هذا النوع من الثنائية ثنائية تبادلية Reciprocal Bilingualism ،ويلعب الوئام والانسجام بين أفراد هذا المجتمع دوراً هاماً في ظهور هذا النوع من الثنائية . وتبدو الثنائية اللغوية في مثل هذا المجتمع ظاهرة اجتماعية تقرها الأعراف ، وهي مقبولة لكل أفراد المجتمع وعلى كل المستويات ،

ويترتب على هذا الفهم ، وهذه القناعة لدى الأفراد تعايش لغوي بين اللغتين ، وهذا يدعو إلى تدعيم الثنائية ، وإذا حدث عكس ذلك تصبح الثنائية غير مستقرة ويترتب على عدم الاستقرار هذا زيادة في عدد ثنائي اللغة بالنسبة لأحادييها ، وينتج عن هذا الازدياد ظهور ثنائية جديدة تعرف بالثنائية المتزايدة Progressive Bilingualism سببها ازدياد عدد المهاجرين أو عدد الوافدين إلى هذا البلد ، وقد تظهر صورة أخرى بسبب عدم الاستقرار تنتج عن تناقص عدد الثنائي اللغة وتسمى هذه الحالة الثنائية اللغوية المتناقضة Regressive Bilingualism ، هذه أهم مظاهر الثنائية عند الفرد وفي المجتمع .

المحاضرة التاسعة

الثنائية اللغوية(٢)

أهم مظاهر الثنائية على الفرد والمجتمع :

تصاحب الثنائية الفرد في كل مراحل حياته وتلازمه في كل أعماله ، وتظهر واضحة في سلوكه وانفعالاته ، فهي تؤثر تأثيراً كبيراً عليه، فيظهر هذا الأثر في شخصيته ، يقول ولهم فون هومبولت Wolhelm Von Humblot : " إن اللغة تشكل الشخصية " فالثنائية تؤثر سلبا في شخصية الفرد ، وإذا أحس هذا الفرد بنقص ما ضمن الجماعة اللغوية التي يعيش معها ، حاول تعويض ذلك النقص بأي طريقة كانت ، فيلجأ إلى استخدام لغة أخرى ظناً منه أن ذلك يؤدي إلى رفع مكانته بين جماعته ، ولا يقتصر مثل هذا السلوك على الأفراد بل تلجأ جماعة لغوية إلى مثل هذا السلوك " فبعض الجماعات تميل نحو استخدام اللغة وسيلة لرفع مكانتها الاجتماعية ، ولتدعيم احترامها لذلتها ، رغم أنه من الواضح أن مثل هذه الجماعات لا تتمتع بهذه المكانة " وكذلك إذا شعر شخص بأنه أقل مكانة وعلماً وأحط وضعاً اجتماعياً من غيره داخل مجتمعه ، حاول أن يتخلص مما يشعر به " فيختار لغة ما بعينها للتحدث بها من أجل أن يرفع مكانته لدى المستمعين ، وخاصة عندما تكون هذه اللغة مرموقة اجتماعياً أو علمياً وهذا ما يحصل لكثير من أبناء أمتنا العربية الذين يبذلون جهوداً كبيرة من أجل استخدام الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها ، ظناّ منهم أن هذا الاستخدام يرفع من مكانتهم الاجتماعية بين العامة ، ويجعلهم يعدون ضمن الطبقة الأكثر علماً وثقافة ، هذه هي الدوافع لتعلم لغات أجنبية عند كثير من الأفراد " ويميز في دراسات تعلم لغة ثانية بصورة عامة بين نوعين من الدوافع ، يرتبط النوع الأول بإدراك المتعلم للمزايا الكامنة في معرفة لغة ما والتمكن منها ، وتتراوح هذه المزايا من الحاجة الملحة إلى تعلم اللغة كأداة عملية للاتصال والتفاهم إلى التمكن منها لضمان مستقبل وظيفي أفضل . والنوع الثاني من الدوافع لتعلم اللغة قد

يكون نابعاً من رغبة المتعلم في الانسجام مع الجماعة التي تتحدث بتلك اللغة ، أو نابعاً من الإعجاب والتبجيل الذي يكنه لتلك الجماعة والرغبة في إظهار الاقتران بها ولو من ناحية مثالية على الأقل ... فمن يتعلم لغة ما لاعتقاده أن في تعلمها مكسباً يكون بالطبع راغباً في أن يصبح جزءاً من الجماعة التي تتكلم تلك اللغة والتي يعتقد أنها لسبب أو لآخر جماعة متميزة هذا الشخص الذي اختار لغة جديدة للتحدث بها بدلاً من لغته الأم ، لا يحقق الغرض المطلوب من استخدامها ، بل يترتب على ذلك عدم الرضا وعدم الاستقرار النفسي لديه ، لأنه يدرك أنه غير قادر على الاندماج في تلك الجماعة اللغوية ، كما أنه غير مقبول عندهم " إن كل من يتكلم لغة أجنبية وإن كان يتقنها جيداً ، يشعر بشيء من الانزعاج عندما يخاطب أبناءها الأصليين إنه لم يحقق هدفه في الاندماج في تلك الجماعة لأنه " يسير في طريق الاندماج في مجموعتين ، والانتماء لثقافتين ، وبما أن هذا مستحيل فإنه يعيش بشخصيتين مختلفتين ، أو بعبارة أخرى لديه انفصام في شخصيته ، ومن ثم قد تبدو عليه أعراض ومظاهر هذا الانفصام وما يرتبط بذلك من صراع في ولائه للمجموعتين إن الثنائية تفرض على الفرد التردد وعدم الثقة وسرعة الانتقال من لغة إلى أخرى حسب الظروف التي يعيشها ، فيتحول من لغة إلى أخرى حسب حاجته ، إن هذا التحول اللغوي يثير " في نفوس أحاديتي اللغة ردود فعل مختلفة أكثرها سلبي ، بل ويثير ردوداً مماثلة لدى ثنائي اللغة الذين يكثرون من التحول ومن هذه الردود التحول ناتج عن كسل المتكلم ، التحول تدمير للغة ١ واللغة ٢ ، التحول خطر على الاتصال اللغوي ، التحول إهانة للمستمع أحادي اللغة ، المتحول أي الشخص الذي يحول من لغة إلى أخرى ، شخص لا لغة له إنه لا لغوي ، المتحول ضعيف في اللغتين إنه نصف لغوي ، التحول يجعل " سلطة لفظية عجيبة هذا التحول لدى الشخص الثنائي ينتج عنه عدم وضوح الفكرة التي يريد التعبير عنها ، وعدم استقامة اللغة وانقيادها لديه ، فتظهر عليه التأتأة أو اللعثمة أو غيرها من الأمور التي تعد من عيوب النطق التي تنشأ عن التردد وعدم الثقة في النفس إذ " ترى بعض الدراسات أن الثنائية اللغوية تضر بشخصية الفرد وتجعله يغير مبادئه وقيمه ، كما يغير لغته حسب مقتضيات المقام والظروف ، يتحول في السلوك كما يتحول في اللغة ، وترى بعض الدراسات أن الثنائي قد يعاني من التوتر وعدم الاستقرار الانفعالي وبعض الاضطرابات النفسية مثل اللعثمة ولا يقتصر ضرر التحول على المتكلم وحده ، بل يتعداه إلى السامع الذي يقع تحت تأثير صدمة المفاجأة التي تفقده التوازن ، وتوقف فهمه لبعض الوقت حتى يستطيع متابعة ما يقال له من الكلام وفهمه ، وقد أشار الخولي إلى ذلك بقوله : " يرى البعض أنه إذا قام المتكلم بتحول أثناء كلامه . أي تحول من ل١ إلى ل٢ ، فإن هذه المفاجأة قد تربك المستمع وتجعله غير قادر على الفهم لمدة ثوان ، حتى ينفتح مفتاح الإدخال المناسب

كما تؤثر هذه الثنائية سلباً على الذكاء والتحصيل العلمي ، إنها قتل للإبداع ، وتدمير للتفكير السليم فالشخص الثنائي الذي يستخدم لغتيه كلتيهما ، يفكر بلغة ويتحدث بأخرى ، يقع في دوامة من التردد وعدم الثبات ، كما يقع في بحر من الحيرة والارتباك ، وعدم المقدرة على التفكير السليم والاستيعاب الحق ، والاستنتاج الدقيق للمسائل والقضايا التي تعرض عليه ويشعر بأنه عاجز عن تحديد المراد ، وغير قادر على إيجاد الحلول المناسبة للقضايا والمشكلات التي تعترضه لأنه عديم الثقة بنفسه ، غير ثابت على قرار ، عاجز عن التفكير العلمي والتحليل الدقيق والاستنباط الصائب ، لذا لن يكون مبدعاً أو مبتكراً ،لأن الإبداع والابتكار لن يتحققا إلا بإتقان اللغة إتقاناً تاماً دون أي تشويش أو عدم وضوح ، وهو مالا يتوفر للشخص الثنائي الذي لا يمكن أن يتقن اللغتين إتقاناً تاماً ، بل إن إتقانه للغة الثانية لن يكون إلا على حساب إتقانه للغة الأولى ، " إن متعلمي اللغة الثانية يشكلون نظامهم اللغوي الخاص ، وليس هذا النظام بنظام اللغة الأصلية ، ولا هو بنظام اللغة المستهدفة ، ولكنه يقع بينهما وهذا يعني أن لا إبداع مع الثنائية اللغوية ، كما أن الإبداع لا ينفصل عن الذكاء " ولقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائية اللغوية ذات أثر سلبي على الذكاء ، فلقد رأى وزغيربر **Weisgerber** ، أن الثنائية تدمر الذكاء والإبداع ، وأنها إذا انتشرت في شعب ما فإنها تدمر ذكاءه وإبداعيته لأجيال طويلة . وتوصل باحثون آخرون .. إلى أن الشخص الثنائي اللغة يفكر بلغة ويتكلم بأخرى مما يجعله متردداً عقلياً ومرتبكاً وإذا كانت الثنائية اللغوية سبباً في إعاقة الذكاء وقتلاً للإبداع عند الكبار فهي أكثر سلبية على الصغار ولها آثار مدمرة عليهم ، فالطفل الذي يراد له تعلم لغة ثانية إلى جانب لغته الأم يفرض عليه الضعف في الاستيعاب والتذبذب وعدم الاستقرار في الشخصية ، لأنه ينشأ موزعاً بين لغتين ، لغته القومية (الأم) التي يتكلمها بطلاقة وتلقائية دون جهد وعناء ، وهي التي " لا تقبل لها ضرة تحت سقف بيتها ، فأما هي وإما غيرها " واللغة الثانية التي يبذل من أجل الكلام بها جهداً في اللسان وجهداً في الفكر إضافة إلى ما يضيعه من وقت أجل إتقانها ، إنه في صراع نفسي مرير ، لا يدري بأي لغة يتحدث ، مما يرهق عقله ويشل تفكيره ويجعله غير قادر على التركيز . "وقد دلت جميع الأبحاث النفسية واللغوية أن الولد الذي يزاول أكثر من لغته القومية وهو دون العاشرة ، وتضعف طاقته الاستيعابية بين لغتين ، واحدة يتكلمها بتلقائية ، وواحدة يتكلمها بجهد في اللسان والفكر ، مما يضيع عليه وقتاً كبيراً ، ويجعله يتذبذب بينهما ، بدلاً من أن يستقر بصورة نهائية ، وإن نسبياً في صحن لغته القومية ، وهكذا يتوزع الولد بين أمتين ، بين تاريخين، بين عبقريتين، إذ لكل لسان عبقرية خاصة يدرك الطفل الثنائي أنه غير قادر على مجاراة أترابه وأقرانه الأحاديين في التفكير وفي الذكاء ، وفي طلاقة اللسان ، كما يشعر أنه أقل ذكاء وفطنة منهم ، كما يحس أن هذه اللغة الثنائية قيد له تحد من انطلاقه والتعبير عما يدور بخلده

من أفكار وآراء ، لأن الطالب "الذي يتلقن العلوم بلغته القومية الطائعة لمعطيات فكره يبز الطالب الذي يناخ لألفاظ في اللغة لم يتسلمها فطرة من أجداده . هذه اللغة التي يجبر لسانه ودماغه على مزاولتها تصبح قيداً لأفكاره ، لا فضاءً حراً فسيحاً يخترقه ، تصبح سبب وجود عقدة نفسية مخربة لكيانه المعنويوقد أجري العديد من الدراسات في هذا الشأن ، والعديد من اختبارات الذكاء والمقدرة العقلية دلت كلها على أن الأطفال الثنائيين أقل مقدرة على تحديد أنفسهم ومرادهم من زملائهم الأحاديين ، كما أنهم أقل معرفة وذكاء منهم ، لأن الطفل الثنائي منهك العقل والتفكير ، وقد قال الباحثون :" إن الثنائية عبء على الطفل تجعله يعاني من إنهاك عقلي لنه موزع بين لغتين ، وتوصلوا إلى أن الثنائي اللغة أدنى ذكاء من الأحادي حسبما تدل اختبارات الذكاء ، وأن الثنائيين أدنى في معامل ذكائهم من الأطفال الأحاديين كما وجودوا أن العمر العقلي للأحاديين يزيد عن العمر العقلي للثنائيين ، ووجدوا كذلك أن الأحاديين يتفوقون على الثنائيين في اختبارات الذكاء اللفظية والعمليةإن الطفل في سنوات عمره يحتاج إلى كمية محدودة من الغذاء الفكري الذي يمكن الحصول عليه من اللغة الأم ، فالطفل في هذه المرحلة العمرية لا يحتاج إلى أكثر من لغته الأم من أجل تنمية قدراته العقلية ، فإذا طلب منه تعلم لغة ثانية إلى جانب لغته الأم أدى ذلك إلى عدم نموه الفكري المطلوب ، أو إلى نمو فكري مشوه يخلق منه إنساناً ناقص القدرات ، فقد " أدت اختبارات دي كرولي إلى النتيجة الآتية : على الولد بصورة عامة أن لا يزاول في السنوات العشرة الأولى لساناً غير لغته الأم . هذه اللغة كافية في سنه لتغذي عقله ، يعني أن تعدد الألسنة يعرقل النمو الفكري عند القسم الأكبر من الأولاد ، من المستحسن إذن أن ينتظر الولد ريثما يكون قد اكتسب نسبياً لغته الأم ، قبل أن يقدم على دراسة لغة ثانية الطفل في هذه المرحلة من حياته بحاجة إلى التعبير عن نفسه وأفكاره بطريقة سهله ، يعتمد على سليقته اللغوية في كل تعبيراته ، وهذا التعبير العفوي النابع من السليقة اللغوية الذي يستطيع الطفل من خلاله أن ينقل أفكاره وأحاسيسه وعواطفه إلى الآخرين ، لا يمكن أن يحصل عليه بسهولة ويسر إذا كان قد لقن لغة أخرى إلى جانب لغته الأم ، وإذا فرض عليه لغة أخرى في سن مبكرة فإن ذلك سيعيق نموه اللغوي لأنه سيخلط بين اللغتين ، فالأطفال الذين يراد بهم تعلم لغتين في سن مبكرة يتأخرون في تقدمهم اللغوي ، لأن لكل لغة صفاتها الخاصة ، التي تميزها عن أية لغة أخرى ، ولهذا يخلط الطفل بين اللغتين في ألفاظهم وفي تعبيراتهما ، فيتأخر نموه في كلتيهما ، ويرجع هذا التأخر إلى الأثر السلبي الذي يتركه تعلم لغة ما عند تعلم لغة أخرى كما تؤكد دراسات "ماكنمارا" أن هناك أثراً متوازياً بين الأطفال المؤهلين لتعلم لغة أجنبية أو المستخدمين لهذه اللغة أو الذين يتقرر تدريس لغتين لهم ، هؤلاء الأطفال يصبح لديهم فهم ضعيف لكل من اللغتين عن الأطفال الذين يتخاطبون بلغة واحدة

إن تعلم الطفل للغته الأولى يكسبه خبرة كافية في تعلم اللغة بشكل عام ، ويساعده على تعلم اللغة الثانية ، فإذا أردنا أن نحقق هدفنا من تعلم أبنائنا لغة ثانية فعلينا أن نعلمهم لغتهم الأم أولا ، وأن لا نقدم لهم اللغتين معاً ، لأن هذا سيؤدي إلى نفور الطفل بشكل عام ، وعدم استعداده للاستيعاب ، وعدم مقدرته على القراءة ، إلى جانب تبلده الفكري ، كما قد يؤدي ذلك إلى إثقال كاهله ، ويخلق عنده نوعا من الضعف والخجل يترتب عليه نفوره من المدرسة الذي يصبح مجبراً على الذهاب إليها ، غير راغب في الدراسة برمتها ، وهذا بدوره إلى تدمير العملية التعليمية كلها وقد " دلت بعض الدراسات على أن الثنائية تضر بميل الطفل واستعداده لتعلم اللغة وتعيقه في القراءة والدراسة بوجه عام ، وفي التهجئة والتاريخ والجغرافيا بوجه خاص ، وقد تؤدي الثنائية في رأي البعض إلى ضعف الميل والمبادأة والاستجابة في الصف ، كما قد ينمو لدى الطفل شعور بكراهية المدرسة ، مما يؤدي إلى التسرب المبكر منهاوينسحب هذا الأمر على جميع الطلاب في مراحل التعليم كافة ، سواء كان ذلك في المرحلة الثانوية أم في المرحلة الجامعية ، فالطالب الذي يطلب منه التعلم بلغة ثانية غير لغته الأم ، يبدو أقل قدرة على الاستيعاب والتعبير من نظيره الأحادي الذي يتعامل بلغة واحدة ، يتقنها جيداً هي لغته الأم ، وهذا ما يحدث في كثير من الجامعات العربية التي تقدم كثيراً من مقرراتها بلغات أجنبية ، وقد أشار الخولي إلى هذا الأمر فقال :" ولا تنحصر هذه المشكلة في الأطفال ، بل تتعداهم إلى البالغين في الجامعات فإذا تعلم الطالب العلوم مثلاً بلغة لا يتقنها ، كما يحدث للطلاب العرب في الجامعات العربية التي تدرس العلوم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية فإن هذا يؤثر في الأغلب تأثيراً على تحصيله الدراسي ومستواه العلمي ، وذلك لنه سيكون أقل استيعاباً وتعبيراً من نظيره الأحادي الذي يتعلم بلغته الأولى فاللغة الأم هي الوسيلة الحقيقية التي تعمل على توحيد بكل عناصرها في إطار واحد ، والتي تعمل على خلق الألفة والمودة والوئام بين أفراد الأمة ، لأنها هي وحدها التي تستطيع أن تضع أساساً للتفاهم الروحي والذهني بين طبقات الأمة ، وهي الأسلوب الأمثل لخلق القدرات وصقل المواهب ، وتفتيق الطاقات ، وتسخيرها جميعها من أجل الخلق و الإبداع والإنتاج العلمي الحضاري ، إنها التي تخلق الانتماء القومي الحقيقي عند أفراد الأمة " من أجل هذا كان عظيماً جداً خطأ الذين يفرضون لغة أجنبية كأداة للتدريس على التلميذ دون العاشرة لكأننا بهم يفرضون عليه أن يعيش غير تاريخه ، أن ينتسب إلى أجداد غير أجداده ، أن ينتمي إلى غير فصيلته ، إلى غير أمته ، وأن يتصرف بجسمه عكس منطق العفوية ، جهود هؤلاء لا تأتي بالثمر النافع ، بل تساعد على خلق جيل لا شيء يربطه بمحيطه ، ويصله باختبارات السابقين من أسلافه وإني أتسأل هنا عن سبب تسابقنا في الحرص على تعليم أطفالنا لغة ثانية أو ثالثة في سن مبكرة ظناً منا أن هذا الأمر يخدم الطفل في حياته العلمية والعملية المستقبلة ، وهذا الفهم أو الظن

عكس الحقيقة والواقع ، لأنه يثقل كاهل الطفل ويخلق منه شخصاً غير سوي ، متبلد الفكر قليل الذكاء ، ذا شخصية قلقة مضطربة عاجزة عن التفكير السليم ، إضافة إلى أن اللغة الثانية التي يتعلمها الطفل في سني حياته الأولى تزاحم لغته الأم ، وتمنعه من إتقانها ، مما يترتب عليه عدم إتقان اللغتين ، هذا ما جعل المنظمات العلمية العالمية توصي بعدم تعليم الطفل لغة ثانية قبل سن العاشرة أو الثانية عشرة " وقد دلت الدراسات التي أجريت على مدى عدة سنوات على أن الأطفال الذين يتكلمون اللغة الولزية welsh في البيت ، بينما يتلقون تعلمهم في المدرسة باللغة الإنجليزية ، كانت نتائجهم في المواد الدراسية وفي اختبارات الذكاء أسوأ من نتائج أقرانهم الناطقين باللغة الإنجليزية في بيوتهم،وعلى أساس هذه الدراسات وغيرها انتهى معظم المشاركين في مؤتمر لوكسمبورغ إلى أن التعليم بواسطة لغة غير اللغة الأم المستخدمة في البيت مضر بالنمو الذهني والشخصي، ومن أوصى المؤتمرون بضرورة تأخير إدخال اللغة الثنائية بقدر الإمكان وليكن مثلاً سن الثانية عشرة وكذلك تؤثر هذه سلباً في الثقافة ، لأن اللغة وعاء الفكر ، والفكر يكون الثقافة "وتعتبر الثقافة جزءاً من التفاعل بين اللغة والفكر ، فاللغة تعبر عن الأنماط الثقافية والتقاليد وطرق الحياة ، وتنعكس نظرة أهل ثقافة معينة إلى الكون على لغتهم " فلا نستطيع أن نكون الأفكار إلا من خلال اللغة إن اللغات تمد الجماعات الناطقة بها لا بوسيلة للاتصال فحسب ، بل كذلك بأوعية ثقافية مختلفة " .

هناك علاقة وطيدة وقوية جداً بين اللغة والثقافة ، فاستخدام اللغة رمز للانتماء إلى المجموعة التي تستخدم هذه اللغة ، إنه رباط متين لا تنفصم عراه ، ارتباط روحي بين الفرد والمجموعة اللغوية التي يتحدث لغتها ، وينهل من ثقافتها ، فعند معرفته لغة ثانية يضع نفسه بين ثقافتين تتنازعانه ، وعليه أن يختار إحداهما ، ولن يتم هذا الاختيار بسرعة وسهولة ، إنه صراع طويل مرير ، يفقد الثنائي التوازن وعدم المقدرة على الانسلاخ من إحدى الثقافتين ، والانتماء التام للأخرى ، وسيبقى في صراع نفسي ،حائراً متردداً غير قادر على الحسم ، وغير قادر على الانتماء إلى ثقافتين معاً أو الاندماج في مجموعتين لغويتين في آن واحد ، يحس أنه بشخصيتين ، شخصيته الأولى المندمجة في الجماعة اللغوية الأولى تحافظ عل أنماط حياة تلك المجموعة وسلوكياتها وعاداتها الاجتماعية ومعتقداتها وكل انجازاتها الحضارية ، والشخصية الثانية المندمجة في الجماعة اللغوية الثانية بكل قيمها ومفاهيمها وطرائق نظرتها للعالم ، وانجازاتها العلمية والحضارية بكل أنواعها وفروعها فهو مفصوم الشخصية يصارع هذه السلبيات التي نتجت عن الثنائية اللغوية "لأن اكتساب لغة أخرى لا يعطي الشخص الفرصة للانضمام إلى مجموعة إنسانية مغايرة فحسب ، بل يعطيه أيضاً الانتماء إلى ثقافة تختلف عن ثقافته الأصلية .... ويجب ألا يغيب عن البال أن الألفة والانتماء لثقافة جديدة قد يؤدي إلى نوع من الصراع في نفسية المتكلم

وهويته وبما أن هذا مستحيل ، فإنه يعيش بشخصيتين مختلفتين ، أو بعبارة أخرى لديه انفصام في شخصيته ، ومن ثم تبدو عليه أعراض ومظاهر هذا الانفصام ، وما يرتبط بذلك من صراع في ولائه للمجموعتين

ولعل هذا هو السبب في هجرة كثير من العقول العربية التي درست خارج الوطن العربي فأتقنت لغة ثانية إلى جانب لغتها العربية و تثقفت بثقافات تلك الأمم ، مما ترتب عليه انتماؤها لتلك الأمم وضعف انتمائها وولائها لكل ما هو عربي أو له صلة بالعروبة ، هؤلاء المثقفون المتبرمون دائماً المشككون في قدرات هذه الأمة ، الساخطون على الحياة العربية بمجملها وعلى الموروث الثقافي والاجتماعي لهذه الأمة .

سيترتب على هذه الثنائية اللغوية ثنائية ثقافية ، يعيش صاحبها في صراع نفسي قاس ، ناتج عن اضطراب القيم والتقاليد والعادات والمعتقدات ، فلا يستطيع تحديد ما هو مباح وما هو ممنوع ، ما هو مقبول لدى الجمهور وما هو غير مقبول ، وما يحمد على فعله وما يذم عليه وهكذا ، يعيش بمعيارين لا يستطيع تحديد أيهما يصلح هناك ، إنه يعيش ثقافة مضطربة غير واضحة الملامح والأبعاد ، إنها مزيج غامض من الأفكار والمعتقدات تخلق منه شخصاً بلا هوية ثقافية ، هذا ما يجعله غير قادر على تحديد انتمائه الثقافي لأنه يتبنى مزيجاً غامضاً من ثقافة (١) وثقافة (٢) فتراه تارة يميل إلى ثقافة (١) وتارة يميل إلى ثقافة (٢) وتدعى هذه الحالة حالة الصراع الثقافي Cultural Conflict .

وليس هذا الصراع الثقافي سهلا ، بل هو صراع قاس ومؤلم للنفس. فالذي يعاني من هذا الصراع لا يدري على أي شعب ينتمي و لا إلى أي ثقافة يتجه ، كما أنه يكون حائراً بين قيم ثقافة (١) وقيم ثقافة (٢) يحتار في الصواب والخطأ والحلال والحرام والمقبول وغير المقبول والجائز وغير الجائز والحسن وغير الحسن".(١)

إن الثنائية اللغوية من أخطر الظواهر اللغوية والاجتماعية معاً لا على الفرد فحسب بل وعلى حياة المجتمع كله ، كما أنها أشدها فتكاً بجسد الأمة ، وعامل تمزيق هام لوحدتها وتفتيتها إلى جماعات لغوية متناحرة تصل في النهاية إلى تقويض وحدتها وهدم كيانها " ولا نبالغ إذا قلنا إن الثنائية اللغوية ناقوس خطر يدق ومرض ينتشر في جسد هذه الأمة

وليس هذا فحسب ، بل إنها السبب الأول والأهم في هدم اللغة الأم وزوالها ، واللغة كما هو معروف مستودع الفكر والمعرفة والثقافة ، كما أنها أداة كل إبداع ومصدر كل معرفة ، إنها معين التراث الفكري والحضاري للأمة ، فإذا وجدت لغة ثانية إلى جانب اللغة الأم ، فإنها ستوجد ثقافة ثانية معها ، مما يعني صراعاً بين هاتين اللغتين وهاتين الثقافتين ، ولن ينتهي هذا الصراع وهذا التعارض بين اللغات والثقافات إلا بفوز إحداهما على الأخرى " ولعل أخطر ما تحمله الثنائية التعارض بين الثقافات المفاهيم التي تحملها كل لغة ... وتكمن الخطورة في الثنائية في عملية الطرد والإقصاء والتنحية للثقافة

الأم وتؤثر الثنائية سلباً على اللغة التي هي مرآة صادقة تنعكس بداخلها صورة المجتمع الذي يتكلم بها ، إنها أهم أداة للاتصال والتواصل، كما أنها عنوان السيادة ورمز التحرر والاستقلال ، فاستقلال الشعب "يقضي بأن تكون لغته الأم سائدة بالتمام ، لهذا كانت الشعوب الحاكمة تسارع في القضاء على لغة الشعوب المحكومة وإذا تعرضت اللغة إلى منافس لها داخل بيتها فإن ذلك يوهنها ويفت في عضدها وتبدأ في التراجع والانهزام التدريجي إلى أن تصل إلى الاستسلام الكامل ، "وإذا استسلمت اللغة للضربات وتغيرت حانت نهايتها لأنه ليس في مقدور قوة في العالم أن تضمن لها التغير على وتيرة واحدة في كل الأماكن التي تتكلم فيها ، وهذا هو التصدع الذي يقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة منه إن مخالطة الشعوب الأخرى سبب هام في ظهور الثنائية كما أسلفنا ، فكلما زاد اهتمام شعب من الشعوب بأمة أخرى زاد اهتمامه بلغتها واستخدامه لتلك اللغة ، وفي المقابل يقل اهتمامه بلغته ويبتعد شيئاً فشيئاً عنها " لأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر من لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد ، لأن الملكة إنما تحصل بالتعلم ، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ، ومن الملكة الثانية التي للعجم ، فعلى قدر ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى إن الثنائي لا يستطيع إتقان لغتيه كما يجب ، وإن معجمه اللغوي يفتقر إلى كثير من المفردات والصيغ وهذا يجعله غير قادر على استخدام اللغة استخداماً سليماً ، فهو كثير الخلط بين مفردات اللغتين بسبب كثرة تحوله من لغة على أخرى وكثرة افتراضاته الناتجة عن عدم ثقته في نفسه ، كما أنه لا يستطيع بناء الجمل بناء سليماً ، فجمله غير تامة لعدم إتقانه أي من اللغتين إتقاناً تاماً ، كما أنه لا يمكنه السيطرة على اللغة وتسخيرها في بناء جمله وعباراته ، إنه عاجز عن بناء الجمل الطويلة ، كما أنه كثير الأخطاء اللغوية وقد " دلت بعض الدراسات على أن الثنائي يواجه مشكلات عديدة في نموه اللغوي ... ويرى البعض أن مجموع كلمات ل١ و ل٢ لدى الثنائي أقل من كلمات نظيره الأحادي ، لأن الأحادي يركز على لغة واحدة في حين أن الثنائي تتنازعه لغتان . ويميل الثنائي إلى استخدام عدد أقل من الكلمات مما يفعل الأحادي ، كما أن مفردات الثنائي تميل على الاختلاط بسبب ميله إلى التحول والاقتراض من لغة أخرى . وترى الدراسات أن الثنائي يميل إلى استخدام جمل اقصر ، كما أنه يكثر من الجمل غير التامة ، ويقلل من استخدام الجمل المعطوفة والمركبة ، ويكثر من الجمل التعجبية ويقلل من الجمل الاستفهامية مقارنة بالشخص الأحادي ، كما أن الثنائي يتميز بالقوالب النحوية المرتبكة ونظم الكلمات الغريب ، وأخطاء ناتجة عن التداخل اللغوي ، كما أن الطفل الثنائي يرتكب أخطاء أكثر من الطفل الأحادي في الأفعال والحروف والأسماء والضمائر والتعابير الاصطلاحية الثنائي غير قادر على الإنتاج العلمي والإبداع الفكري ، لأنه يعيش حياته متذبذباً بين لغتين ، وهذا يمنعه من التمكن من لغته

الأصلية ، ويجعله غير قادر على تعلمها وإتقانها ، غير قادر على معرفة عناصرها وكيفية تطويع هذه العناصر واستخدامها ، أي أنه غير قادر على استحضار العناصر المناسبة للعبارة التي يريد قولها أو الفكرة التي يريد التعبير عنها ، لأن "وجود لغة أجنبية مزاحمة للغة الأم أو منافسة لها قد يخلق نوعاً من التذبذب والحيرة ، ويمنع التركيز ، الاهتمام باللغة الأصلية ، ومن التمكن منها ، إن جهد الطالب ازدواجي اللغة ووقته يصبحان موزعين بين لغتين ، وهذا يقلل من فرص تعلم لغته الأولى ، ومن فرص تلقي واستيعاب عناصرها اللفظية والمعنوية ، أو من فرص استخدام هذه العناصر ، أو إلى ركود طوائف منها وصعوبة استحضارها في الذهن وقت الحاجة إليها ، ومن ثم عدم وجود أي فاعلية لها في مجالات التعبير المختلفة ، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى ضعف مستوى هذه المجالات بنحو عام إن أهم أسباب الثنائية اللغوية فقدان الثقة في الذات أو في المجتمع ، فعندما يشعر الفرد بالانحطاط الاجتماعي ويحس أنه من طبقة اجتماعية أقل من غيرها من طبقات المجتمع ، أو يشعر أنه يتحدث لغة لا تحظى باحترام الطبقات الاجتماعية الأخرى ، أو أنها دون غيرها من لغات الأمم الأخرى ، كما أنها غير مرموقة ولا تصلح لمواكبة العصر ، وهذا يعني أن ذلك الفرد يخالف المألوف ويتجه في نهجه إلى غير المعروف في هذا الشأن ، إذ "يرى علماء النفس الاجتماعي إن الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن الجماعة التي ينتمون إليها أفضل من مثيلاتها من الجماعات فإذا استقر هذا الشعور لديه فإنه ينزع على تعلم لغة أخرى من أجل استخدامها في حياته ظناً منه أن تلك اللغة التي اختارها سترفع مكانته الاجتماعية ، هذا الشخص يرى نفسه ضعيفاً غير قادر على الحياة مع جماعته اللغوية ، لأنه يدرك أنه لا يحظى بأي احترام عندهم ، فيبدون في نظره منحطين أو ليسوا أهلا للحياة ، وعاجزين عن مجاراة الآخرين حضارياً وثقافياً، لأن "الجزء الأساس من نظرة الفرد إلى ذاته مشتقة من نظرته إلى الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها ، واحترامه لذاته يعتمد أساساً على احترامه للجماعة ككل لذا فهو يحرص على قطع كل صلة تربطه باللغة الأولى التي يراها غير قادرة على مواكبة الحضارة وتطورات العصر ، كما يرى فيها لغة للجمود والتخلف ، فيحاول أن ينسلخ من مجتمعه ويؤكد انتسابه إلى جماعة أخرى ، يرى أنها أفضل من الجماعة التي ينتمي إليها ، فيتبنى طرائق نطقها وأساليب تعبيرها ، إلى جانب عاداتها وتقاليدها ويكرس ولاءه لها ، لأن "اللغة تستخدم رمزاً للانتماء إلى جماعة بعينها ، فالناس يستخدمون الكلام حتى يحددوا الجماعة الاجتماعية التي ينتمون إليها أو التي يرغبون في الانتماء إليها ، وبالتالي يقوم الآخرون بتقييم المتحدثين حسب تقييمهم لهذه الجماعات

إن الشخص الذي ينسلخ من أمته أو يحاول اللجوء إلى أمة أخرى والانتساب إليها ، يفقد كل رفعة واحترام ويحس دائماً أنه غير مرغوب فيه لدى هؤلاء القوم الذين حرص على الانتماء إليهم ، هذا الفرد يعيش ما يعرف بظاهرة

اللا أمان اللغوي Linguistics Insecurity ،وهي ظاهرة اعتقاد بعض الجماعات أنها لا تتحدث بطريقة أفضل من الجماعات الأخرى ، بل على العكس ، فهم يتصورون أنهم يتكلمون بطريقة سيئة أو أسوأ من الآخرين إن كثير من أبناء أمتنا العربية يعيشون ظاهرة اللا أمان اللغوي البقة الذكر ، ويرون في لغتنا العربية أداة تخلف وانحطاط ، ويرونها غير قادرة على مواكبة علوم العصر وفنونه ، فيعملون على التخلص من العروبة ومن كل ما يربطهم بها ، فيلجأون إلى استخدام اللغات الأجنبية في أحاديثهم ، أو في بعض أحاديثهم ، لشعورهم بأنهم أقل علماً وحضارة من غيرهم ، وأنهم غير مقبولين عند أفراد مجتمعهم ، فيظنون أن معرفة اللغة الأجنبية تجعلهم متميزين في مجتمعهم ، وترفع مكانتهم عند أهلها ، كما تجعلهم الطبقة المثقفة والصفوة المتميزة التي يحلمون في الوصول إليها ، وهم في قرارة أنفسهم يدركون أنهم لن يحققوا رفعة أو مكانة عالية ، ويبقى فقدان الثقة في الذات مسيطراً عليهم في كل أعمالهم وسلوكياتهم .

الآثار السلبية للازدواجية والثنائية

يتضح مما سبق أن لهاتين الظاهرتين اللغويتين (الازدواجية والثنائية)آثاراً سلبية كثيرة تعم أرجاء المجتمع وجوانب الحياة المختلفة ، وشخصية الفرد وحياته. فالازدواجية اللغوية رمز للتفرقة والتباعد بين أفراد المجتمع الذين يشترط أن يسود بينهم الوئام والاتحاد والتعاضد ، فهي تعمل على تمزيق المجتمع إلى فئات متصارعة لا يربط بينها رباط اللغة المقدس ، فالازدواجية إذن عنوان الصراع الاجتماعي داخل المجتمع كما أنها معول هدم لمنجزات الأمة وأداة لتفتيت جهودها وتبديد طاقاتها كما أنها تقف عائقاً للفكر والإبداع إلى جانب إعاقتها للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية .
ويظهر تأثيرها السلبي على شخصية الطفل إذ تخلق منه إنساناً متردداً ، لا يستطيع تحديد ما يريد وغير قادر على اتخاذ القرار فهي تعمل على قتل كل إبداع لدى الأفراد ، لأن الإبداع لا يتأتى إلا لمن أتقن لغته الأم دون أن تشاركها في الإتقان لغة أخرى .كما أن الازدواجية عدو لدود للغة الفصحى ، فهي تعيق تعلمها لدى الناشئة لأنهم تعلموا العامية في بداية الأمر ، مما يجعلهم يجدون في الفصحى لغة أجنبية غريبة عنهم غير ما ألفوه ، لذا نجدهم يعزفون عن تعلمها ، مما يترتب عليه ضعف المستوى اللغوي لدى الطلاب والدارسين . إنها تحول دون انتشار العربية الفصحى خارج حدود الوطن العربي ، وهو الأمر الذي يطمح كل عربي مخلص إليه ، هذه الازدواجية خنق للفصحى وتكبيل لها في كل المجالات .أما الثنائية اللغوية فهي أشد عداوة وخطراً من الازدواجية اللغوية ، لأن ضررها يبدو واضحاً في الفرد والمجتمع ، فهي تؤثر سلباً في شخصية الفرد ، فيظهر عليه عدم الاستقرار النفسي ، كما يظهر في سلوكه الاضطراب وعدم الرضا عن كل ما

حوله ، ويغلب على شخصيته التردد والقلق وعدم الثقة ، فيجد نفسه إنساناً أقل مقدرة على الاستيعاب ، مما يترتب عليه ضعف في الذكاء ، وعدم القدرة على الإنتاج العلمي والإبداع الفكري ، كما أن انتماءه الثقافي يكون لغير ثقافته الأم ، إنه انتماء لثقافة الأمة التي تعلم لغتها على حساب لغته القومية ، فهو عديم الانتماء لأمته ووطنه ولكل ما له صلة بلغته الأم .

إن الثنائية اللغوية هي السبب الأول في هدم العربية الفصحى ، لأن الإنسان مهما بلغ من المهارة لا يمكنه إتقان لغتين إتقاناً تاماً فإذا كان هدفه إتقان اللغة الأجنبية لأمور نفسية أو اجتماعية ، فإن قناعته هذه ستعمل على إهمال الفصحى وبالتالي هدمها نهائياً.من هنا نقول إن العربية الفصحى تعيش الآن حصاراً قوياً ، فهي مقبوضة بين فكي كماشة ، لا تستطيع إفلاتاً منهما ، إنها محاصرة من قبل اللغات الأجنبية التي هي لغات الثقافة والعلوم والتقنية في هذا العصر ، هذه اللغات تضغط على الفصحى وتصارعها داخل المؤسسات التعليمية المختلفة من مدارس ومعاهد وجامعات التي تمكن اللغات الأجنبية من الانتصار على الفصحى ، وذلك بالسماح لهذه اللغات بمزاحمة الفصحى داخلها ، كما أن هذه المؤسسات تنيخ أطفال الأمة لتعلم هذه اللغات مما يترتب عليه إقصاء الفصحى عن مكانتها الأولى ، كما تسهم اللهجات المحلية أو العامية إلى جانب اللغات الأجنبية في محاصرة العربية الفصحى ، هي تصارع الفصحى وتقارعها خارج تلك المؤسسات ، إنها تصارعها في الحياة العامة للشعب العربي ، في البيت وفي العمل وفي الحقل وفي كل مكان . فإذا كنا نود أن تبقى العربية الفصحى هي الرباط الأقوى الذي يجمع شعوب أمتنا العربية فإنه يجب على أصحاب القرار في الأمة العربية أن يدافعوا عن لغتهم الفصحى حفاظاً على هويتهم وقوميتهم ووحدتهم ، لأن اللغة هي الرباط القوي الذي يجمع بين أفراد الأمة فيجب عليهم أن يعملوا على إحياء قناعات أبناء الأمة بأهمية اللغة العربية الفصيحة وبقدرتها على التعبير عن كل متطلبات العصر ، وقدرتها على استيعاب مصطلحات العلوم والثقافة والفنون ، وأن يعملوا على إقناعهم بأن اللغة الفصحى هي ذاتنا ، هي الرباط المقدس الوثيق الذي يربط بين أبناء أمتنا ، إنها وطننا الروحي الذي تكمن فيه عزتنا ومجدنا بل وكينونتنا ، الذي يجب علينا الدفاع عنه والمحافظة على بقائه في أحسن صورة ، كما يجب أن يسخروا كل وسائل الإعلام المختلفة لتوعية المواطنين بالأخطار المحدقة بلغتهم ، وأن يبينوا لهم ما يجب عليهم القيام به من أجل الدفاع عنها ، وعليهم بالعمل الجاد من أجل إيجاد المناخ المناسب لتحقيق هذا الغرض ، وأن يشنوا حرباً لا هوادة فيها ضد أولئك المروجين للعامية وغيرها من الدعوات الهدامة التي تدعو للنيل من الفصحى ومكانتها ، وتشكك في مقدرتها على مواكبة العلوم والفنون وفي صلاحيتها لهذا العصر ، ولابد من تهيئة النفوس لتقبل هذا الأمر وذلك بالجهد الصادق والعمل الدؤوب المخلص ، ووضع الحوافز والجوائز المناسبة لتشجيع استخدام الفصحى من الأفراد ،

وعلى أصحاب القرار أيضاً أن يفرضوا التعامل بالعربية الفصحى في كل المؤسسات التربوية والتعليمية أولاً ، ثم في غيرها من المؤسسات المختلفة ثانياً ، كما لابد من متابعة دقيقة صارمة لهذا التوجه الذي يقود في النهاية إلى استخدام الفصحى في كل جوانب الحياة .كما يجب عليهم أن لا يقدموا لأطفالهم في سني حياتهم الأولى لغات أجنبية إلا بعد أن يتقنوا لغتهم الأم التي يشترط لإتقانها عدم تعلم لغات أخرى ، ويجب ألا يفهم هنا أننا نحرم تعلم اللغات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك فنحن من دعاة تعلم اللغات الأجنبية لقناعتنا بأهمية معرفة اللغات ، وتحقيقاً لما أمرنا به ديننا الحنيف على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم " ، لكن يجب أن يكون تعلم اللغات الأجنبية مقنناً ولا يسمح به للأطفال دون سن العاشرة إلى الثانية عشرة كما أوصت بذلك الهيئات التعليمية والتربوية التابعة للأمم المتحدة .

المحاضرة العاشرة

التعريب ماهيته ، أهميته ، معوقات تحقيقه (١)

اللغة كائن حي ينمو ويتطور ويرتقي ، وظاهرة اقتراض الألفاظ من أهم لوسائل التي تعتمد عليها اللغة في تطورها وارتقائها ، وهي مطرودة في كل لغات البشر قديمها وحديثها ، وهي ما أطلق عليها العرب " التعريب " والاقتراض بين اللغات سنة حتمية لابد منها ، وأمر يقيني لا مفر منه ، ولابد من التأثر والتأثير والأخذ والعطاء بين اللغات ، فلا يمكن لأي لغة أن تمتنع من ذلك وتعيش في عزلة تامة عن غيرها ، لابد لها أن تحتك بغيرها من اللغات ، وإذا حصل هذا الاحتكاك وهو أمر لابد منه ظهر التأثر والتأثير واضحاً تماماً. إن التعريب قضية هامة ، لأنه رافد من روافد اللغة العربية ، يسهم في إثرائها من أجل مسايرة الركب الحضاري العالمي ، إضافة إلى أنه قد يكون منفذاً للعلماء والباحثين حين يستعصي عليهم ترجمة معنى جديد في أبحاثهم ومؤلفاتهم ، وحين يستغلق باب التعبير عن بعض المخترعات والمستجدات التي لا وجود لها في مجتمعنا . كما أن له مساساً كبيراً بحياتنا الاجتماعية وصلة وثيقة بمستجدات العصر العلمية والتقنية التي نحتاج إليها وقد شغلت قضية التعريب هذه علماءنا القدماء فحددوا مفهومها ووضحوا الحدود التي يجب الالتزام بها عند التعامل مع هذه القضية ، وأفادوا منها في التعبير عما يجد لهم من مسميات فحفظوا اللغة من الجمود والضياع ، وتمكنت العربية من التعبير عن كافة العلوم والفنون ، وصلحت لأن تكون لغة علمية عالمية أسهمت بدور هام في الحضارة العالمية .

ماهية التعريب

التعريب لغة :الإبانة والإفصاح . جاء في لسان العرب : الإعراب والتعريب معناهما واحد ، وهو الإبانة ، يقال :أعرب عن لسانه وعرب أي : أبان وأفصح وأعرب عن الرجل بين عنه ، وعرب عنه تكلم بحجته ، وعربه علمه العربية .

التعريب اصطلاحاً : تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول :عربته وأعربته . وهو نقل لفظ من العجمية إلى العربية ، والمشهور فيه التعريب ، وسماه سيبويه وغيره إعراباً.

عرف العرب التعريب منذ العصر الجاهلي ، وأفادوا منه كثيراً في تعاملهم مع الألفاظ التي وفدت إليهم من لغات الأمم التي احتكوا بها ولم يكن بإمكانهم تجاهل هذه الألفاظ أو طردها من لغتهم والاستغناء عنها لأنها تعبر عن حاجات جدت لهم ، فكان لزاماً عليهم أن يقبلوها في لغتهم .ونهجوا في تعريبهم لتلك الألفاظ نهجاً معيناً ، إذ كانوا يخضعونها لعمليات لغوية مناسبة كالزيادة أو الحذف أو التغيير في الحروف أو الحركات ، حتى تتلاءم مع لغتهم ، ويسهل عليهم استعمالها والنطق بها نطقاً صحيحاً يتناسب وطبيعة العربية ، وهذا ما أشار إليه الجواليقي بقوله :"اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً. فالقدماء فهموا من التعريب نقل اللفظية الأعجمية إلى العربية مع إجراء بعض التعديلات رأوا ضرورتها لتتوافق هذه اللفظية مع القواعد الصوتية والصرفية والنحوية في اللغة العربية لأنها "لغة إذا دخلتها كلمة أجنبية عنها ، قلق موضعها ، حتى تأخذ وزن كلمات اللغة وهيئة حركاتها ، لتشاكلها وتماثلها وتألف معها ، لذلك نراهم يشذبون الكلمات الأعجمية الطارئة التي لم تأت على أوزان العرب ، بالحذف والإبدال حتى تلائم الأسلوب العربي ".

ويمكن القول أن التعريب عند القدماء كان محصوراً في الألفاظ من حيث الشكل والمبنى ، فقد كان جل همهم منصباً على الأصوات ، وهذا عمل هام وخطوة جادة على طريق التعريب ، إذ أن تعريب المادة الصوتية من أهم مراحل تعريب الألفاظ ، حيث أن ذلك يبقى للغة أصواتها الأصلية دون أن يظهر فيها ما قد يشوه طبيعتها الصوتية ، فتبقى بوجهها المألوف وطبيعتها المتعارف عليها ، بل إن تعريب الألفاظ لن يكون عسيراً إذا تم تعريب الأصوات . وقد أشار صبحي الصالح إلى هذا بقوله :"والعربية – على اتساع مدرجها الصوتي – ازدادت سعة على سعة يوم أدخلت بين حروفها الهجائية أصواتاً تقاربها مخرجاً أو صفة ، إذ عربت هذه الألفاظ الدخيلة ، وحددت لها مواقعها من جهاز النطق ، فلم يستعص على ألسنة العامة فضلاً عن الخاصة ، فقطع بذلك الشوط الأول من التعريب : ألا وهو تعريب المادة الصوتية ، وتطيعها لأصوات العربية . ولا ريب في أن هذا الشوط من تعريب

الأصوات هو أهم الأشواط ، فمن بعده لن يكون عسيراً أن تعرب الكلمات الدالة على مفهوم حضاري معين ولم تقف عملية التعريب عند هذا الحد ، بل امتدت لتشمل تلك المرحلة من الترجمة ، التي ترجمت فيها علوم الأمم الأخرى وفنونها ، وكانت اللبنة الأولى في بناء الحياة العلمية العربية.ويمكن القول أن عملية التعريب عند القدماء نجحت نجاحاً باهراً ، وزودت اللغة العربية بكل ما احتاجت إليه من الألفاظ والمصطلحات ، وقد استوعب العرب هذا الأمر وهضموه وتمثلوه فأصبحت لغتهم بذلك لغة العلم والحضارة في العالم أجمع. ومن أهم أسباب نجاح التعريب في ذلك الوقت اعتزاز العرب بلغتهم التي هي لغة القرآن الكريم ، فأيقنوا أن الحفاظ عليها والعمل على تطويرها ونشرها أمر هام وضرب من التعبد ، إضافة إلى ذلك فقد توفر للعلماء كل وسائل التعريب ، فتوفر لهم المادة العلمية من الكتب والمخطوطات التي حرص الخلفاء والأمراء على توفيرها ، وأغدقوا الموال من أجل تحقيق هذه الغاية ، ونتج عن ذلك إقبال العلماء والأطباء والفلاسفة والمترجمين على العمل في هذا المجال من أجل الإسهام في تنمية العربية والنهوض بها.أما في العصر الحديث فقد اختلف الحال، واختلفت المفاهيم في هذه القضية ، فبعد الاستقلال وجد العرب أنفيهم متخلفين في ركب الحضارة العالمي ، فهب المخلصون يتلمسون سبل الارتقاء بالأمة ، فعملوا على النهوض بالعربية إيماناً منهم بأن اللغة هي أساس كل تطور ونهضة ، ولمسوا أنهم في مسيس الحاجة إلى مواكبة الركب الحضاري ، وأن لغتهم تفتقر افتقاراً شديداً إلى المصطلحات العلمية والتقنية ، وأن التعريب لا غنى عنه من أجل توفير هذه المصطلحات . وأدركوا كذلك أنهم يخوضون صراعاً مريراً مع مخلفات الاستعمار ، وما حاول جاهداً ترسيخه في ثقافة الإنسان العربي ، فعمدوا إلى مقومة هذه المفاهيم وأفادوا من خصائص العربية كالاشتقاق والقياس والنحت والترجمة وغيرها.والحق أن مشكلة التعريب هي مشكلتنا في هذا العصر ، إذ أصبح التعريب ضرورة ملحة لبناء الأمة وأساس نهضتها "فقد أصبح من المسلم به كنتيجة لإجماع الآراء أن التعريب ضرورة لبناء الأمة العربية ، ومن المرتكزات الأساسية لنهضتها". ولم يقتصر التعريب في هذا العصر الحاضر على الألفاظ ، بل أصبح له كثير من الجوانب الفنية والاجتماعية والسياسية ، لأن كل عالم ينظر إليه من الزاوية التي تهمه ويرى أنها الأجدى في نهضة الأمة ، فلفه الإبهام والغموض وعدم الوضوح مما ترتب عليه عدم المقدرة على تحديد مفهومه بدقة ووضوح . فتعددت دلالاته وتشابكت معانيه ، نظراً لتعدد القضايا وتشابك المصالح ، فأصبح ينظر إليه نظرة شمولية واسعة ذات أبعاد فلسفية معينة لا تقتصر على تعريب الألفاظ فقط .

دلالات التعريب

تراوح حديث العلماء عن التعريب بين عدد من المفاهيم ، فلم يقتصر معناه ومفهوم على التعريب اللغوي وتدخيل الألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية ، بل تعدى هذه الدائرة إلى مفاهيم أوسع وأكثر شمولية ، فهو نابع من إرادة جماهير الأمة ويعكس طموحاتها وآمالها في الانعتاق من التقليد والتبعية ، ويفتح الطريق أمام بناء الدولة العربية الموحدة المعاصرة ، ويسهم بدور كبير في القضاء على التبعية الثقافية التي لا تزال الأقطار العربية تعاني منها، هذه التبعية تقف حائلاً أمام كل تقدم فكري أو حضاري في حياة أمتنا ، كما أنها كرست ولا تزال تكرس في نفوس أبناء الأمة قصورهم عن الإبداع والخلق والابتكار ، مما أدى إلى شبه قناعة لدى المواطن العربي بأنه دون غيره من أبناء الأمم الأخرى ، وربما استقر في ذهنه أنه لايمكن أن يكون مبدعاً ، وعليه ان يظل مستهلكاً . وهذا يعني أنه يجب العمل على تحرير التفكير العربي من كل القيود والمفاهيم الزائفة من أجل بناء الأمة العربية المعاصرة ، وخلق جيل متحرر الفكر ، معرب التفكير ونمط الحياة ، واثق من نفسه ومقدرات أمته .وهذا يعني أن التعريب لابد أن يمس الحياة العربية بكل جوانبها وبكل أبعادها ، اجتماعياً وثقافياً وفكرياً وقومياً حتى يكون "الشمول صفة أساسية من صفات التعريب باعتباره قضية قومية مشتركة ".

معاني التعريب ودلالاته عند كمال بشر

وقد حدد كمال بشر معاني التعريب ودلالاته كما يلي :

إخضاع النصوص والأعمال الأجنبية – علمية أو أدبية أو فنية – لشيء من التصرف في مبناها ومعناها وذلك بتطويعها لمقتضيات الظروف وأنماط التقاليد الاجتماعية والثقافة العربية ، وجعلها ذات سمة عربية في الإطار العام . فدلالة التعريب هنا تدل على الترجمة العامة للأفكار في العمل الأجنبي ، أو فهم المضمون العام لتلك الأعمال الأجنبية وتهذيبها بما يساير الذوق العربي والحياة العربية ، وذلك بالتخلص من النصوص والأمثلة الواردة في تلك الأعمال التي تتنافى مع القيم والمبادئ العربية والإسلامية ، واستبدالها بما يفيد الغرض ويناسب الواقع الاجتماعي والخلقي للحياة العربية ، أي أن نأخذ الأفكار الرئيسية من الأعمال الأجنبية أو نقتبسها منها ثم نبني عليها.

الترجمة : وهذه الدلالة غير دقيقة لأن الترجمة نقل للمعاني لا للألفاظ ، أما التعريب فيتعامل مع الألفاظ وينقلها إلى العربية ، أو إبقائها كما هي في أصلها الأجنبي ، فلا دخل للتعريب في المعاني.تطويع الألفاظ الأجنبية بردها إلى الصور العربية صوتياً وصرفياً ، وهو ما يفهم منه تعريب المصطلحات العلمية والفنية والتقنية .تحويل الجامعات والكليات الجامعية والمعاهد العليا التي تضم مئات الأقسام العلمية من التدريس باللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى التدريس باللغة العربية ، واعتماد اللغة العربية لغة

التدريس الجامعي والبحث العلمي والتقنيات الحديثة . وهذا يعني التخلص من الثنائية اللغوية التي لا تزال تهيمن على الجامعات والمعاهد العلمية في الوطن العربي . إلى جانب ذلك فإن التعريب يعني كذلك : تعريب مؤسسات كل دولة من الدول العربية ، وجعل العربية الفصحى وسيلة التفاهم والتخاطب والمكاتبات في كل الدوائر، إضافة إلى تعميم هذه الفصحى لتشمل كل مناحي الحياة المختلفة .فالتعريب بهذا الفهم هدف استراتيجي يمكن أن يطلق على عدة قضايا ومفاهيم كلها تنصهر بوتقة واحدة ، وتمس جوانب الحياة العربية كافة ، فهو يعني الشمولية لكل مناحي الحياة في المجتمع العربي ، إضافة إلى أنه مقوم أساسي من مقومات الأصالة الثقافية عند العرب ، ومن هنا يمكن القول إن التهريب ذو جانبين : جانب لغوي يتركز حول اللغة وقضياها المختلفة ، وجانب اجتماعي يتصل بكل جوانب الحياة الاجتماعية.

التعريب اللغوي

إن أول ما يعنيه التعريب اللغوي هو أن تسود العربية الفصحى مناحي الحياة العربية كافة ، وأن يعم استعمالها كل أبناء الوطن العربي في أقطارهم المختلفة ، فقد عمل المستعمر على محاربة الفصحى بكل الطرق والوسائل ، وزرع الشك في نفوس أهلها ، وإقناعهم بأنها لغة العصور الوسطى ، وهي ليست إلا لغة عاطفة وخيال ، لا تصلح للتعبير عن القضايا العلمية والمبتكرات التقنية ، كما أنها لا يمكن أن تصبح لغة علمية يعتمد عليها في تسجيل الاختراعات والابتكارات ، إيماناً منه أن أية أمة لا تنهض إلا من خلال لغتها القومية ، لأن اللغة هي أداة الإبداع وأساس التفكير والترابط بين أفراد المجتمع ، فإذا كانت اللغة مشوشة مهمشة كان الفكر الناتج عنها مشوشاً هامشياً. وقد أدرك الزعماء السياسيون في العالم أهمية اللغة القومية في توحيد أبناء الوطن ، والتفاهم حول الأهداف التي ينادون بها ، كما آمنوا بأن أي تغيير داخل المجتمع لا يكون إلا بلغته القومية ، فإذا كنا في الأمة العربية نطمح إلى التطور الفكري والثقافي فإنه يتحتم علينا أن ننظر إلى لغتنا باعتبارها أهم الأسس التي يبني عليها هذا التطور ، ولابد من العمل على حمايتها وتطويرها .هنا تكمن أهمية التعريب الذي يعني بهذا الفهم استعمال اللغة العربية في كل شؤون الحياة وتسويدها عند أبناء الأمة كلهم ، وخلق وترسيخ الانتماء إليها ، والعمل على إتقانها ، وخلق شعور الاعتزاز والفخر بها ، وتكريس الفهم بأنها أساس الوحدة العربية المنشودة ، كما أنها هي التي خلقت هذه الوحدة ، وحافظت عليها أمام كل محاولات التجزئة والتقسيم لكيان هذه الأمة ، فكل " شعور بوحدة الأمة العربية مرتبط أصلاً برباط اللغة التي هي الجامع الأساسي بين أفراد الأمة ".

وإذا كنا ندرك أهمية التحرر الثقافي وضرورته ،وإنهاء حالة التبعية الثقافية التي تعيشها أمتنا فلابد لنا من العودة إلى لغتنا والعمل على تطويرها لتصبح لغة علمية عالمية .إن من أهم أسباب تخلفنا العلمي والتقني وتبعيتنا الثقافية إهمالنا للغتنا ومحاولات الحط من شأنها ، ونزع الثقة بها ، مما جعلها تتراجع أمام هذا الإهمال وفقدان الثقة حتى اتهمت - ظلماً- فيما بعد بالقصور والجمود . فإذا أردنا القضاء على هذه التبعية فلابد من التعريب لأنه نابع من إرادة الجماهير ، وكفيل بأن يخلصنا من التبعية الثقافية التي نعيشها . كما يجب علينا العمل على ربط ماضي الأمة بحاضرها ، وهو ما يبعث فينا وفي أجيالنا القادمة الفخر والاعتزاز ، ويخلق لدا كل منا الثقة بأمته ومقدرتها على العطاء الحضاري ، وسيكون هذا بمثابة القوة الدافعة لكل فرد منا على الإبداع والخلق والابتكار ، فالإبداع لا يكون من الفراغ ولا يأتي فجأة وبدون مقدمات ، بل لابد له من أصول ينتمي إليها وجذور تغذيه ، كما أن الإبداع لا يكون إلا باللغة الأم ،إذ يجب على المبدع أن يكون فكره نقياً صافياً مركزاً ، وهذا لا يكون إلا إذا كان "المبدع موائماً بين فكره ولسانه ، وأن يكون اللسان ترجماناً آلياً للفكر ، لا أن يصرف المفكر قسماً كبيراً من وقته في ترجمة فكره بلغة لسانه إننا في أمس الحاجة إلى الوعي بذاتنا العربية ، وبعث الوعي في جوانب حياتنا التي نريدها مرتبطة بماضينا التليد الذي نستمد منه القوة على البناء والعطاء ، ولابد أن نعي واقعنا ماضياً وحاضراً كي نستطيع أن نرسم صورة حقيقية للمستقبل المنشود.

إن من أهم جوانب هذا الوعي أن يعي الإنسان العربي ذاته وعياً دقيقاً صادقاً ، وأن يعرف من هو ، وأن يقف من العالم اليوم . إن الوعي اللغوي بكل أبعاده والفهم الحقيقي لأهمية اللغة ودورها هو بداية الوعي الحقيقي للذات ، لأنه يحدد شخصية الفرد وانتماءه " فالأمة العربية اليوم في حاجة إلى بعث الوعي العميق لكل جوانب أصالتها ، وأن أول خطوات هذا الوعي أن يعي الإنسان العربي ذاته ، ووعي اللغة في معنى من معانيه وعي للذات ، وإن الجامعات وهي مركز الإشعاع الفكري الحر مدعوة إلى بعث هذا الوعي اللغوي ورفع شعار النهضة اللغوية ، وبيان الحاجة الماسة إليها ، والعمل على توفير أسبابها ، وإعلان أن أية دعوة إلى بناء المجتمع العربي تبقى بتراء ناقصة إذا لم يكن من همها رعاية اللغة ، والعمل على صيانتها ونمائها ومدها بما يكفل مواءمتها للتطور العلمي السريع الذي نشهده اليوم

التعريب الاجتماعي

إن إتمام عملية التعريب اللغوي لا يعني أننا قد تغلبنا على المشاكل والعقبات التي تحد من تطور حياتنا اللغوية وتحول دون تحقيق النهضة العربية الشاملة . فهذا الجانب من التعريب قاصر عن تمثيل الدور الحضاري الذي نريده ، وعن تحقيق الطموحات التي نصبو إليها ، وهو غير قادر على

إخراجنا من دائرة التبعية الثقافية وتقليد الأمم الأخرى . ولا يتحقق ما نريد إلا بإكمال الشق الثاني من التعريب وهو التعريب الاجتماعي ، فإذا أردنا تحقيق هذا الشق من التعريب ، فلابد من دراسة مجتمعنا – بكل جوانبه – دراسة دقيقة واعية ، والغور إلى نفسيات المواطنين ومعرفة طرائق تفكيرهم والمؤثرات التي تؤثر فيها ، فإذا عرفنا تلك المؤثرات ، عرفنا الصعوبات التي تحول دون نمو اللغة وتطويرها.إن من أهم الجوانب السلبية في هذا المجال سيطرة سلطان اللغات الأجنبية على عقول قطاع واسع من المسؤولين في الوطن العربي ، وهو ما أدى على تقديس تلك اللغات ، حتى أصبح كثير من هذا القطاع يحاول جاهداً أن يطوع اللغة العربية لمعايير اللغات الأجنبية ومقاييسها ، ويخضعها لقوانينها ، متناسياً أن لكل لغة طبيعتها المستقلة الخاصة التي تميزها عن غيرها من اللغات .

إلى جانب هذا الفهم هناك مركبات النقص (عقدة الخواجا) التي تسيطر على شعوب الدول النامية ، وتجعلهم يؤمنون بتفوق المستعمر الأجنبي ، وأنه وحده هو القادر على تطوير المجتمعات وقيادتها إلى حياة أكثر تقدماً ورقياً وحضارة ، لأنه في نظرهم هو الأكثر حضارة والأعظم رقياً والأعمق فكراً ، وهو وحده الذي يستطيع الإبداع والابتكار ، كل هذا جعل مواطن الدول ينظر إلى كل ما هو أجنبي نظرة إعجاب وتقدير ، مما ينعكس سلباً على مبادئه وقيمه ، فلا زلنا ننظر إلى الذين تلقوا تعليمهم في جامعات أجنبية نظرة تعظيم وإكبار لوهمنا أنهم أكثر قدرة وكفاءة من الذين تعلموا في الجامعات العربية ، حتى أن الحكومات والمسؤولين العرب ينظرون إلى المتخرج في الجامعات الأجنبية (الأمريكية والأوروبية) نظرة أكثر ثقة من نظرة الذي تخرج في الجامعات العربية ، وتقدمه عليه في المراكز والوظائف ، مما ينعكس سلباً على ثقة المواطن العربي بإنتاج بلاده وجامعاتها وعلمائها ، ولعل المؤسسات التي تفرق بين هذين الخريجين لها الدور الأكبر في ترسيخ هذه المفاهيم لدى الجمهور ، وهي التي تعمق مركبات النقص في نفسه وذاته.فإذا كنا مصممين على إنجاح التعريب ، وجب علينا مقومة هذه المفاهيم وإلغائها من عقول أبناء الأمة ، والعمل على خلق الثقة في نفس المواطن العربي وإقناعه بأنه هذه المفاهيم من بقايا الاستعمار ومخلفاته التي لا يزال ربائبه وأعوانه يعملون على ترسيخها لدى أبناء الأمة ، فلابد من إقناع المواطن بزيف هذه الإدعاءات ، وبأن أمتنا قادرة على بناء النهضة الحضارية كما حصل مثل هذا إبان عصور الازدهار الإسلامية ، وأنها ليست بحاجة إلى من يساعدها في هذا الأمر ، وأن نهضة الأمة الحقيقية والأصلية هي التي تنبع من داخلها وبهمة رجالها وإبداعات علمائها وابتكاراتهم ، لذا وجب العمل على مسح الأفكار التي أدت إلى تكوين مركبات النقص هذه ونزعت الثقة من النفوس .

إن هذا التوجه هو البداية الحقيقية لإنجاح عملية التعريب ، لأنه الطريق الوحيد لتعريب الإنسان العربي ، فإذا تعرب الإنسان فإن عملية التعريب يتم

إنجازها بسهولة ويسر.ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن تعريب التعليم في كل مراحله من أهم جوانب التعريب ، التي يجب العمل على تحقيقها ، وإن عدم تحقيق التعريب الجامعي يعني أن أمتنا لا تزال ناقصة السيادة ، لأنها غير قادرة على الاستغناء عن الخبرات الأجنبية في العملية التعليمية ، وأن التنشئة الفكرية للأجيال القادمة ستكون ناقصة لأنها ليست عربية الأداة . فتعريب التعليم يعني الانعتاق من التبعية ، الثقافية واستكمالاً للسيادة القومية ، والتحرر الكامل من كل روابط الاستعمار ووشائجه "إن تعريب التعليم جملة وتفصيلاً والعالي بخاصة هو استكمال للاستقلال ورفض للتبعية الثقافية واللغوية ، أو لبقاياها وترسباتها ". كما أن عدم تعريب التعليم يعني أن لغتنا عاجزة عن التعبير عن متطلبات العصر و مستجداته ، وهي غير قابلة للتطور والتجديد "إن التعليم بغير اللغة العربية ذو أثر خطير في اللغة نفسها فهو يعزلها عن العلم وعن التطور والتجديد ، فإذا هي بالفعل عاجزة وقاصرة كما أن بقاء التعليم باللغات الأجنبية ذو أثر نفسي على طلابنا ، إذ يشعر الفرد أن العربية غير صالحة للعلم والحضارة والمستقبل ، إذ لو كانت صالحة لذلك لوجب استخدامها لغة العلم ، وهذا ما يجعلهم مقتنعين بضرورة إحلال لغة أخرى محل العربية .إن دول العالم اليوم تحرص على لغاتها القومية ، وتعتز بها ، وتعمل على تطويرها ، وتوجب كل دولة لأن يكون التعليم في مراحله المختلفة باللغة القومية ، حتى أن هذا الموضوع أصبح مقراً في منظمات الأمم المتحدة ، فمنظمة اليونسكو ترى ضرورة هذا الأمر ، وتشجع الدول على استعمال لغاتها القومية في التعليم ، لأن الطالب الذي يدرس بلغته القومية يبز نظيره الذي تقدم له مواد الدراسة بلغة أجنبية ، فالأول يقرأ ليفهم ، والثاني يقرأ ليترجم ثم يفهم ، إنه يبذل جهداً أكبر، ووقتا أطول من نظيره ،"فالطالب الذي يتلقن العلوم بلغته القومية الطائعة لمعطيات فكره ، يبز الطالب الذي يناخ لألفاظ في اللغة لم يتسلمها فطرة من أجداده ، هذه اللغة التي تجبر لسانه ودماغه على مزاولتها تصبح قيداً لأفكاره لا فضاءً حراً فسيحاً يخترقه ، تصبح سبب وجود عقدة نفسية مخربة لكيانه المعنوي انطلاقاً من هذا الفهم لأهمية اللغة ، واعتماداً على هذا الأساس عمل كثير من الدول على إحياء لغتها القومية وتطويرها وجعلها لغة العلم والبحث العلمي ، كما حصل في الكيان الغاصب لفلسطين الذي أحيى اللغة العبرية التي كانت في عداد اللغات الميتة وجعلها لغة العلم في جميع مراحل التعليم .

أهمية التعريب

لم يعد التعريب مقصوراً على الجانب اللغوي فقط ، واتضح "أن الذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية فقط يجردونه من مضمونه ومن حقيقته" لأنه أصبح ذا صفة شمولية تغطي جوانب الحياة المختلفة داخل المجتمع العربي ،

ولم يعد مقصوراً على المصطلحات والمعاني فقط ، إنه مسألة تفكير أولاً وقبل كل شيء ثم مسألة تعبير ، فكل لغة تعكس صورة صادقة لحضارة أمتها وثقافتها ، وتعبر عنهما تعبيراً أميناً ودقيقاً ، ولكل لغة أسلوبها المميز في طريقة التفكير وكيفية التعبير عنه ، وهذا ما يجعل للتعريب أهمية كبرى تتناول جوانب الحياة العربية كلها . إن التعريب بهذا المفهوم يعني أول ما يعنيه تعريب الإنسان العربي الذي ضعف انتماءه لهذه الأمة بفعل كثير من العوامل والممارسات الاستعمارية ، ووصل إلى شبه قناعة بأن الانتماء للعروبة يعني شيئاً من الانحطاط الفكري والتخلف الحضاري ، من هنا كان لابد من العمل على أن يعي هذا الإنسان ذاته ، وأن يثق بنفسه وبأمته ، كما يجب أن يتصف بصدق الانتماء وعمقه لهذه الأمة ، وأن يقر في ذاته ووجدانه أن الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس ، وأن يجري حبها في عروقه ، ويلتزم الدفاع عنها ، وعن مقدرتها بكل الطرق والوسائل ، وأن يكون حبه وإخلاصه لأمته تاماً مطلقاً لا تشوبه أية شائبة ، عندئذ يزدهي بنفسه وأمته و ويفاخر بانتمائه لها ،وهذا ما يخلصنا من مركبات النقص وعقده .إن قناعة الإنسان العربي بهذه المفاهيم ، وإدراكه أن لغته هي ذاته وعنوانه وممولـه الفكري ، وأن شخصية الأمة واستقلالها السياسي الحقيقي وسيادتها الكاملة تأبى إلا أن تكون لغتها هي لغة الحياة ، لغة التعلم والبحث العلمي ، وهو ما يقود إلى إنجاح عملية التعريب في كل مراحل التعليم .

إن نجاح عملية تعريب التعليم سيؤدي إلى تعريب الفكر، لأن تعريب العلم هو تعريب للفكر والتفكير ، فالفكر هو الجوهر الأساسي في هذه العملية ، فعلينا أن نعمل على تنمية الفكر العربي وتعميقه حتى لا يوصف بالسذاجة والسطحية والهامشية ، وتتم هذه التنمية وذلك العمق باكتساب الخبرة وبمد الثقافة وتعميقها ، فانتشار الثقافة واتساع ميدانها وعمقها سيؤدي حتماً إلى عمق التفكير ونموه وهو ما يؤدي إلى المقدرة على الخلق والإبداع .

عن تعريب الفكر سيؤدي إلى هضم ما أخذه العرب عن غيرهم من العلوم والفنون ثم تمثله تمثلاً صحيحاً قادراً على العطاء والإبداع الذي نسعى إليه "لأن الإبداع والابتكار لا يتولدون إلا بعد تمثل صحيح للمعطيات ". هذا الجانب من التعريب "الفكري" سيعزز ثقتنا بأنفسنا ولغتنا ، ويحثنا على الكتابة بلغتنا العربية ، من أجل تأمين الغذاء الفكري الكافي لأبناء الأمة ، هذا الغذاء هو الذي سيسهم في ملء الفراغ الفكري القاتل الذي يعاني منه معظم الشباب في أرجاء الوطن العربي .إذا تحقق تعريب العلم والفكر فإنه سيقودنا إلى تعريب الثقافة ، أي تعريب كل جوانب المعرفة في المجتمع العربي ، فتصبح ثقافتنا نابعة من حياتنا الاجتماعية ، من مورثنا العلمي والحضاري ، وما يتلاءم مع معتقداتنا وتقاليدنا وتراثنا ، وسيصبح كل ما يقرأه المواطن من إنتاج العقل العربي ، بتعبير آخر أن تكون ثقافتنا ذات جذور تضرب في أعماق تاريخنا ، ثقافة أصيلة عريقة ، بعيدة عن التقليد والاستعارة والتكرار لما عند الأمم الأخرى ، ثقافة مستقلة لها شخصيتها التي تميزها عن غيرها

من الثقافات . التعريب الثقافي يعني التحرر الكامل من ثقافة المستعمر بكل أشكالها وأدواتها ، وهو يعني التخلص التام من التبعية الثقافية التي تسلب الأمم والشعوب التي تصاب بها المقدرة على التفكير الحر الأصيل الإنتاج العلمي الحقيقي ، لأن الأمة التي تعيش حالة من التبعية الثقافية لا يمكنها التفكير والعمل والإنتاج العلمي إلا من خلال عقول الآخرين وبأيديهم ، كما أن المجتمع التابع ثقافياً مجتمع معدوم الثقافة ، مسلوب الإرادة ، مسلوب القيم والعادات والتقاليد الأصيلة التي ورثها عن أجداده ، فهو كالإنسان المسلوب العقل المكتوف اليدين ، أو كالطفل القاصر الذي يحتاج إلى كل شيء ، يحتاج إلى من يرعاه ، ويفكر له ويعمل له ، هذا المجتمع قاصر لا يمكن أن يخطو إلى الأمام لأن إنتاجه سطحي مزور ، "فالأمة التي تأخذ بثقافة أجنبية تجد نفسها حتماً مجبرة على أن تتكيف روحياً مع خصائص تلك الثقافة ومع طبيعتها ، وهو أمر يتعذر عليها تحقيقه اللهم إلا إذا قبلت حالة الاستلاب الزائفة يرى البعض أن القبول بالتبعية الثقافية خلال هذه الفترة من تاريخنا الثقافي أمر لا يشكل أي ضرر على مستقبل أجيالنا الثقافي ، شريطة أن تكون هذه المرحلة مرحلة انتقالية إلى أن يتسنى لنا الخروج من مجالات الثقافات الأجنبية ، لأننا في هذه المرحلة قاصرون عن القيام بهذا العبء دون مساعدة خارجية ، إن هذا التصور لمرحلة ثقافية انتقالية وهم فاضح لأن "من الخطر الكبير من أية جهة كانت أن توجد نهجاً ثقافياً تكون فيه التقنية مقطوعة عن اللغة القومية إن القول بقبول ثقافة انتقالية يهدف إلى بقاء هذه الأمة تدور في فلك الدول الأجنبية ، وربما أصبحت هذه الفترة الانتقالية أمراً واقعاً ، إذ ربما تطول تلك الفترة ،ويستقر الوضع، ونتخذه أساساً لتعاملنا وفهمنا لحقائق الأمور والمعطيات ، بل ربما لا نستطيع العودة عنه ونرضى به أمراً واقعاً "فإذا رضينا بالتبعية الثقافية المقررة لفترة وقتية محددة في أهدافها يمكن أن تتحول تلك الفترة و إلى وضع عادي بعد أن كان في الحسبان أنها مرحلة انتقالية ، ويترتب على هذا الموقف أن يصير وضعاً لا رجعة فيه هذا الجانب من التعريب ، الذي ينصب على الجانب الثقافي في حياتنا هو أساس بناء ثقافة عربية أصيلة مستقلة ، وهو جدير بالاهتمام من قبل المسؤولين مالكي القرار في الوطن العربي ، وهو يحتاج إلى دراسة دقيقة وتخطيط سليم ووضع الأسس الكفيلة بإنجاحه ، كما يجب العمل على توفير كل المستلزمات والاحتياجات لتحقيق هذا الغرض ، كإنشاء دور الكتب والمكتبات العامة التي تضم كل أنواع العلوم والمعارف ، فالباحث يعتمد في تكوينه على توفره مكتبات بلده من الكتب والمؤلفات ، وما يبدعه علماء أمته من العلوم والفنون ، وما ينقلوه عن اللغات الأجنبية ، فمن هناك وجب أن يكون في هذا الوطن مكتبات متطورة مزودة بكل أنواع التكنولوجيا التي تسهم في توفير الجو العلمي وتوفير الجهد والوقت لكل الباحثين ، إضافة إلى ذلك يجب العمل على إنشاء دار للمخطوطات وجمع المخطوطات العربية الإسلامية المتناثرة في أرجاء العالم وترميمها

وإصلاحها ثم تحقيقها ونشرها ، كما يجب إنشاء دار للترجمة والتأليف على غرار "بيت الحكمة" وتزويدها بما تحتاج إليه من الكتب التي تكون الحاجة ماسة إلى ترجمتها ، وكذلك تشجيع العلماء والمترجمين المحترفين وإغداق الأموال عليهم "إن التعريب العلمي والثقافي يحتاج إلى تخطيط وتنظيم من الدولة ، وإلى تخصيص موارد مالية له ، وهذه العملية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجمع الكتب وتأسيس المكتبات العمومية ، وباستقدام العلماء والمترجمين الذين يتقنون لغتين فأكثر بالإضافة إلى امتلاكهم قاعدة من المعرفة في العلوم التي يترجمونها إن من أهم ما يحول دون تحقيق التعريب الثقافي العقبات المادية المتمثلة في تغطية نفقات الترجمة ، وشراء حقوق الطباعة والنشر، وهذا بدوره يسهم في تشويه عملية الترجمة والتأليف ، وينتج عنه كون ما يترجم أو يؤلف ليس في المستوى المطلوب ، فلابد من إنشاء هيئة عربية للرقابة العلمية ، يخضع لها كل ما يؤلف أو يترجم ، فإذا كان هذا الكتاب أو ذاك المؤلف تعوزه الدقة في الترجمة أو التأصيل في التأليف منع من الطباعة والنشر، نحن اليوم نعيش حالة من عدم الالتزام بالدقة والموضوعية في الترجمة والتأليف ، إضافة إلى عدم مراعاة حاجة المجتمع من الكتب والمؤلفات ، كذلك حاجة الفرد من الغذاء الفكري الذي يصقل مواهبه وقدراته. كثير مما نتجه اليوم من الترجمات والمؤلفات لا تفي بالغرض ولا تروي ظمأ المتعطشين للعلم والمعرفة ، فهي ليست ذات قيمة علمية ، بل إنها لا تزيد عن نقول مبتورة من هنا وهناك ، وترجمات مشوهة لا تعبر عن روح النص المترجم ، ولا غرض لها إلا الكسب المادي فقط ، فهم الكاتب أو المؤلف رواج ما يكتبه عند الجمهور دون النظر إلى فائدته ، فهو ينشد الربح المادي فقط . من هنا ندرك أهمية الترجمة الرصينة والتأليف العميق الجاد ، كما ندرك خطورة التسيب في الترجمة والتأليف ، لذا كان لابد من إنشاء هيئة للرقابة تقوم بتحديد الكتب المراد ترجمتها ، وتحديد الأشخاص الذين يسمح لهم بالترجمة وفق شروط ومعايير خاصة تحددها تلك الهيئة ، حتى يمكننا أن نصحح مسار الترجمة ، ونتخلص من الوضع السائد الآن ، فكل شخص يترجم ما يشاء وكيفما شاء ، همه الأول والأخير الكسب المادي ، فمثل هذه الترجمة تحكمها الأغراض الشخصية ولا تأبه لمصلحة المجتمع . فكثير من المترجمين لا صلة لهم بالترجمة ، وليسوا أهلاً لها ، وغير أمناء على ما يترجمون ، فقد يخرج أحدهم لهم إلا التسلية وقتل الوقت فيما لا يفيد "إن إهمال التعريب الثقافي ، أو بعبارة أدق تركه تحت رحمة التجار وقوانين السوق "العرض والطلب " كان له نتائج سيئة ستظهر خصوصاً في انحطاط مستوى الإنتاج ، حيث إن المترجم ودار النشر التي يهمها في المكان الأول رواج العمل المترجم والحصول على الربح السريع سيتجه في اختياره إلى تملق الجماهير وسد حاجتها إلى التسلية وتزجية الوقت ".

المحاضرة الحادية عشرة

التعريب ماهيته ، أهميته ، معوقات تحقيقه (٢)

معوقات تحقيق التعريب :

للتعريب رسالة هامة تكمن في تخليص النفس العربية من كل الشكوك التي رسخها أعداء الأمة في نفوس أبنائها ، فقد أصبح فريق من أبناء الأمة يبحث عن كيفية التخلص من العروبة والانتساب إلى العرب وكل ما يربطه بهم وبلغتهم . فثار على كل القيم والعادات والتقاليد ، مدعياً أنها قيم بالية ، وعادات قبيحة ، وتقاليد مهترئة ، لأنه اقتنع برفض كل ما على العربية وعزا لها التخلف والجمود وعدم القدرة على مواكبة روح العصر ، ونسب إليها سبب التأخر الذي تحياه الأمة العربية . ومن هنا دأب على العمل من أجل الخلاص من اللغة العربية ، ويحاول استخدام أية لغة أجنبية تقوده – بزعمه – إلى أن ينتسب إلى مجتمع راق متفتح ، ليس لسلوكيات أهله حدود أو ضوابط ، فكل شيء فيه مباح ، ويمكن للمرء في هذا المجتمع فعل ما يريد ، وغاب عنه أن "أية لغة أجنبية إذا أخذت بها الطبقات الأكثر نفوذاً في المجتمع ، سواء في تعلمها أو استعمالها فسوف لن ينظر إليها كلغة أجنبية ، وسوف تصبح لغة مشتركة تؤدي في نهاية المطاف إلى طرد اللغة القديمة من خلال تفتيتها إلى لهجات تم تداعيهاولا يكتفي هذا الفريق باستخدام لغة أخرى إلى جانب اللغة العربية ، بل يحرص كل الحرص على تعليم أطفاله لغة أجنبية أو أكثر ، يرى أنها لغة المستقبل ، وغاب عن هذا الفريق أن "الطفل ابن الخمس سنوات ، يستطيع خلال أربعة أشهر أن يكتسب لغة أخرى ، وينسى تماماً استعمال الأولى أو فهم حتى أقل قدر منها ". وكأن هذا الفريق يعمل – بقصد أو بدون قصد – على إقصاء اللغة العربية من الحياةوالقضاء عليها بعدم استعمالها ، وبهذا يحقق القضاء على الأمة العربية كلها .

ونسي هذا الفريق أو تناسى أن سبب التأخر عندنا هو نحن أنفسنا ، وليس للغة دور فيه ، فإذا أردنا أن ننهض أو نتطور في كل مناحي الحياة ، فعلينا ألا نتكل على الآخرين ، ونقترض منهم كل ما نحتاج إليه من ألفاظ ، دون أي محاولة للاعتماد على النفس في سد حاجاتنا من هذه الألفاظ ، ولغتنا قادرة على ذلك بما تتمتع به من خصائص ومزايا تؤهلها لأن تكون لغة علمية عالمية وقد كانت كذلك فيما مضى كما علينا أن نوقن العزم ونؤكده على إنتاج كل ما ينقصنا من الثقافة ، ونبتكر ونبدع كما يبتكر الآخرون ويبدعون ، وعلينا أن نستقل علمياً وفكرياً وثقافياً ألا نكون تابعين في أي منحى من مناحي الحياة أو جانب من جوانبها .

الأخرى ، إذ يجعلنا قادرين على وضع أسماء مخترعاتنا وإبداعاتنا بلغتنا القومية مما يترتب عليه تناقص اعتمادنا على الاقتراض من اللغات الأخرى ، وهو ما يصل بنا إلى الاستقلال التام عملياً وثقافياً واجتماعياً.والتعريب مطلب قومي ملح نابع من إرادة الجماهير العربية ، وهو يعني فيما يعنيه إحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية في التعليم مما يخلق لدى طلابنا وأجيالنا الثقة بلغتهم وأمتهم ومن ثم في نفوسهم ، ويقودهم نحو الخلق والإبداع. كما يعني توسيع اللغة العربية ، وإثرائها بإدخال صيغ ومصطلحات جديدة إليها لتستطيع التعبير عن مستجدات العصر ، وهو يعني كذلك أن تصبح العربية لغة التخاطب في مجالات الحياة المختلفة ، وفي كل أرجاء الوطن العربي ، وهو يحرص على عدم استخدام أية لغة غير العربية في كل مؤسسات وإدارات الوطن العربي ، إنه يعني سيادة اللغة العربية في المجتمعات العربية كافة ، وعلى كل المستويات الحياتية المختلفة ، وفي كل مناحي الحياة ، ويعمل على مجابهة كل ما يحد من انتشار العربية من مشكلات ، وكل ما يقف حائلاً دون تعميمها ، من أجل أن تصبح لغة الحياة والعلم . "إن تعلقنا بلغتنا وسعينا في المحافظة عليها وتصفيتها من الشوائب ليس أمراً خاصاً بالعرب ، بل نرى اليوم الشعوب الراقية كلها تسير في نفس هذا الطريق ومنها ما يبلغ به الأمر إلى حالة التعصب مثل ما نراه عند أهل بلجيكا المتكلمين بالنيرلاندية .... حيث قرروا أخيراً العقاب بالسجن وغيره لكل من ثبت استعماله الفرنسية تكلماً أو كتابة وهو يقوم بعمل رسمي

عدم الاهتمام باللغة العربية والعمل على نشرها :

الاهتمام باللغة العربية يعني المحافظة عليها ، والعمل على تطويرها وحمايتها ، وكذلك العمل على انتشارها ، لأن انتشارها يعني عملية التعريب ، والعمل على نشرها يعني العمل على إنجاح التعريب ، وهناك مشكلات كثيرة تحول دون انتشار العربية ، كتخلف المستوى العلمي وضعف التعليم ، وقلة المراجع العلمية والتأليف العلمي العربي ، وقلة التنسيق الثقافي والعلمي في الوطن العربي ، واللهجات وإغفال نشر العربية خارج حدود الوطن العربي . إن تخلف المستوى العلمي وضعف التعليم في الوطن العربي من أهم مشكلات التي تحد من انتشار العربية ، فالتعليم هو أساس كل تقدم حضاري ، كما أنه أساس كل نهضة اجتماعية ، وبه يحكم على المجتمع من حيث التطور سلباً أو إيجاباً ، فالمجتمع الذي يعيش مستوى علمياً متدنياً لن يتوفر لأبنائه فرص التعليم الجيد الذي ينمي قدراتهم ويصقل مواهبهم بالقدر المطلوب الذي يتيح لهم فرص الإبداع والخلق . إن التخلف العلمي وضعف التعليم سينتج عنه حتماً ضعف في اللغة القومية التي هي أداة الفكر ، ووسيلة الإبداع ، وإذا عدمت اللغة الإبداع والخلق تحجرت داخل المجتمع الذي تعيش فيه ، وانعزلت عن اللغات الأخرى ، وفقدت إمكانية كونها لغة عالمية .

ومن الأسباب التي حدت من انتشار اللغة العربية فقدان التنسيق العلمي واختلاف التوجه الثقافي بين الأقطار العربية ، مما أدى إلى وجود سياسات تعليمية وتثقيفية عربية مختلفة ، نتج عنه اختلاف البرامج التعليمية والتثقيفية عند العرب ، وترتب عليه اختلاف في فهم القضايا العلمية والثقافية واستيعابها ، وهو ما يقود بدوره إلى وجود ثقافات متباينة بين أفراد الأمة ، ويؤدي إلى ضعف الترابط بينهم ، وسيكون سبباً في قلة الإنتاج العلمي والأدبي ، إلى جانب تشتيت القدرات العلمية ، والطاقات الخلاقة للأمة ، ويؤثر سلباً على انتشار العربية ، والارتقاء بها لتصبح قادرة على مواكبة تطورات العصر ، والتعبير عن كل المستجدات . وكلما نمت اللغة وارتقت كانت أقدر على الإنتاج والابتكار ، وأقدر على تغطية ما يدور في الفكر من القضايا ، والتعبير عنها . كما أن الفكر يصبح أكثر حركة واتقاداً لأنه يملك لغة قوية قادرة على مجاراته والتعبير عنه. فلابد من تضافر الجهود من أجل رقي اللغة والارتقاء بها ، لأن الرقي اللغوي يحقق للعمل الفني سبباً تعبيراً ، ويجعله قادر على التأثير المباشر في الجمهور .

الأمية :

الأمية تعني الجهل والتخلف ، إنها تعني الفقر والمرض ، فالإنسان الأمي إنسان ضعيف عاجز ، مهزوز الثقة بنفسه ، لا يعرف ذاته بكل أبعادها ، إنه متردد في سلوكه لا يستطيع أن يقوم بأعماله بثقة في نفسه ، إنه مسلوب الإرادة ، قاصر التفكير ، ينظر إلى الأمور بمنظور مخالف ، منظور غير واقعي ، لأنه لا يستطيع تحديد المسائل ووزنها بدقة وعناية.

فالمجتمع الذي تغلب الأمية على أفراده ، مجتمع متخلف في كل مناحي الحياة ، لأن الأمية عنوان الانحطاط الفكري والقصور التعبيري ، إنها رمز لكل جمود وتحجر ، ولا يمكن أن تتصور أمة متخلفة تسعى للخلاص من تخلفها دون أن تكون عازمة على محاربة الأمية والقضاء عليها ، ودون أن تكون جادة بالنهوض السريع بلغتها ، لأن النهوض باللغة القومية والارتقاء بها يعني بدية نهضة حضارية شاملة في كل الجوانب الحياة ، إنه يعني بداية صحيحة حقيقية جادة لبناء المجتمع على أسس علمية وفنية ثابتة يقوم عليها البنيان المنشود .وإذا نظرنا إلى المجتمع العربي وجدنا أن الأمية لا تزال متفشية بين نسبة كبيرة من أفراده ، فهناك أقطار عربية لا تزال الأمية بين أفرادها تزيد على ٥٠% ، وهذا يعني أن تلك الأقطار غير قادرة على وضع خطط دقيقة شاملة للتنمية والنهوض الحضاري ، لأن الأمية تحول دون أي تقدم أو تطور ،إنها من أهم المشاكل التي تحول دون تحقيق التعريب بجوانبه المختلفة ، فلابد من العمل الجاد المخلص من أجل النهوض باللغة العربية ، لأن نهوض اللغة سيحقق السبب التعبيري والجمالي لكل عمل فني

، فكل موقع يتحرر من الأمية ، يدخل مرحلة جديدة تسير به قدماً نحو التعريب الذي هو بداية لكل تطور حضاري "من هنا كان حتماً أن ترتبط أهداف التعريب في هذا المنطلق بمبدأ القضاء على الأمية ، وهو الانتهاء بإدارة البحوث العلمية والتكنولوجية بعقلية عربية منفتحة على معارف العالم المتطور وعلى لغاته إن ما تقوم به الأقطار العربية من برامج لمحو الأمية يعد خطوة هامة في سبيل القضاء على الأمية ، كما أن تعميم التعليم ومجانيته وإلزاميته أمر هام وخطوة إيجابية من أجل التخلص من داء الأمية وقيودها ، وبتحقيق هذا المطلب يصبح بناء العملية التنموية في كل أقطار الوطن العربي سهلاً وميسوراً ، كما يمكن من التغلب على مركب النقص الذي يعاني منه الكثير من أبناء أمتنا لجهلهم وعدم قدرتهم على تحليل الأمور تحليلاً منطقياً ، وفهمها دقيقاً ، ووزنها بميزان العلم .

الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية :

اختلف الباحثون في فهم كل من الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية ، ولم يتفقوا على المقصود بكل مصطلح منهما .

فذهب فريق منهم إلى أن الازدواجية ترجمة للمصطلح الانجليزي **Bilingualism** وهي تعني وجود لغتين عند فرد ما ، أو في مجتمع ما في آن واحد ، إحداهما اللغة القومية ، وثانيهما لغة أجنبية دخيلة وافدة ، كالعربية والإنجليزية . كما رأى هذا الفريق أيضاً أن الثنائية اللغوية ترجمة للمصطلح الانجليزي **Diglossie** ، وهي تعني وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما ، أو في مجتمع ما ، إحداهما أصل (اللغة الأم) والثانية فرع (اللهجة المحلية).وذهب الفريق الآخر إلى فهم معاكس للفهم السابق لهذين المصطلحين ، فرأى أن الازدواجية ترجمة للمصطلح **Diglossie** ، وتعني وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو في مجتمع معين ، وأن الثنائية ترجمة للمصطلح **Bilingualism** ، وتعني وجود اللغة الأم وإلى جانبها لهجة أو لهجات محلية . ويبدو أن مصطلح **Bilingualism** أكثر دلالة على معنى الازدواجية التي يقصد بها اللغة الأم وإحدى لهجاتها .وكيفما كان فهم الباحثين لهذين المصطلحين فإن كلا منهما يسهم في إضعاف اللغة الأم والقضاء عليها ، إلا أن الثنائية أشد خطراً على اللغة القومية ، لأنها سبب من أسباب القصور الفكري والتخلف الإبداعي ، لأن فرص الإبداع لدى الباحث الذي يفكر بلغته الأم ويكتب بها أكثر وأرحب منها عند غيره الذي يفكر بلغة ويكتب بلغة ثانية ، وهو الذي أصيب بانفصام بين التفكير والتعمير إن من يقرأ كتاباً بلغته الأم يبذل مجهوداً واحداً لفهم معانيه والوقوف على أسراره ، أما من يقرأ كتاباً بلغة أجنبية فإنه يبذل مجهودين ، أولهما لفهم اللغة الأجنبية وترجمتها ، وثانيتها لفهم المضمون العام الذي يشمل عليه الكتاب ، وهذا يترتب عليه ضياع للوقت ، وعدم الدقة في المواءمة بين فكره ولسانه ، وهو ما يجعله غير قادر على الإبداع والخلق ، لأن من "شروط

الإبداع الفكري ، أن يكون المبدع موائماً بين فكره ولسانه ، وأن يكون اللسان ترجماناً آلياً للفكر ، لا أن يصرف المفكر قسماً كبيراً من جهده في ترجمة فكره بلغة لسانه ". من هنا ندرك كما يدرك الآخرون أن فرص النبوغ والخلق والإبداع لدى الثنائيين أقل بكثير منها عند الأحاديين الذين يفكرون ويكتبون بنفس اللغة ، لأن بين اللغة والفكر رابطة قوية لا تنفصم فهما وجهان لعملة واحدة . لذا يجب ألا يفصل بين الطفل ولغته الأم ، ويجب العمل على ترسيخها في عقله ووجدانه ، ولا يسمح بوجود لغات أخرى في مراحل تحصيله الأولى ، فقد دلت الأبحاث التربوية والنفسية على أن الطفل الذي يمارس لغة إلى جانب لغته القومية وهو دون سن العاشرة أو الثانية عشرة ، تضعف طاقته الاستيعابية ويقل تحصيله ، لأن قد توزع بين لغتين وبين عبقريتين ، بل وبين أمتين . فالأمة التي تهتم باللغات الأجنبية ، وتحرص على تعليمها لأبنائها في سن مبكر ، تضع لغتها القومية في سباق قد يكون غير متكافئ مع اللغات الأخرى ، "لأن اللغة الأم لا تقبل لها ضرة تحت سقف بيتها ، فأما هي وإما غيرها ". فلابد من انتصار إحداهما التي هي اللغة الأجنبية . فإذا حصل هذا الانتصار وأصبحت اللغة الأجنبية هي اللغة القومية وأصبحت اللغة الأم تابعة لها ، اختل التوازن الفكري والاجتماعي لتلك الأمة ، وأصبحت مسلوبة الإرادة ، عاجزة عن التطور والنمو العلمي والحضاري ، أسيرة لغيرها من الأمم "إذ يستحيل على أي شعب ما أن يغير مصيره إلى الأفضل بواسطة لغة أجنبية عنه ، والشعب الذي يفقد حريته واستقلاله إن السماح للغة أجنبية أن تزاحم اللغة القومية للمجتمع يعني السماح للفكر الأجنبي بالسيطرة التامة على حياة ذلك المجتمع ، فإذا استكان ذلك المجتمع للثقافة تكيف روحياً مع مزايا تلك الثقافة وخصائصها ، وخضع لكل قيمها ومبادئها ، مما يعني انعدام شخصية الأمة الحقيقية الأصلية ، وانقطاعها عن تراثها ، مما ينتج عنه شخصية مشوهة لتلك الأمة ، لا تتضح لها لغة قومية ، كما لا يتضح لها فكر قومي حر ، لأن اللغة مرآة الفكر ، ومعين التراث ، وذاتية المجتمع ، وهي الوطن الروحي لكل شعب من الشعوب ، "فالشعب الذي يتمادى في معرفة اللغات الأجنبية يدرك روح أجداده هذه اللغات دون إرادة منه ، وهو سبب للغموض الذي يطفو على إنشائه ، وسبب للعبودية أيضاً ، ولكن بشكل ثقافة . واحد من اثنين : إما أن يحكم الشعب لغة أجنبية إذ ذاك تحتل مركز الصدارة وتصير بدورها اللغة القومية وإذ ذاك تلغى أمومة اللغة الأولى لتصبح لغة تابعة ، ومتى تأجنبت اللغة تأجنب الفكر حتماً ، إذ لا فرق جوهراً بين عقل ونطق . ومتى تأجنب الفكر تأجنب الشعور القومي ، إذ لا يمكن لإنسان أن يحكم لغة ما فتنقلب لغته الأم بدون أن تميل كل جوارحه النفسية نحو الشعب الذي يتكلم هذه اللغة إن هذا الصراع بين الأصالة الثقافية والحضارة المستورة الذي نشهده في الأقطار العربية ناتج عن هذه الثنائية اللغوية البغيضة التي تحول دون تحقيق التعريب ، ودون سيادة لغتنا العربية في مجتمعنا العربي .

هذا الصراع يجعل الشخصية الثقافية العربية باهتة مهزوزة ، كما يجعلها ثقافة غير كاملة ، وهو من أهم العوائق التي تقف حائلاً أمام أي تقدم حضاري أصيل نسعى إليه . إن هذه المرحلة من حياة أمتنا ، التي يغلب عليها التردد والتعثر وعدم الجدية في وضع برامج علمية ثقافية محدودة واضحة من أجل بناء حضارة حقيقية ، ناتجة عن استيراد التقانة الأجنبية ، مصحوبة بلغات البلدان المنتجة لتلك التقانة وثقافتها . فإذا أردنا أن نبني حضارة عربية أصيلة ، وجب علينا أن نعمل جاهدين على تعميم لغتنا في كل مناحي حياتنا ، وتعريب العلم والفكر والثقافة ، لنكون منتجين للتقانة لا مستوردين لها ، إن هذا النهج الذي نهجه الآن لن يخرجنا من دائرة التبعية الثقافية والحضارية للبلدان الأجنبية التي نستورد منها العلم والتقانة إلى جانب لغاتها وثقافتها . كما أن هذا النهج يعمل على هجرة العقول العربية ، وهذا يعني نقل الإبداع العربي إلى الأمم الأخرى ، فبدلاً من أن تبقى هذه العقول داخل وطنها تعمل على تكوين نواة علمية حقيقية قادرة على الإبداع والابتكار ، من أجل تحقيق نهضة الأمة ، وكسر قيود التبعية الصناعية والتقنية التي تحياها ، بدلاً من هذا كله تصبح عقول مبدعينا منتجة في الأمم الأخرى ، وتحسب كل إبداعاتها إبداعات للأمم الأخرى ، وتحرم منه أمته العربية ، وهذا يعني أننا سنبقى تابعين ندور في فلك الأمم الأخرى ، ونعتمد عليها في كل ما نحتاج ، ولا يمكن أن نسير إلى الأمام ونحن من هجرة العقول العربية .

الازدواجية اللغوية :

يقصد بالازدواجية اللغوية وجود مستويين لغويين لدى الفرد أو في المجتمع ، أحدهما أصل هو اللغة الأم ، والآخر هو اللهجة المحلية (العامية)، وهذا التفرع ناتج عن التطور اللغوي الذي يلزم اللغة في كل مراحل حياتها . فالازدواجية ليست حكراً على لغة دون أخرى ، بل هي ظاهرة في جميع اللغات ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها امتداد لازدواج العقل والحس عند الإنسان فقال :"هذه الثنائية التي بين العقل والحس " نقصد بين الوجدان المنطقي والوجدان العاطفي " وهي عينها التي نجدها في اللغة بين العامية والفصحى ، وهذا يعني أولاً أن ازدواجية اللغة امتداد لازدواجية اللطيفة البشرية . ويعني ثانياً أن الازدواجية في اللغة ليست وقفاً على العربية وحدها ، ففي كل لغة لسان عامي ولسان فصيح هذا اللسان العامي انشعب عن الفصيح ، واختلف عنه في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات ، وتفرع إلى لهجات محلية انفرد كل منها ببعض الخصائص نتيجة للظروف الخاصة بهذه اللهجة أو تلك ، وقد خسرت هذه اللهجات كثيراً من صفات اللغة الأمة وخصائصها ، فأصبحت فقيرة في ثروتها اللفظية ، مضطربة في أساليبها وقواعدها ، مختلفة في معاني ألفاظها ووظائفها داخل الجملة ، حتى إن ترابط هذه الألفاظ داخل الجمل ضعيف ولا يفي بالغرض ،

ولا يمكن لهذه العاميات أن تحل محل الفصحى وتغني عنها ، فهي غير قادرة على التعبير عن المعاني والأساليب والحقائق العلمية والقضايا الأدبية والفكرية بدقة تامة . وإذا حاولنا استخدامها بدلاً من الفصحى كنا نعمل على القضاء على كل إبداع وابتكار ، لأنها لغة ضعيفة مقيدة مشوهة ، ولغة كهذه سينتج عنها فكر ضعيف قاصر ، ليس أهلاً للنهوض بالأمة ، لأن الفكر الناضج يتطلب لغة قوية رصينة تسعفه في التعبير ، فإذا فقد هذا الأمر ضعف شأنه وضاق مجاله ، وأصبح مقتصراً على سفاسف الأمور،كما أن اللغة هي الرافد الأساس للفكر، وهي القالب والمستودع الذي يختزن الفكر ، فإن ضاق هذا واختل وضعه ، ضاق مجال الفكر واضطراب إنتاجه .

إن وجود العامية واستعمالها أمر طبيعي ، لا خوف منه ، ولا خطر على الفصحى إذا كان استخدام العامية ضرورة أملتها الظروف ، وما دام هذا الاستخدام لايرد لذاته ، لكن الخطر يكمن في الفكر العامي لأنه يعمل على "تمزيق الأمة العربية الواحدة إلى أمم بعدد اللهجات التي تنتشر فيها ، وتمزيق الشعب الواحد داخل الدولة الواحدة في كل قطر عربي إلى أقاليم ولهجات عامية ، تحاول كل منها أن تسود غيرها من اللهجات وتنتزع سلطانها وقد اتخذ هذا الفكر العامي طرائق مختلفة ومناهج متعددة من أجل محاربة العربية الفصحى ، كالاهتمام بالأدب الشعبي والعمل على تشجيعه وتنشيطه بحجة أنه تصوير دقيق وأمين للحياة الاجتماعية التي تحياها الأمة .ويقصد بالأدب الشعبي " كل ما هو متداول بغير العربية الفصيحة مما يختلف في البلد الواحد لاختلاف القرى وتعدد البيئات ".

هذا الأدب الشعبي الذين يطالب به كثيرون ، ليس إلا أدب العامية أطلق عليه اسم الشعبي تلطفاً ، وحتى يقبله الجمهور . والهدف من هذا المطلب قطع ارتباط الناس بلغتهم الفصيحة وبثقافتهم وتراثهم ، من أجل إبعادهم عن الاتصال بالأدب العربي في العصور القديمة ، حتى تتسع الشقة بينه وبين الأجيال القادمة وحتى يمكن وصمه بالقدم والبعد عن واقع الحياة المعاصرة ، فإذا أردنا المعاصرة والتحضر فعلينا أن نقطع صلتنا بهذا التراث المتحجر . والحديث عن الأدب الشعبي يقودنا إلى الحديث عن لغة المسرح والسينما ، وعن لغة الإعلام ، من صحافة وإذاعة وتلفزة وغيرها . إن استخدام العامية لغة المسرح أو لوسائل الإعلام هو السبب الأول والأهم في القضاء على وحدة أمتنا ، والعامل الهام في تفتيتها ، لأن "من أكبر العوامل الضارة باللغة العربية وبمستقبلها وحتى بمستقبل الوحدة العربية استعمال اللهجات المحلية في السينما والمسرح وفي الإذاعة والتلفزة ، إذ لا يجمع بين البلاد العربية إلا لغة القرآن ، والعدول عنها إلى اللهجات المحلية هو خصم لهذه الوحدة".

إن الصراع بين الفصحى والعامية مرير ومستمر ، فإذا أردنا أن يكون النصر في هذا الصراع للفصحى وجب علينا أن نحارب العامية بكل الوسائل والطرق العلمية ، فلابد من دراسة اللهجات العامية في كل أقطار الوطن

العربي وبيئاته ، ومقابلتها بالفصحى للوقوف على الاختلافات وتحديد الفوارق بينهما ، والإفادة من علم اللغة التقابلي بكل إمكاناته في هذا المجال
كما أن تنشئة أجيالنا على اللغة الفصحى ، وتعويدهم على استخدامها في كل مكان، في المدرسة ، وفي البيت ، وفي الشارع ، بمساعدة المدرسين وأولياء الأمور ووسائل الإعلام ،سيخلق عندهم ألفة لهذه اللغة ، وحباً لها وتمسكاً بها مما يسهم في تفصيح المجتمع، ويسمو بالعامية نحو الفصحى ، ويعمل على ردم الهوة بينهما كما أن تعميم التعريب في كل مجالات الحياة المختلفة يسقط المشكلة من أساسها ويطلق العنان للفصحى لتأخذ مكانها الطبيعي في حياة هذه الأمة .

المصطلح :

يعتبر كثير من الباحثين والمفكرين أن نقص المصطلح العربي هو المشكلة الوحيدة التي تحول دون تحقيق التعريب الشامل ، إذ يرون أن عدم توفر المصطلحات هو أساس المشكلة ، فلو توفرت هذه المصطلحات لانتهت المشكلة ، ولأمكن أن يعم التعريب كل أرجاء الوطن العربي ، وكافة جوانب الحياة العربية ، إلا أن هذا الفهم غير دقيق ، لأن عدم وجود المصطلح ليس هو المشكلة ، بل المشكلة هي المقدرة على فهم المعاني المستجدة والتعبير عنها ، "إن قضية المصطلح من حيث هو ألفاظ يعبر بها عن مسميات ومعان مفردة – ليس بصميم المشكلة – بل قد تكون – على مالها من شأن – أهون جوانبها ، وإنما صميم المشكلة هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتصويرها ثم الإبانة عنها

إن التمكن من مسائل العلم ومفاهيم المصطلحات ، والإحاطة الشاملة بكل ما عرفته العربية من الألفاظ الجديدة ، وبكل ما تحتاج إليه من هذه الألفاظ ، كل ذلك يخلق القدرة على توليد المصطلحات في كل مجالات العلوم والفنون ، فالمصطلح "هو اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني ، أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة ".

إن عملية الاصطلاح لا تحتاج أن يكون المصطلح مطابقاً تماماً للمسمى بكل خصائصه وأبعاده ، فيمكن وضع المصطلح لأقل مناسبة للمعنى . فليس ضرورياً أن تطابق المفردة التي اصطلح عليها المعنى العلمي تطابقاً تاماً ، فقد يطلق اسم المستكشف ، أو بعض الأسباب والملابسات التي أدت إلى هذا الاكتشاف أو أسهمت فيه . والضروري هنا الاستعمال الذي يجذر هذا الأمر ، ويجعل اللفظ المصطلحي يشير إلى مسماه ، كما أن كثرة استعمال ذلك المصطلح هي التي تشعرنا بصحته ، وبأنه يدل على ذاك المسمى ، ويشير إليه بكل دقة ووضوح "ولا ننسى أن المصطلح يوضع لأدنى ملابسة بالمعنى ، وحتى هذه المصطلحات الأجنبية نفسها ليست دلالتها اللغوية البسيطة بمؤدية معانيها العلمية الدقيقة . لولا أنها اصطلح بها لهذه الأغراض ، ومن ثم فليس من الصعب إطلاقاً الاصطلاح بمقابلات عربية لها من دون انقياد لشكل تركيبها إذا استعان المشتغل بالعلوم بأهل اللغة في ذلك".

فعلى علمائنا أن يصطلحوا ، وسيقوم الجمهور باستخدام هذه المصطلحات واستعمالها ، وهذا الاستعمال هو الذي يحدد الأفضل والأصلح منها ، ويقره لفظة معروفة دالة محدودة الدلالة ، فعملية الحصول على المصطلح العلمي الحقيقي لا تتم إل بعد استعمال اللفظ الذي اصطلح عليه ، "فليس من المفروض أن يجد أهل العلم عند المجامع والهيئات المعنية بالتعريب مصطلحاً جاهزاً لكل فكرة عملية دقيقة ، أو كشف علمي جديد ، إنما يضع العلماء أنفسهم اللفظ العلمي وهم يستعينون أهل اللغة في ذلك كلما دعت الحاجة إليه وعلى الباحث ألا يلجأ إلى تعريب اللفظ الأجنبي يدخله إلى العربية على علاته ، معتمداً على مقولة باطلة هي أن هذه الألفاظ عالمية ، تستعمل في كل دول العالم . بل لابد من البحث في اللغة العربية ، ومحاولة الإفادة من كل إمكاناتها من أجل إيجاد مقابل لذلك اللفظ ، فإن تعذر عليه ذلك لجأ إلى تعريبه.

كما يجب أن تكون عملية الاصطلاح مقننة على مستوى الوطن العربي ، لا أن تكون حسب أهواء الأفراد وعلى أمزجتهم ، كل يعمل على شاكلته دون رقيب ودون اعتبار المصلحة العامة ، وقد نتج عن هذا تعدد المصطلح في الوطن العربي وترتب على ذلك أن أصبح كل قطر من الأقطار العربية يرى أن ما وضعه هو الصواب ، مما ينذر بوجود أكثر من لغة عملية في هذا الوطن . من هنا نرى ضرورة توحيد المصطلحات في الوطن العربي ، حتى نتمكن من خلق لغة علمية عربية واحدة يفهمها كل العرب ، وتحد من فوضى المصطلحات – التي نتجت عن نقل كل مبتكرات ومستجدات العصر ، والتي أدت إلى بلبلة الفهم ، وخلط غير يسير في فهم دلالات المصطلحات وتحديد معانيها بدقة – حتى يمكن هضمها وتمثيلها ، ومن ثم التعبير عنها بدقة ، واستخدامها بشجاعة في البحوث والاكتشافات .

ضعف الانتماء الصادق للأمة العربية الواحدة ،والاستعاضة عنه بالانتماء القطري أو الإقليمي :

حرص المستعمر منذ أن دخل بلاد العرب على تنفيذ شعاره المعروف "فرق تسد" ، فعمل على تشجيع الفرقة والطائفية والفئوية والإقليمية ، وبذل كل ما في وسعه لتحقيق هذه الغاية ، فعمل على تقسيم الوطن الواحد إلى أوطان ، وقطع صلة المواطن العربي بأمته ووطنه الكبير ، وتكريس انتمائه لإقليمه أو قطره الذي يعيش فيه من خلال ترسيخه هذه الثقافة في عقول المواطنين ، كما عمل على تشجيع اللهجات المحلية ، وخلق المنافسات بينها التي تؤدي إلى التعصيب الأعمى ، وإلى القضاء على اللغة العربية الفصيحة التي هي الرباط الأوثق بين أبناء الأمة ، وقطع التواصل بين أبناء الوطن الواحد ، من أجل تفتيت الأمة وشرذمتها ، وهدم ترابطها ووحدتها لتصبح أمماً وأقاليم بدلاً من كونها أمة واحدة ووطناً موحداً. وقد استجاب كثير من أبناء أمتنا لهذه الثقافة وهذا التوجه ، وأصبح لا يحس بأي رباط يربطه بأبناء جلدته ، همه الأول المحافظة على لهجته المحلية ، والتعصب للإقليم الذي يعيش فيه

،لا يلتفت إلى ما يحصل في بقية الأقاليم ، كما عمل بعضهم على تنمية عاميته وإقصاء الفصحى بقصد أو بدون قصد ، ولعل الدعوة إل العامية ، والدعوة إلى اللاتينية خير ما يدل على هذا .وإذا أردنا النجاح للتعريب باعتباره قضية هامة ملحة ، فعلينا محاربة هذه الانتماءات الإقليمية ، والعمل على أن يكون الانتماء كله للوطن العربي الواحد الذي يجمع في رحابه كل أبناء العرب ، كما علينا محاربة اللهجات المحلية ، وترسيخ ثقافة الانتماء القومي بين أبناء العروبة ، وهو ما يتطلب عملاً دؤوباً وجهداً كبيراً متواصلاً من أجل خلق ثقافة عربية أصلية موحدة ، تجمع أبناء الأمة على لغة واحدة ، وانتماء وطني واحد ، وطريقة تفكير واحدة ، بدلاً من الشرذمة القاتلة التي يسعى إليها أعداء هذه الأمة . ولعلي لا أغالي إذا قلت أننا لو جربنا إجراء استفتاء سري ونزيه بين أبناء أمتنا حول انتماء كل منهم ، لوجدنا أن القسم الأكبر منهم لا يسعده الانتماء للعروبة ، وأنه لا يعرف إلا الانتماء للقطر الذي يعيش فيه ، وهو غير معني بما يجري في بقية الأقطار العربية ولا يهمه ذلك بشيء . وإننا لنلمس مثل هذا الانتماء والعنصرية الإقليمية حتى بين المثقفين العرب ، والنخب العربية ، والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ويبدو ذلك واضحاً فيما يترجم من علوم وفنون ، وفيما يوضع من مصطلحات علمية وفنية وتقنية .

فالعلماء والباحثون في كل قطر يصطلحون بالطريقة التي تتماشى مع ثقافة القطر الذين يعيشون فيه، وتتناسب مع حياة أفراده ، دون تنسيق مع أي قطر آخر من أقطار الوطن العربي ، ولا يهمهم ما عند غيرهم من أشقائهم العرب ، وقد كان لهذا العمل خطورته على اللغة العربية ، إذ نتج عنه ترادف في المصطلحات العلمية والتقنية ،وهذا يعني أن لكل قطر لغته العلمية الخاصة التي تختلف عن لغات بقية الأقطار العربية ، فالكتاب الواحد قد يترجم في أكثر من قطر ، وكل قطر يرى أن الترجمة التي قام بها هي الأصوب والأفضل ، وأن أي ترجمة أخرى لا قيمة لها ولا يلتفت إليها ، وهذا تكريس للانقسام وللانشقاق ، وسيقود في النهاية إلى تمزيق الفصحى ، ومن ثم تمزيق الأمة .لقد سمعت في أحد الفضائيات الرسمية أحد المسؤولين في مجال الثقافة والفنون يقول لمحاوره : علينا أن نعمل على تعميم لهجتنا "لهجة القطر الذي ينتمي إليه" وتسويدها في كل أرجاء الوطن العربي ، وهذا قول خطير يعكس ثقافة قائله ، ويوحي بأنه ليس لديه انتماء للأمة العربية ولا للغة العربية ، وإن انتماءه لا يتعدى حدود قطره الذي يعيش فيه ، وهذا دعوة للإقليمية البغيضة التي يترتب عليها تمزيق الأمة ، والقضاء على العربية الفصحى ، لأنه لا يمكن للهجة أن تحل محل اللغة الأم إلا بعد إقصاء تلك الأم ومن ثم تفتيتها وقتلها .

اللغة هويتنا وذاتيتنا ، ويجب علينا العمل بكل قوة من أجل الحفاظ عليها ، وبقاء هذه الذاتية سوية قويمة ،مستقلة تماماً ، خالية من أي تشويه أو تغيير . كما أن اللغة وطننا الروحي الذي يجب أن نحافظ على أمنه ، ونحقق له الأمن اللغوي ، كما نحافظ على أمن الوطن الذي نعيش على أرضه ، فعلينا أن نحرس اللغة كما نحرس حدود الوطن ، ونراقب معابره ومنافذه ، كما نراقب ذلك في اللغة ، فلا نسمح بدخول الألفاظ الأجنبية إلا في الضرورة القصوى ، وبعد استنفاذ كافة الإمكانات والطاقات ، وأن يكون ذلك برخصة من أعلى المستويات الثقافية والعلمية ، فكثرة دخول الألفاظ الأجنبية بطرق عشوائية غير مدروسة بلية عظيمة ووبال خطير ومجلبة لأضرار كثيرة على اللغة ، يخلق بين ألفاظها ما يمكن تسميته ببطالة الألفاظ ، وهو تشويه للغة في البداية وانحسار تدريجي لها إلى أن تصل إلى الانزواء وعدم الاستعمال . وقد بلغ من حرص الأمم على لغتها أن رفض بعضها دخول أي لفظ على لغته القومية كما هو حال الأمة الفرنسية في العصر الحديث ، حيث أنشأت لجنة لقراءة لغتها ، والعمل على طرد كل لفظة ليست من أصول فرنسية واستبدالها بلفظة فرنسية حتى تبقى هذه اللغة صافية لا تشوبها شائبة . أما نحن في عالمنا العربي فنعمل عكس ذلك ، إذ يفاخر بعضنا باستخدام اللغات الأجنبية في أحاديثه وكتاباته ، ظناً منه أن هذا السلوك يزيده مكانة واحتراماً في المجتمع ، وهو واهم في فهمه هذا لأن من يستخدم لغة الآخرين ينسلخ تدريجياً عن مجتمعه إلى أن يلفظه ذلك المجتمع ويلفظه المجتمع الآخر الذي يحاول الانتماء إليه.

أهم النتائج

بعد هذا العرض لقضية التعريب وأبعادها وأهميتها والأسباب التي تحول دون تحقيقها ، توصل البحث إلى النتائج التالية :

التعريب قضية هامة لا تقتصر على تعريب المفردات فقط ، بل يتسع ليشمل كل جوانب الحياة العربية ، كما يشمل الإنسان العربي ذاته الذي يجب تعريبه كذلك .لا يمكن لهذه القضية أن تنجح وتحقق أهدافها إلا إذا صح انتماء أبناء الأمة العربية وصدقهم ، وإذا وعى الإنسان العربي ذاته وعياً حقيقياً وعرف نفسه والمطلوب منه. من أهم معوقات التعريب : عدم الاهتمام باللغة العربية وإهمال نشرها خارج حدود الوطن ، والأمية التي هي عدو كل نمو وتطور ، والازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية لأنهما عدوان لدودان للعربية الفصحى ، وضعف الانتماء لدى الإنسان العربي . كل هذه معوقات للتعريب ، ولا يمكن لهذه التجربة أن تنجح وتؤتي أكلها إلا بالعمل على التخلص من كل ما يقف عائقاً في وجهها .

إن تعريب التعليم في أقطار الوطن العربي قضية هامة ، وهو الذي يوصل لإلى تعريب الفكر ، الذي يقود إلى تعريب الثقافة والنهوض بالأمة لغوياً وفكرياً وثقافياً ، كما أنه يقود إلى الاعتماد على العربية الفصحى في كل

مناحي الحياة العربية ، وينقلها من وضعها الحالي إلى اللغة العلمية القادرة على مواكبة التطور العالمي لتأخذ مكانها الحقيقي والطبيعي بين لغات العالم

المحاضرة الثانية عشرة

ألقاب اللهجات العربية

عرفنا فيما مضى أن اللغة العربية الفصحى ، ليست لغة قريش ، ولا لغة غيرها من القبائل العربية ، وإنما هي اختيار لاشعوري من لغة هؤلاء وهؤلاء ،حدث من احتكاك كثير من أفراد هذه القبائل ، في مواسم الحج والتجارة ، والأسواق الأدبية المختلفة ، فنتج عن هذا الاحتكاك الكبير بين القبائل ، ذلك الكيان اللغوي الذي عرفناه باسم اللغة الفصحى ، وهي اللغة المشتركة بين أدباء هذه القبائل جميعاً ،ينظمون بها شعرهم ، ويعبرون بها عما يجيش في صدرهم في ساعات الجد، كمواقف الخطابة مثلاً .
ومع كل هذا ، يمكننا القول بأن لهجة قريش ، تضرب في مميزات هذه اللغة الفصحى بسهم وافر ، إذ لم يرو لنا عن هذه اللهجة شيء يخالف ما نعرفه عن العربية الفصحى ، سوى أنها لم تكن تهمز في كلامها . وقد اختارت الفصحى ظاهرة الهمز من لهجة تميم .
ولذلك لا نعجب ، إذا رأينا بعض اللغويين العرب ' يجعل العربية الفصحى مرادفة للهجة قريش ' فيقول ابن فارس مثلاً : أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم ، أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه ، اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة وولاته ، فكانت وفود العرب ، من حجاجها وغيرهم . يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش لإي أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، وإذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات ، إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب .
كما يروي السيوطي عن الفراء أنه قال : كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ .
وقد درج اللغويون العرب ، على تلقيب كل لهجة من اللهجات العربية تقريباً ، عدا لهجة قريش ، بلقب يدور في مؤلفاتهم ، ويحاولون شرح هذا اللقب أو ذاك ، فيغمض بعضهم ، ويختلفون فيما بينهم في عزو هذا اللقب أو ذاك ،

إلى هذه القبيلة أو تلك .وأغلب الظن أن العرب لم تكن تعرف هذه الألقاب للهجاتها في الجاهلية ، وان المسؤل عن تلقيب كل لهجة بلقب معين ، هو رجل من "جرم" لم تذكر المصدر اسمه ، وكان ذلك في مجلس من مجالس معاوية بن أبي سفيان . وأقدم أخبار هذا المجلس ، يروسه الجاحظ فيقول :
"وقال معاوية يوماً :من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ،ولا طمطانية حمير .قال : من هم ؟ قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم ز قال : اجلس. وتختلف المصادر بعد ذلك في رواية الخبر ، من حيث عدد القبائل التي ذكرت فيه ، والألقاب التي نسبت إليها ، فهذا ابن عبد ربه مثلاً ، يروي عن الأصمعي أنه قال :" قال معاوية : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن رتة العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن شنشنة تغلب ، ليست فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطانية حمير ، قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال :صدقت ، فمن أنت؟ قال : من جرم .قال الأصمعي :جرم فصحى العرب .
كما يروي الحريري عن الأصمعي " أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط فقال : قوم تباعدوا عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطانية حمير ، فقال :من أولئك ؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين "
كما يقول أبو الحجاج البلوى :" ويروى أن معاوية قال يوماً : أي الناس أفصح ؟ فقام رجل من السماط ، فقال :أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن فراتية العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن عنعنة تميم وليس فيهم غمغمة قضاعة ،ولا طمطمانية حمير . قال :من هم؟ قال : قومك قريش ومع اختلاف هذه الروايات السابقة ، في عدد القبائل والألقاب ، ونسبة هذه الألقاب ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا المبرد ، الذي روى في هذا الخبر أن جرما –قبيلة الرجل المتحدث أمام معاوية – هي الفصحى ، ولم يرد في روايته ذكر لقريش البتة ، فيقول :" وحدثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة ، قال : قال لي معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير ، فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومي يأمير المؤمنين ، فقال له معاوية : من أنت؟ قال : أنا رجل من جرم . قال الأصمعي : وجرم من فصحاء الناس .ولكن من يدري ؟ فلعلها رواية واحدة ، أصابها التحريف في قوله : " قومي يأمير المؤمنين " بدلاً من :"قومك يأمير المؤمنين وقد روى ثعلب هذا الخبر ، ملخصا إياه مما دار في مجلس معاوية –فيما يبدو – فقال: " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، (وتلتلة بهراء)، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة "

ونلاحظ في كلام ثعلب زيادة في الألقاب ، وخلافا في نسبة بعضها إلى القبائل ، كما حدث في الروايات السابقة تماما ، وكما هي عادة كثير من كتب اللغة والأدب ، في عد هذه الألقاب وتفسيرها . وقد جمعنا ما عثرنا عليه في بطون الكتب اللغوية والأدبية ، ونسقناه وعرضناه على ما توصل إليه علم اللغة الحديث من نتائج،كما عرضناه على ما وصل إلى علمنا من خصائص اللهجات العربية الحديثة ، في شتى البلاد العربية . ونبادر هنا فنقول إن نسبة هذا اللقب أو ذاك ، إلى قبيلة من القبائل في أحد المراجع العربية ، ونسبته إلى قبيلة أخرى في مرجع آخر ، لا تعني بالضرورة أن هناك تعارضاً بين مجموعة من القبائل ، فيروي كل لغوي ما بلغه منها ، تماما كما لو قلت الآن : إن ظاهرة الكشكشة موجودة في بعض قرى محافظة الشرقية في مصر ، لأنني سمعت ذلك بنفسي ، وقال مؤلف آخر : إن هذه الظاهرة توجد في جنوبي العراق والكويت ، أنه سمع ذلك بنفسه هناك ، فلا تعارض بين قولي وقوله ، بل إن كل واحد منهما يكمل الآخر .

وفيما يلي نعالج هذه الألقاب ، مرتبين إياها ترتيبا أبجديا :

١- الاستنطاء

روي هذا اللقب عن لهجة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار ، كما روي أنه لغة أهل اليمن ، وهو عبارة عن جعل العين الساكنة نونا ، إذا جاورت الطاء ، هكذا تقول المصادر ، غير أنها لم تمثل له إلا بمثال واحد ، وهو : "أنطي " بدلاً من "أعطى ".

ومن شواهده : القراءة القرآنية :" إنا أنطيناك الكوثر " وحديث الدعاء :" لا مانع لما أنطيت ، ولا منطي لما منعت "، وحديث :"اليد المنطية خير من اليد السفلى " ومنه قول الأعشى :

جيادك في القيظ في نعمة تصان الجلال وتنطى الشعيرا

وهذا الإبدال شائع في كلمة "أعطى" حتى اليوم في العراق ظو وقد سمعت ذلك من كثير من طلبتي العراقيين ، كما انه شائع في لغة الأعراب بصحاري مصر وشائع أيضاً في بعض قرى فلسطين .

والتوزيع الجغرافي لمواطن النطق بالصيغة (أنطى) قديما وحديثا ، يبين أنها كانت توجد على طرق القوافل من الجنوب إلى الشمال ، ومن ثم فإن احتمال انتقال هذه الصيغة من الجنوب ، أي من بلاد اليمن ، على طول طريق رحلتي الشتاء والصيف ، احتمال مقبول .

والحقيقة أن الاستنطاء ليس ظاهرة عامة ، عند القبائل التي روى عنها ، في كل عين ساكنة تجاور طاء، كما تقول المصادر العربية ، وإنما هو خاص بكلمة "أعطى" وحدها .

وتفسير هذه الظاهرة بأن العين قلبت نونا تفسير لا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة ، لأن العين تختلف اختلافا كبيرا من الناحية الصوتية عن النون ،ومن المعروف أن الصوت لا يقلب إلى صوت آخر ، إلا إذا كان بين الصوتين ، نوع من القرابة الصوتية في المخرج والصفة . وقد فطن إلى هذا اللغويون العرب أنفسهم ، يقول ابن جنى :"القلب في الحروف ، إنما هو تقارب منها ، وذلك الدال والطاء والتاء والذال والظاء والثاء والهاء والهمزة والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه ، فاما الحاء فبعيدة عن الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها.

ولولا هذا البعد الصوتي ، لحدث الإبدال عند القبائل التي روي عنها ، الاستنطاء ، في كلمات كثيرة وقعت فيها العين ساكنة قبل الطاء ، مثل :"يعطب " و"معطير " و"يعطس " و"يعطش" و"يعطف" و"يعطل" و"يعطن" و"يعطو" وغير ذلك من الأمثلة .

ولكن المصادر العربية لم ترو لنا إلا كلمة : "أنطى " في "أعطى " وهو ما نعرفه اليوم في اللهجات الحديثة ، كما سبق أن عرفنا ، فما السر الحقيقي إذن في ورود هذه الكلمة عن بعض القبائل العربية ؟

ويفسر الدكتور إبراهيم السامرائي هذه الظاهرة ، تفسيرا عربيا خالصا ، فيقول : "وملاك الأمر في هذه النون ، أنها لم تكن مقابلة للعين في أعطى ، وإنما جاءت من أن الفعل كان (آتى) بمعنى (أعطى) ، ثم ضعف الفعل فصار (أتى)بتشديد التاء ، ومعلوم أن فك الإدغام في العربية وفي غيرها من اللغات السامية ، يقتضي إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين ، كما نقول في العربية (جندل) وهي من (جدل)، بتشديد الدال ، وهذا كثير معروف .

٢- التلتلة

هذه الظاهرة عبارة عن كسر حرف المضارعة ، فيقال :أنا إعلم ، ونحن نعلم وأنت تعلم ، وهو يعلم ، وما إلى ذلك . وهي لقب لقبيلة "بهراء" كما يذكر كثير من المصادر العربية ، وعزاها صاحب لسان العرب ، إلى كثير من القبائل العربية ، فقال : " وتعلم بالكسر لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وعامة العرب ،وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن ، وأزد السراة ،وبعض هذيل ، فيقولون : تعلم ، والقرآن عليها ، وزعم الأخفش أم كل من ورد علينا من الأعراب ، لم يقل إلا تعلم ، بالكسر ، ويقول الفراء إن النون في نستعين مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم بكسرها .

وقد جاءت هذه الظاهرة ، في رجز لحكيم بن معية الربعي ، وهو :

لو قلت ما في قومها لم تيثم   يفضلها في حسب وميسم

أي "لم تأثم" التي صار بعد كسر حرف المضارعة :"تئثم"، وخففت الهمزة فصارت :"تيثم"، كما في البيت .

وقد روى ابن جنى بيتاً عن أعرابي من بني عقيل ظو كسر فيه الهمزة في الفعل :"أخاف "، فقال :وأنشدني عقيلي فصيح لنفسه:

فقومي هم تميم يا مماري   وجوثة ما إخاف لهم كثارا
فكسر الهمزة من :"إخاف ".

كما روي ابن الأنباري بيتاً للمرار ، كسر فيه التاء من "تعلم " في قوله :
قد تعلم الخيل أياما تطاعنها   من أي شنشنة أنت ابن منظور
وقال بعده :" قال أبو بكر : قال أبي أنشدنيه أبو جعفر : قد تعلم بكسر التاء ، وقال : هي لغة بني أسد ، يقولون : يعلم وإعلم ونعلم ، ومثله كثير ".

وهذه الظاهرة سامية قديمة ، توجد في العبرية والسريانية والحبشية والفتح في أحرف المضارعة حادث – في رأيي – في العربية القديمة ، بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى ، وبدليل ما بقي من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة .

وهناك دليل ثالث على أصالة الكسر في حرف المضارعة ، وهو استمراره حتى الآن في اللهجات العربية الحديثة كلها ، إذ نقول مثلا :" مين يقرأ ومين يسمع "، بكسر حرف المضارعة في لغة التخاطب اليومية .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم في العربية الفصحى نفسها ، في بعض الأمثلة ، إذ يكسر في الفصحى حرف المضارعة في : "إدخال " بمعنى "أظن " في كثير من النصوص التي وصلت إلينا ، ومن شواهده قول أبي ذؤيب الهذلي :
فغبرت بعدهم بعيش ناصب   وإخال أني لاحق مستتبع
وقول العباس بن مرداس :
قد كان قومك يحسبونك سيدا   وإخال أنك سيد معيون
وقول زهير بن ابي سلمى :
وما أدرى وسوف إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء
وقول كعب بن زهير :
أرجو وآمل أن تدنو مودتها   وما إخال الدنيا منك تنويل

وهذا ما يسميه البعض بالركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة . ومعناه أن الظاهرة اللغوية ، قبل أن تموت ، قد تبقى منها أمثلة ، تعين على معرفة الأصل.

٣- الشنشنة

روت المصادر هذا اللقب منسوبا إلى لغة اليمن ، ورواه ابن عبد ربه لقبيلة تغلب وهو عبارة عن جعل الكاف شيناً مطلقاً ، فقد سمع بعض أهل اليمن في عرفة يقول " لبيش اللهم لبيش " أي لبيك .

ولا يزال هذا النطق شائعاً في بعض الأمثلة ، في عامية " حضرموت " ، إذ يقولون : " عليش " بدلا من :" عليك "

وتتفق هذه الظاهرة من بعض الوجوه ، مع ظاهرة "الكشكشة " ، وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

٤- الطمطمانية

ينسب هذا اللقب إلى طيء والأزد ، وإلى قبائل حمير في جنوبيالجزيرة العربية ، وهو عبارة عن إبدال لام التعريف " ميما" فيقال مثلا : "طاب امهوا وصفا امجو " أي طاب الهواء وصفا الجو .

ويروون من شواهد هذه الظاهرة " ماجاء في الآثار ، فيما رواه النمر بن تولب أنه صلى الله عليه وسلم ، نطق بهذه اللغة في قوله : ليس من امبر امصيام في امسفر ، يريد : ليس من البر الصيام في السفر"

ومن شواهدها قول بجير بن عتمة الطائي ، أحد بني بولان :

ذاك خليلي وذو يعاتبني يرمي ورائي بامسهم وامسلمة

وسمع الأخفش من يقول :" قام امرجل ، يريد : الرجل . قال أبو العباس (ثعلب): هذه لغة للأزد مشهورة .

كما وردت في كلام قاله ذو الكلاع الحميري :ط عليك امرأى وعلينا امفعال " أي عليك الرأي وعلينا الفعال .

وقد سمع ابن دريد هذه اللهجة في عصر ه باليمن ، فقال :" وكبار في وزن فعال ، وهي لغة يمانية ، أهل اليمن يسمون الرجل الكبير كبارا ، وذو كبار رجل منهم . وسمعت رجلا يقول : أم شيخ أم كبار ضرب رأسه بالعصو ، أي بالعصا كما سمعها الهمداني في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية ، فقال :"سرو حميرة وجعدة ، ليسوا بفصحاء ، وفي كلامهم شيء من التحمير ، ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون : يا ابن معم ، في يا ابن العم "

وقال كذلك :"وبلد سفيان بن أرحب فصحاء ، إلا في مثل قولهم : أم رجل ، وقيد بعيراك ، ورأيت أخواك . ويشركهم في إبدال الميم من اللام في الرجل والبعير وما أشبهه :الأشعر وعك ، وبعض أهل تهامة "

وفي كل هذه الأمثلة السابق ، تستوي أل الشمسية ، وأل القمرية ، في إبدال لامهاميما ، وقيل إن هذه اللغة مختصة بالأسماء التي لا تدغم لام التعريف في أولها ، نحو غلام وكتاب ، بخلاف رجل وناس ولباس . قال ابن هشام النحوي : " وحكى لنا بعض طلبة اليمن أنه سمع في بلادهم من يقول :خذ الرمح واركب امفرس ، ولعل ذلك لغة لبعضهم لا لجميعهم ، ألا ترى إلى البيت (يرمي ورائي بامسهم وامسلمه)، وأنها في الحديث (ليس من اميرامصيام في امسفر) دخلت على النوعين ".

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة ، هو أن اللام والميم من فصيلة واحدة ، وهي فصيلة الأصوات المتوسطة أو المائعة Liquida وهي مجموعة اللام والميم والنون والراء ، وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيراً في اللغات السامية .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في بعض جهات اليمن ، كما أن منها كلمة في اللهجة المصرية ، وهي كلمة " البارحة " التي ينطقها المصريون :"امبارح " !وفي فلسطين والأردن وأغلب الأقطار العربية .

٥- العجرفية

ورد هذا اللقب في كلام ثعلب السابق :" ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم (وتلتلة بهراء) وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة " . وقد نسبه ثعلب كمانرى لقبيلة " ضبة " ، ولم يفسره أويشرح المراد منه ، وكذلك سكت كل من نقل هذا النص عنه ، فلم يتحدثوا عنه بكلمة واحدة ، فيما عدا صاحب محاضرات الأدباء ، الذي عم في شرحه بقوله:"والعجرفية جفاء في الكلام".

٦- العجعجة

ينسب هذا اللفظ إلى "قضاعة " ، فقد حكى الأزهري عن أبي زيد أنه قال :"والعجعجة في قضاعة ، كالعنعنة في تميم ، يحولون الياء جيماً . كقوله :

المطعمون اللحم بالعشج
وبالغداة كسر البرنج
يقلع بالود وبالصيصج
أراد :بالعشي والبرني وبالصيصي "

ولم يقيد أبو زيد في هذا النص "الياء " بالتشديد ، وإن كانت الياءات في الأبيات التي استشهد بها مشددة . وقد نص على تشيد الياء السيوطي فقال : " ومن ذلك العجعة في لغة قضاعة ، يجعلون الياء المشددة جيما ، يقولون في تميمي : تميمج"

غير أن الباحث في كتب اللغة يعثر على أمثلة كثيرة ، أبدلت فيها الياء المخففة جيما، يقول ثعلب :" أبدلت من الياء الجيم في التشديد ، لقرب مخرجها ، ولابأس أن تجيء في الياء المخففة ، مثل :حجتي . أنشد:

يارب إن كنت قبلت حجتج
فلا يزال شاحج يأتيك بج

وزاد الفراء على هذين البيتين قوله :

أقمر نهات ينزي وفرتج

يريد هذا الراجز : حجتي ، ويأتيك بي ، وبنزي وفرتي ، وكلها أمثلة لياء المتكلم ، وهي ليست ياء مشددة .

وقال أبو عمرو :" وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا إلى الجيم . قال الفراء:وذلك في بني دبير من بني أسد خاصة ونص البغدادي على أن بعض بني سعد يبدلون الياء شديدة كانت أو خفيفة ، جيما في الوقف.

ولعل عبارة "في الوقف " في هذا النص الأخير ، مما يزيل الخلاف بين هذه الآراء ،فمن أنواع الوقف بالتضعيف ، أي تشديد آخر الكلمة عند الوقف عليها ،فيقال :"جاء خالد"، فلعل هذه الأمثلة السابقة لشاعر من هؤلاء الذي يقفون بالتضعيف ، فيقولون :"حجتي " و"بي" و "فرتي" ، حتى يمكن الحديث عن قلب الياء جيما ، لأن المتكلم ، وهي ياء المد في الأمثلة السابقة

وغيرها ، ليست حرفا صامتا، كالذي في مثل :"يقع" مثلا، وإنما هي كسرة طويلة .وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ، فقال :"ويظهر أن الياء فيما ساقوه من أمثلة ، لم تكن في نطق القضاعيين ياء مد ، بل كانت صوتا ساكنا ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم "، وهذا صحيح ،لأن الذي يقلب إلى الصوت الصامت ، وهو صوت صامت مثله ، ولم نعهد ذلك في حركة قصيرة كانت أو طويلة .والذي يسهل لإبدال الياء جيما، هو اتحادهما في المخرج ، وهو الغار أو سقف الحنك الصلب ، وكونهما مجهورين ، أي تهتز معهما الأوتار الصوتية ، والفارق الوحيد بينهما ، هو أن الجيم من الأصوات التي تجمع في نطقها بين الشدة والرخاوة ،أو بعبارة أخرى بين الانفجار والاحتكاك ، أما الياء فهي من الأصوات المتوسطة ، التي فيها بعض الرخاوة ،أو بمعنى آخر تنطق بشيء من الاحتكاك .

ولهذا السبب ،لانعجب ، حين نرى الصوتين ، يتبادلان في اللهجات العربية القديمة والحديثة ، فهذه هي "العجعجة " عند قضاعة ، وهي إبدال الياء جيما. وهناك عكس هذه الظاهرة ، وهو إبدال الجيم ياء ، فقد روي أن تميم يقولون في :"الصهريج" وفي جمعه :"الصهاريج" ، وهو الذي يجتمع فيه الماء: "الصهري والصهاري" ، كما روى عن أبي عبيدة أنه قال :"يقال :لاأفعله جدا الدهر ، مفتوح الأول منقوص ، في معنى : لاأفعل ذلك يد الدهر ، أي لآخر الدهر ، كما روى أبو زيد أن بعض بني تميم قال :"شيرة " لشجرة .

وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكن الله من شيرات

تريد "شجرات".

وهذه الظاهرة تشيع في عصرنا الحاضر ، في بعض قرى جنوبي العراق ، وبعض بلدان الخليج العربي ، إذ يقولون في "مسجد" مثلا :"مسيد" ، وفي "دجاج ":"ديای" وغير ذلك.

وتنسب ظاهرة "العجعجة "كذلك إلى بعض بني حنظلة ، فقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال :"قلت لرجل من بني حنظلة :ممن أنت ؟ فقال : فقيمج . قال : فقلت : من أيهم ؟ فقال :مرج ، يريد : فقيمي ومري . كما تنسب هذه الظاهرة كذلك إلى " بعض بني سعد " ، كما رأينا في نص البغدادي السابق ، ويقول سيبويه كذلك : "وأما ناس من بني سعد ، فأنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الموقف ،لأنها خفية فأبدلوا من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمج، يريدون : تميمي ، وهذا علج ، يريدون : علي . وسمعت بعضهم يقول : عربانج ، يريد :عرباني . وحدثني من سمعهم يقولون :

خالي عويف وأبو علج
المطعمان الشحم بالعشج
وبالغداة فلق البرنج ، يريد : بالعشي والبرني ، فزعم أنهم أنشدوه هكذا .
وقد أبدل راجزهم " هميان بن قحافة السعدي " الياء المشددة جيما،ثم اضطر إلى تخفيف الجيم في قوله : يطير عنها الوبر الصهابجا
يريد :" الصهابي ". وزعم الفراء أنها لطيء وأنشد :

نعما ولدت رضوى لزبان بن كندج
وحوصاء ورألان اللذي دلا على الحج

أراد : ابن كندي ، واللذي : يريد اللذين ، دلا على الحج ، أي على الحي ، أي بشرفهما نبها على حيهما .
ويقيد " حفني ناصف " الياء التي تبدل جيما ، بوقوعها بعد العين فيقول : "تبدل الياء الواقعة بعد عين جيما في لغة قضاعة ، فيقولون : الراعج خرج معج ، أي الراعي خرج معي " . ولست أدري من أين نقله ، على أن هذا القيد ليس له مايبرره من الناحية الصوتية ، واللهم إلا تبرير اللقب الذي وصفت به تلك الظاهرة :"العجعجة ".!

٧- العنعنة

يعزى هذا اللقب إلى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم ، وإن اشتهر بإضافته إلى "تميم" من بين هذه القبائل جميعها .
ويختلف اللغويون العرب ، في تحديد المراد بهذا اللقب ، فأما الفراء وثعلب ، فيجعلانه خاصا بالحرف أن (أو أن)المفتوح الهمزة ، وينص الفراء على ذلك صراحة فيقول :" لغة قريش ومن جاورهم : أن . وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم ، يجعلون ألف أن ، إذا كانت مفتوحة عيناً ، يقولون :أشهد عنك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف .
ويقول الفراء كذلك :كما جعلوا مكان الهمزة عيناً في قوله :لعنك قائم ، وأشهد عنك رسول الله ، وهي لغة في تميم وقيس كثيرة .
أما ثعلب ، فإنه وإن لم ينص على ذلك صراحة ، فإن أمثلته كلها تدور حول "أن" المفتوحة الهمزة ، إذ يقول : فأما عنعنة تميم ، فإن تميما تقول في موضع أن :عن ،تقول: ظننت عن عبد الله قائم . قال (الأصمعي):وسمعت ذا الرمة ، ينشد عبد الملك :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

قال : وسمعت ابن هرمة ينشد هارون (الرشيد) ، وكان ابن هرمة ربى في ديار تميم :

أعن تغنت على ساق مطوقة ورقاء تدعو هديلا فوق أعواد

ومن ذلك أيضا قول جران العود :

فما أبن حتى قلن يا ليت عننا تراب وعن الأرض بالناس تخسف

وبينما يحدد الفراء وثعلب لهذه الظاهرة (أن) المفتوحة ، نجد السيوطي لا يخصصها بأن وحدها ، وإنما يشترط أن تكون الهمزة مبدوءا بها فحسب ، يقول :ومن ذلك العنعنة ، وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عينا ، فيقولون في إنك : عنك ، وفي أسلم :عسلم ، وفي أذن : عذن .

ومثل هذا الاضطراب في الرواية " ليس له من سبب ، سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصا ، وأن الأمر في كل رواية ، لايعدو أن يكون حكما خاصا ، مبنيا على مثال خاص ، سمعه الراوي دون استقراء لباقي الحالات ، فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون في (أن) مفتوحة ، ليس له مايبرره من الناحية الصوتية .

وأغلب الظن أن تخصيصه بأن المفتوحة ، تبرير لهذا اللقب الذي وصفت به الظاهرة : العنعنة . والحقيقة أن هذا الإبدال عام في كل همزة ، عند تميم ومن جاورهم ، والدليل على هذا قول الخليل بن أحمد الفراهيدي : والخبع : الخبء في لغة تميم ، يجعلون بدل الهمزة عينا.وقال ابن دريد : وخبع الرجل في المكان ، إذا دخل فيه ، وأحسب أن هذه العين همزة ، لأن بني تميم يحققون الهمزة ، فيجعلونها عينا فيقولون : هذا خباعنا ، يريدون : خباؤنا.وإبدال الهمزة عينا هنا ، نوع من المبالغة في تحقيق الهمز ، كما يستفاد من نص ابن دريد ، وذلك على طريقة نطق بعض أهالي صعيد مصر : " لع" في "لأ" مثلا . وأهل النوبة والسودانيون يقع في كلامهم هذا الإبدال كثيرا في أيامنا هذه ، فقد سمعت بعضهم يقولون مثلا :"فلان سعل عليك " ، يعني :" سأل". وقد رويت لنا في العربية القديمة أمثلة كثيرة ،لانقلاب الهمزة عينا ، وأغلب الظن أنها من عنعنة تميم كذلك ، مثل قولهم :"صبأت على القوم وصبعت عليهم ، وهو أن تدخل عليهم غيرهم ، وقولهم :"انجأفت النحلة وانجعفت ،إذا انقلعت من أصلها ، وقولهم :" الأسن : قديم الشحم ، وبعضهم يقول : العسن " وغير ذلك.

٨- الغمغمة

ينسب هذا اللقب إلى قضاعة ، وهو من الألقاب التي أبهم اللغويون العرب في تحديدها ، فقالوا في تعريفها كلاما عاما لايفيدنا ، يقول المبرد وهو يشرح كلام الرجل الجرمي السابق أمام معاوية : والغمغمة أن تسمع الصوت ، ولا يتبين لك تقطيع الحروف . ويقول الحريري : وأما غمغمة قضاعة ، فصوت لايفهم تقطيع حروفه . ويقول ابن يعيش : والغمغمة أن لايتبين الكلام . وأصله أصوات الثيران عند الذعر ، وأصوات الأبطال عند القتال .

وفي النفس شيء من هذا اللقب ، وأكاد أميل إلى أنه تحريف قديم لكلمة عجعجة قضاعة ، وقع فيه الجاحظ ومن جاءوا بعده ، ممن رووا خبر الرجل الجرمي أمام معاوية ، وحاولوا تفسيره !

٩- الفحفحة

ينسب هذا اللقب إلى قبيلة هذيل ، باتفاق جميع اللغويين ، وهم يقولون إنه عبارة عن قلب الحاء عينا . وقد قرىء به في القرآن الكريم في قوله تعالى :(حتى حين) يقول ابن جني : روى عن عمر أنه سمع رجلا يقرأ "عتى حين" ، فقال :من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب إليه :إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربيا، وأنزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام.

ويبدو من هذه الرواية –إن صحت – أن هذه الظاهرة لم تكن عامة في كل "حاء" عند قبيلة هذيل ، إذ لم تقلب الحاء عينا في كلمة (حين) المجاورة لكلمة (حتى) في الاية القرآنية ، أي أن هذا الإبدال خاص بكلمة (حتى).

ومما يقوي هذا الظن قول أبي عبيدة : قوم يحولون حاء حتى ، فيجعلونها عينا ، كقولك : قم عتى آتيك. وقال أبالطيب اللغوي :ويقال :اصبر حتى آتيك ، وعتى آتيك.

وهذا يذكر بما يقابل كلمة "حتى" في العبرية والآرامية ، فهي في الأولى( ) وفي الثانية ( ) أي العين والدال ، أي أنه كما جهرت الحاء في لغة هذيل فأصبحت عينا ، فإن هذا هو ماحدثةفي هاتين اللغتين ، وزاد الأمر فيهما أن تماثلت التاء مع العين ، فجهرت هي الأخرى ، فصارت دالا.

ويرى "رابين " أن (عتى) منحوتة من (حتى) العربية ، و(عد) أو (عدى) التي توجد في السبيئة كذلك.

١٠- القطعة

هذا اللقب يعزى إلى قبيلة طيء ، وهو عبارة عن قطع اللفظ قبل تمامه، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي : والقطعة في طيء كالعنعنة في تميم ، وهي أن يقول : ياأبا الحكا ، وهو يريد: ياأبا الحكم ، فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة .فالقطعة على هذا نوع من ترخيم اللفظ ، كما نقول نحن الآن في مصر: "ياول" في :"ياولد" و"سلخى" في :"مساء الخير"، وهي "لغة كثير من البلاد المصرية الآن ، كالمحلة الكبرى وما حولها ، وجزيرة بني نصر ، وأبيار وكثير من مديريتي البحيرة وبني سويف ، يقولون : النهار طلا ، أي طلع ، والنور ظها، أي ظهر ، وخمدت النا، أي النار ، وهلم جرا.

١١- الكسكسة

يعزى هذا اللقب إلى قبيلة " بكر" ، كما يعزى إلى "هوازن " وعن الفراء أنه في لغة " ربيعة ومضر وفي القاموس المحيط أن الكسكسة لغة لتميم لا لبكر .

واختلف اللغويون في تحديد المقصود بالكسكسة ،فذهب المبرد إلى أن قوما من بكر ، يبدلون من الكاف سينا ، ولكن أكثر القبيلة لا يجرون هذا الإبدال على الكاف ، وإنما يتبعون كاف المؤنثة في الوقف سينا ، يقول المبرد : وأما بكر فتختلف في الكسكسة ، فقوم منهم يبدلون من الكاف سينا ...وهو أقلهم ،

وقوم يبينون حركة كاف المؤنث في الوقف بالسين ، فيزيدونها بعدها ، فيقولون أعطيتكس .واقتصر بعض اللغويين على القول بأن الكسكسة هي إبدال كاف المخاطبة سينا ، كما اقتصر على القول بأنها زيادة سين على كاف المخاطبة في الوقف.والأصل في هذا قول سيبويه : واعلم أن ناسا من العرب يلحقون الكاف السين ، ليبينوا كسرة التأنيث ، وإنما ألحقوا السين لأنها قد تكون من حروف الزيادة في استفعل ، وذلك : أعطيتكس وأكرمكس ،فإذا وصلوا لم يجيئوا بها ، لأن الكسرة تبين .كما يزعم الفراء أن الكسكسة عبارة عن إلحاق كاف المذكر سينا في لغة ربيعة ومضر ، فرقا بين خطابي المذكر والمؤنث عند الوقف .ولارتباط هذا اللقب بلقب الكشكشة الذي يأتي عقيب هذا ، ولخلط اللغويين أحدهما بالآخر ، نعالجهما علاجا واحداً ، بعد عرض آرائهم في الكشكشة فيما يلي .

١٢- الكشكشة

يعزى هذا اللقب إلى ربيعة ومضر ، كما يعزى إلى بكر وبني عمرو بن تميم وناس من أسد .وهذه الظاهرة عند اللغويين ، عبارة عن إبدال كاف المؤنث في الوقف شينا ، أو إلحاقها شينا ، وقد ذكر سيبويه هذين المذهبين من مذاهب العرب في الكشكشة ، فقال : فأما ناس كثير من تميم ، وناس من أسد ، فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين ، وذلك أنهم أرادوا البيان في الوقف ، لأنها ساكنة في الوقف ، فأرادوا أن يفصلوا بين المذكر والمؤنث ، وأرادوا التحقيق والتوكيد في الفصل ، لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف كان أقوى من أن يفصلوا بحركة ... وذلك قولك : إنش ذاهبة ، ومالش ذاهبة ، يريد : إنك ومالك .... وقوم يلحقون الشين ، ليبينوا بها الكسرة في الوقف ، كما أبدلوا مكانها للبيان ، وذلك قولهم : أعطيتكش وأكرمكش ، فإذا وصلوا تركوها .

ويفهم من هذا الكلام لسيبويه ، أن الكشكشة خاصة بكاف المؤنث في الوقف ، وإن كانت أمثلته في إبدالها شينا ، وهي : إنش ذاهبة ، ومالش ذاهبة ، ولاتصلح فيما يبدو إلا للوصل .

وقد أورد اللغويون بعض الشواهد على إبدال كاف المؤنث شينا في الوقف منها قول رؤبة :

تضحك مني أن رأتني أحترش
ولو حرشت لكشفت عن حرش
عن واسع يغرق فيه القنفرش

أي عن حرك، فحول كاف المخاطبة شينا في الوقف ، لأنها في القافية .

وكذلك قول الراجز :

هل لك أن تنتفعي وأنفعش

فتدخلين اللذ معي في اللذ معش

كما أورد المبرد قولهم للمرأة : جعل الله البركة في دارش ، وقولهم : ويحك مالش .والمثال الأخير تظهر فيه كافان للمؤنث ، إحداهما في " ويحك" في الوصل ، وقد بقيت كافا ، والأخرى في "مالك" في الوقف وقد قلبت شينا .
وقد ذكر المبرد ذلك صراحة ، فقال :والتي يدرجونها يدعونها كافا ، والتي يقفون عليها يبدلونها شينا.

غير أن هناك شواهد كثيرة على قلب كاف المؤنث شينا في الوصل كذلك منها قول مجنون ليلى :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها   ولكن عظم الساق منش دقيق

وقول الراجز :

يا دار حييت ومن ألمم بش
عهدي ومن يحلل بواديش يعش

وقول الشاعر :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها   ولونش إلا أنها غير عاطل

ومن شواهد القلب في الوصل قراءة من قرأ : "قد جعل ربش تحتش سريا" لقوله تعالى :(قد جعل ربك تحتك سريا) ، وكذلك قراءة من قرأ :" إن الله اصطفاش وطهرش " لقوله تعالى :(إن الله اصطفاك وطهرك).كما رووا أن أعرابية نادت جارية فقالت : تعالي إلى مولاش يناديش ، ومن كلامهم أيضا : إذا أعياش جارانش فأقبلي علي ذى بيتش .

بل لقد رووا بعض الشواهد التي نرى فيها ظاهرة الكشكشة ، بقلب الكاف شينا ، في غير الكاف المؤنث ، مثل قول الراجز :

على فيما أبتغي أبغيش
بيضاء ترضيني ولاترضيش
و تطبي ود بني أبيش
إذا دنوت جعلت تنئيش
وإن نأيت جعلت تدنيش
وإن تكلمت حثت في فيش
حتى تنقى كنيق الديش

أما إلحاق كاف المؤنث شينا ، فلم يوردوا له شواهد من الشعر أو من النثر ، وإنما اكتفوا بالتمثيل لذلك بقولهم : فيقولون :رأيتكش وبكش وعليكش .

والآن ، وبعد أن انتهينا من سرد الروايات الخاصة بالكسكسة والكشكشة ، في بطون كتب اللغة والأدب في العربية ، نلاحظ مايلي :

تعزو الروايات التي بين أيدينا ، ظاهرتي الكسكسة والكشكشة أحيانا إلى قبيلة واحدة ، كنسبة الفراء الكسكسة إلى ربيعة ومضر ، والشائع هو نسب الكشكشة إليهما ، كما أنه انفرد بتفسير الكسكسة عندئذ بأنها إلحاق كاف المذكر سينا ! ولم يقل أحد غيره بمثل ذلك –كما أن ابن دريد والبلوي ،

ينفردان بنسبة الكشكشة إلى بكر . والشائع هو نسبة الكسكسة إليها . ويبدو أن المسئول عن هذا الخلط ، هو قبول الكلمة للتصحيف في السين والشين !!
يبدو من مجموع الروايات أن ظاهرتي الكسكسة والكشكشة تنحصر في أمرين : إلحاق الكاف المكسورة سينا (في الكسكسة) وشينا (في الكشكشة) أو إبدالها سينا أو شينا كذلك .والظاهر أن الأمر الأول تفسير من اللغويين لما سمعوه ، ولم يستطيعوا كتابته ، إذ إن هذه الكاف لم تلحق بسين أو شين كما ظنوا ، وإنما تحولت إلى صوت من الأصوات المزدوجة المسماة باللاتينية **Affricata** فقد وصل العلماء في مقارنتهم اللغة السنسكريتية ، باللغتين اليونانية واللاتينية ، إلى قانون صوتي سموه (قانون الأصوات الحنكية) في أواخر القرن التاسع عشر ، ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية ، حين يليها صوت لين أمامي كالكسرة ، لأن صوت اللين الأمامي في مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك ، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك .
وهذا معناه أن الكاف المكسورة ، تتحول في هذه اللهجات إلى صوت مزدوج ، هو "تس" وهذه الكسكسة ، أو "تش" وهذه الكشكشة . والصوت الأول يوجد في الألمانية في مثل **Leipzig** "ليبتسج". والثاني يوجد في الإنجليزية في مثل : **Children** بمعنى أولاد.
ويبدو أن ابن دريد قد أحس بهذا النطق ، وإن لم تتهيأ له الدقة في وصفه ، حين قال :" وإذا اضطر الذي هذه لغته قال : جيدش وغلامش ، بين الجيم والشين ، إذا لم يتهيأ له أن يفرده ! كما يقول البلوى : ومن العرب من يلفظ بهذه الكاف بين الجيم والشين ، وذلك من اللغات من اللغات المرغوب عنها ، لما لم يتهيأ له أن يفرد الجيم ولا الشين .
وما تزال هذه الكسكسة بتلك الصورة ، حية في مناطق نجد من الجزيرة العربية ، فقد سمعهم يقولون مثلا : (تسيف حالتس ؟) في : (كيف حالك ؟)، كما أن الكشكشة لا تزال مسموعة في جنوبي العراق والكويت والبحرين ، وبعض قرى محافظة الزقازيق في مصر ، إذ تسمعهم هناك يقولون :(تشلب) في : (كلب) مثلا.
وهذه الازدواجية ، التي حدثت للكاف العربية في هذه اللهجات ، حدثت للجيم السامية في العربية الفصحى ، أي أن الأصل في صوت الجيم ، هو عدم التعطيش ، وقد تطورت الجيم في الفصحى ، عن نطق يشبه نطق هذا الحرف الأصلي ، كان كما هو الآن في مصر ، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقية ، فمثلا كلمة (جمل) في العبرية **gamal** وفي السريانية **gamla** وفي الحبشية **gamal** .
يبدو أن ظاهرتي الكسكسة والكشكشة كانتا مقيدتين في الأصل بكاف مكسورة ، حتى يمكن لقانون (الأصوات الحنكية) أن يلعب دوره . أما تقييد القدماء ذلك بكاف المؤنثة ، فهو مبني – فيما يظهر- على استقراء ناقص ، وعندما

عثروا على مثال يعارض قواعدهم ، وهو : الديش ، في الرجز الذي سقناه من قبل ، لجأوا في تفسيره إلى نظرية القياس ، فقالوا: شبه كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث . ويبدو أن ثعلباً قد فطن إلى ذلك ولم يتقيد بكاف المؤنث كغيره من اللغويين .
تقييد اللغويين لظاهرتي الكسكسة والكشكشة بالوقف ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية ، حتى وإن قالوا بأن الكسرة الدالة على التأنيث تختفي في الوقف ، فزادوا على هذه الكاف في الوقف شيناً حرصاً على البيان ،لأن هذا الحرص على البيان سيكون في هذه الحالة قصدا للمتكلم ، وليس ضرورة صوتية تحتمها أعضاء النطق في الوقف. والدليل على ذلك أيضا تلك الشواهد الكثيرة التي ساقها اللغويون لهذه الظاهرة في حالة الوصل ، وإن تحايل بعضهم على ذلك بالعلة المشهورة ، وهي :إجراء الوصل مجرى الوقف. بقي بعد هذا تفسير النصف الثاني من ظاهرتي الكسكسة والكشكشة ، بأنها إبدال الكاف سينا في الكسكسة وشينا في الكشكشة . ومن الممكن القول بأن اللغويين القدماء سمعوا الازدواجية في الكاف ، ولم يستطيعوا كتابتها بالضبط فدلوا عليها مرة بالكاف والشين ، ومرة أخرى بالشين وحدها ، لولا أن هذه الظاهرة لا تزال موجودة في بعض مناطق الجزيرة العربية ، كمنطقة عسير التي يقول أهلها مثلا : (أبوش وأمش) في : (أبوك وأمك) .
وما الظاهرة المعروفة (بشنشنة اليمن) التي سبق ذكرها هنا ،إلا شيء من هذا فقد قالوا عنها إنها عبارة عن جعل الكاف شينا .
وتفسير ذلك سهل ، فإن الملاحظ في التطور اللغوي ، أن الأصوات المزدوجة تميل في تطورها ،إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها ، وهذا هو صوت الجيم . وهو – كما عرفناه من قبل – من الأصوات المزدوجة في الفصحى ، نراه وهوالمكون من دال مخرجها من الغار يعقبها شين مهجورة ، ينحل في اللهجات العامية ، إلى أحد هذين الصوتين ، فمثال تطوره إلى الدال : "دشيش" في "حشيش" و "دشع " في "جشع " ، ومثال تطوره إلى الشين المهجورة :النطق الشامي للجيم في الوقت الحاضر . وقد ضاع الحهر في بعض الكلمات ، وصارت الجيم شينا مهموسة ، كالشين القديمة مثل "فشر" في "فجر" ، "واشترت الدابة" في " اجترت " .

وقد روي لنا هذا التطور الأخير عن قبيلة تميم التي تقول : "شر ما يشيئك إلى مخة عرقوب " بمعنى "يجيئك" . ويقول زهير بن ذؤيب العدوي :
فيال تميم صابروا قد أشئتم إليه وكونوا كالمحربة البسل
أي قد أجئتم .
وعلى ذلك يمكن القول ، بأن الكسكسة بإبدال الكاف سينا ، والكشكشة بإبدال الكاف شينا ، ليستا إلا تطوراً على هذا الطريق ، من الصوتين المزدوجين :
تس > س ، تش >ش.

ولكانتينو رأى غريب في تفسير الكسكسة والكشكشة ، بمعنى إلحاق الكاف سينا أو شينا ، إذ يريد إرجاعهما إلى عجعجة قضاعة ، فيقول : ويبدو أنه يجب رد إتباع كاف المخاطبة عند الوقف بشين عند مضر وربيعة ، وبسين عند بني بكر، إلى هذه الخاصية . ومن المحتمل أنه ينبغي تفسير ذلك ، بتخيل صيغة أولى لهذه الكاف ، أي (كى) بكسرة طويلة ، ثم تصير إلى (كى) ثم إلى (كج) ، وأخيرا إلى (كش) أو (كس) ، بانتقال الجيم من الجهر إلى الهمس . وقد خلط العرب هذه الظاهرة الغريبة ، بظاهرة أخرى هي إبدال كاف المخاطبة شينا أو سينا مكسورتين ، وأطلقوا على الظاهرتين اسم الكشكشة والكسكسة .

هذا ومن الخطأ خلط هذه الشين ، بالشين المقتطعة من كلمة (شيء) للدلالة على النفي في اللهجات العامية الحديثة ، وقد وقع في هذا الأستاذ عز التنوخي في قوله : ولاتزال العامة في فلسطين ومصر ، يزيدون الشين بعد الكاف للمذكر والمؤنث معا ، فيقولون : ما أعطيتكش ، بلغة أسد وتميم .

١٣- اللخلخانية

هذا اللقب لم يعرف القدماء معناه على وجه التحديد ، فأطلقوا معناه إطلاقا ، وقالوا :هو اللكنة في الكلام والعجمة . والمسئول عن هذا التفسير فيما يبدو ، هو أبوعبيد القاسم بن سلام الهروي (المتوفى سنة ٢٢٤ه) فهو يقول :"سمعت محمد بن الحسن بإسناد له لا أحفظه ، عن رجل سماه وأكناه ، أحسبه أبا الرباب ، قال : كنا بموضع كذا وكذا ، فأتانا رجل فيه لخلخانية ، قال أبو عبيد :اللخلخانية العجمة .يقال : رجل لخلخاني ، وامرأة لخلخانية ، إذا كانا لايفصحان . قال البعيث بن بشر :

سيتركها إن سلم الله جارها بنو اللخلخانيات وهي رثوع

أراد : بني العجميات .

وقال ابن سيدة ، بعد أن ذكر تفسير أبي عبيد : والتختخة اللكنة ، ورجل تختخاني ، وهو نحو اللخلخاني ، إلا أن اللخلخاني الحضري المتجهور ، المتشبه بالأعراب في كلامه .

وباللكنة في الكلام والعجمة ، فسر ابن الثير قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق ، في حديث معاوية السابق ، ثم قال : وقيل هو منسوب إلى لخلخان ، وهي قبيلة وقيل موضع. وقد مر في حديث معاوية ، في بعض الروايات ، عبارة : "فراتية العراق" بدلا من "لخلخانية العراق " فقال في تفسيرها ابن يعيش : والفراتية لغة أهل الفرات ، الذي هو نهر أهل الكوفة . والفراتان : الفرات ودجيل ، ويروى :لخلخانية العراق ، واللخلخانية :العجمة في المنطق ، يقال : رجل لخلخاني ،إذا كان لا يفصح. وأول من وضع للخلخانية تفسيرا محددا ، هو أبو منصور الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ه) ، فقال : اللخلخانية تعرض في لغات أعراب الشحر وعمان ، كقولهم : مشا الله كان ، يريدون : ماشاء

الله كان .ولا شك أن السبب في تقصير الحركة هنا ،هو انتقال النبر إلى المقطع الثاني في هذه الجملة ، والحركات الطويلة تعاني التقصير ، بسبب تحول النبر عنها كما هو مشاهد في تطور اللغات .

١٤- الوتم

يعزى هذا اللقب إلى اليمن ، وهو عبارة عن قلب السين تاء وينشد الفراء شاهدا على ذلك ، قول علباء بن أرقم:

يا قبح الله بني السعلات
عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات

يريدبالنات : الناس ، وبالأكيات : الأكياس .

ولو صح ما روي عنهم ، ولم يكن الداعي إليه في هذا الرجز ، هو ضرورة إقامة القافية على حرف واحد ، كان من السهل تفسير قلب السين تاء ، لأنهما من الناحية الصوتية متناظرتان في الرخاوة والشدة ، أي أنهما يتفقان في المخرج، وهو الأسنان واللثة ، كما يتفقان في الهمس ، وهو عدم اهتزاز الأوتار الصوتية ، ويتفقان أخيرا في الترقيق ، والفرق الوحيد بينهما هو أن السين رخوة احتكاكية ، والتاء شديدة انفجارية . والملاحظ أن الصوتين إذا تناظرا ، أمكن قلب أحدهما إلى الآخر بسهولة ، وأمامنا التناظر بين الحاء والعين ، في الهمس والجهر ، وما أدى إليه من حدوث ظاهرة "الفحفحة " التي عرضنا لها من قبل .

١٥- الوكم

يعزى هذا اللقب إلى ربيعة وقوم من كلب وناس من بكر بن وائل ، وهو عبارة عن كسر الكاف من ضمير المتصل (كم) إذا سبق بكسرة ، أو ياء ، فيقولون : "بكم " في "بكم " و"عليكم " في "عليكم " .

وتعليل هذه الظاهرة ، يخضع لقانون المماثلة بين الأصوات المتجاورة ، إذ تأثرت ضمة الكاف بما قبلها من كسرة أو ياء ، فقلبت كسرة ، لتنسجم مع ماقبلها.ولم يقف المبرد على سر هذه الظاهرة ، فخطأها بشدة حين قال : وناس من بكر بن وائل يجرون الكاف مجرى الهاء ،إذ كانت مهموسة مثلها ، وكانت علامة إضمار كالهاء ، وذلك غلط منهم فاحش ، لأنها لم تشبهها في الخفاء ، الذي من أجله جاز ذلك في الهاء ، وإنما ينبغي أن يجري الحرف مجرى غيره ، إذا أشبهه في علته ، فيقولون : مررت بكم .

١٦- الوهم

يعزى هذا اللقب إلى بني كلب كذلك ، وهو عبارة عن كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل (هم) مطلقا ، فيقولون : منهِم ،عنهِم و بينهِم ، في : منهم ، عنهم و بينهم .واللغة الفصحى تبقي الحركة الأصلية لهذا الضمير ، وهي الضم ،إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء ، فتقول : (بصاحبهم و قاضيهم وعليهم) في :(بصاحبهم و قاضيهم و عليهم)بسبب قانون المماثلة بين الحركات، تماما كما حدث في (كم) في ظاهرة الوكم السابقة ، عند ربيعة وكلب وبكر بن وائل .ولا يحدث هذا في الفصحى في ضمير الغائبين المتصل (هم) فحسب ، بل يحدث كذلك في ضمير الغائب المذكر (هـ) ، وضمير الغائبات (هن) ، وضمير المثنى للغائبين والغائبتين (هما) ، بشرط أن تسبق هذه الضمائر جميعها بكسرة طويلة أو قصيرة أو ياء.أما بنو كلب ، فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة ، في الضمير (هم) فيكسرون هاءه مطلقا ، سواء سبق بكسرة أو ياء ، أم لم يسبق بواحدة منهما ، فهم يجرون قانون المماثلة ، فيما سبق بكسرة أو ياء كما في الفصحى ، ويجرون القياس على ذلك ، فيما لم يستوف هذا الشرط .

المحاضرة الثالثة عشرة

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج

يرى اللغويون العرب القدماء، أن "السليقة" مرتبطة بالجنس والوراثة، أي أنه لا يتصور أن يسيطر على اللغة العربية غير العربي، كما أنه لا يمكن أن يتقنها إتقان العربي لها، وهم بذلك كأنما قد تصوروا أن هناك أمرًا سحريًا، هو سر السليقة، ذلك هو الجنس، فكأن الأمهات يرضعن السليقة في ألبانهن، وكأن تلك السليقة تتصل اتصالاً وثيقاً، برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودمهم.
أما "السليقة" في رأي المحدثين فهي "لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه، من حيث الأصوات وأبنية الألفاظ، وتراكيب الجمل، فهو يردي الكلام بصورة آلية، دون أن يكون له أي اختيار في هذه النواحي، بل تصدر منه دون تكاف أو تعمد، وإنما على حسب ما سمع في صغره، ممن حوله من الكبار، وعلى نفس النهج الذي يسلكونه، فالمرء يبدأ حياته مقلداً للغة أبويه، وتصادفه عقبات وعثرات في هذا التقليد، ويمر بمراحل كثيرة، قبل أن يصل على تلك التي تسمى بمرحلة السليقة. أي أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران، ولا يقال للطفل في أثناء تعلمه لغة أهله، وقبل أن يسيطر عليها: إنه يتكلمها بالسليقة؛ فلا وراثة

في السليقة اللغوية، وإنما الأمر كله رهن بالاكتساب والتقليد والمران، وعلى حسب ما تشكله البيئة، فاللغة ملك من يتعلمها، لا أثر للوراثة أو الجنس فيها؛ فالطفل الذي يولد من أبوين مصريين، ثم ينشأ بعيدًا عنهما في بيئة إنجليزية، يشب وينمو كالإنجليز تمامًا من حيث اللغة ... وليس في السليقة اللغوية، لدى المحدثين، شيء غامض أو أمر سحري، كما كان علماء العربية القدماء يظنون، حين ربطوا بينها وبين البداوة حينـًا، أو الجنس العربي حينـًا آخر؛ إذ لم يتصوروا أن الأجنبي عن العربية، يمكن أن يتقنها كأبناء العرب، مهما بذل من جهد، أو صرف من زمن.وقط فطن إلى مثل هذا من القدماء، العلامة ابن خلدون، فقال: "اعلم أن اللغات كلها ملكات، شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها، بحسب تمام الملكة أو نقصانها ... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة.ولأن القدماء قد ذهبوا إلى أن اللغة العربية، تجري في دماء العرب، فقد أخذوا اللغة عن كل العرب، حتى عن الأطفال والمجانين والنساء، ولكنهم – والحق يقال – شعروا بوجود مستويات مختلفة في اللغة، فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة، والردئ المذموم، والشاذ، والحوشي والغريب، والنادر. وكانت المعايير التي استندوا إليها في ذلك غامضة، فكثيرًا ما تقابلنا في المعاجم عبارات مثل : "وهي اللغة العليا" بلا علة واضحة لهذا الحكم! وعندما بدأ قدامى اللغويين العرب في تدوين اللغة مع غموض معاييرهم وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام : القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والنثر. أما القرآن الكريم : فقالوا إن كل رواياته فصيحة، حتى الشاذ منها، ولو أنه لا يقاس عليها، فهذا هو ابن جني يقول : "غرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه". كما يقول البغدادي : "كلامه – عز اسمه – أفصح كلام وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه".وأما الحديث، فيرفضون الأخذ به في الاستشهاد، محتجين بأنه قد سمحت الرواية فيه بمعناه لا بلفظه، كما أن كثيرًا من رواته كانوا من المولدين. وقد ظل الأمر كذلك، حتى جاء ابن مالك فأجاز الاستشهاد به. ومن أعلام المانعين من الاستشهاد به : ابن الضائع وأبو حيان. أما ابن مالك فقد أخذ مثلاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار" شاهدًا على لغة "أكلوني البراغيث"، وهي اللغة التي تلحق الفعل ضمير تثنية أو جمع، إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعًا. وقد عرفت هذه اللغة بهذا الاسم، لأن سيبويه أول من مثل لها في كتابه، فاختار هذا المثال، فقال : "في قول من قال : أكلوني البراغيث". كما قال : "ومن قال : أكلوني البراغيث، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه"، وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه، فقال : "واعلم أن من العرب من

يقول : قالت فلانة، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة، كما جعلوا للمؤنث، وهي قليلة".قد حكيت هذه اللغة عن قبيلة "بلحارث بن كعب، كما حكاها البصريون عن قبيلة طيئ، وبعض النحويين يحكونها عن قبيلة أزد شنودة. والأصل في اللغات السامية، أن يعامل الفعل فيها معاملته في لغة "أكلوني البراغيث"، وقد بقى من هذا الأصل في العربية، أمثلة في اللهجات المختلفة، كما توجد منه بعض الأمثلة في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأشعار.فمما جاء منه في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ }وقوله تعالى : { ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ } . ومما جاء في الحديث الشريف، قوله صلى الله عليه وسلم : (يعتزلن الحيض المصلى) وقوله : (ما أغبرتا قدما عبد في سبيل الله). ومما جاء في الشعر قول عمرو بن ملقط الطائي الجاهلي :

ألفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه

وقول أحيحة بن الجلاح :

يلومونني في اشتراء النخيـــــــــــــــل أهلي فكلهم يعذل

وقول مجنون ليلى :

ولو أحدقوا بي الإنس والجن كلهم أولى فأولى لك ذا واقيه

وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعد وحميم

وهذه الظاهرة هي الشائعة في كلامنا، في اللهجات العربية الحديثة، كقولنا : "ظلموني الناس". وقد جعل الحريري ذلك من لحن العامة، ورد عليه الشهاب الخفاجي، فقال : "وليس الأمر كما ذكره، فإن هذه لغة قوم من العرب، يجعلون الألف والواو حرفي علامة للتثنية والجمع، والاسم الظاهر فاعلاً، وتعرف بين النحاة بلغة أكلوني البراغيث؛ لأنه مثالها الذي اشتهرت به، وهي لغة طيئ، كما قاله الزمخشري، وقد وقع منها في الآيات والأحاديث وكلام الفصحاء مالا يحصى.

كما عنى ابن مالك بالاستشهاد بالحديث، فقد عنى به كذلك الإمام الرضي، وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت، رضي الله عنهم.

ومن علماء العصور المتأخرة، أمثال الإمام "الشاطبي" من قسم الأحاديث إلى قسمين : قسم يظن أن العناية قد وجهت إلى ألفاظه لغرض خاص، كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم، ككتابه لهمدان، وكتابه لوائل بن حُجر، والأمثال النبوية، فهذا يصح الاستشهاد به في العربية. وقسم يظن أن العناية وجهت فيه إلى المعنى، وقد رأى الشاطبي أنه لا يصح الاستشهاد به مطلقاً.

هذا بالنسبة للقرآن والحديث. أما بالنسبة للشعر، فقد قسم اللغويون الشعراء إلى أربع طبقات :
طبقة الجاهليين : كزهير وطرفة وعمرو بن كلثوم.
طبقة المخضرمين : وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الإسلام كالخنساء وحسان بن ثابت وكعب بن زهير.
طبقة الإسلاميين : كجرير والفرزدق والأخطل.
طبقة المولدين أو المحدثين : وهم يبدءون في العصر العباسي، ببشار بن برد وأبي نواس.
وقد أجمع علماء اللغة على أن شعراء الطبقتين الأوليين، يحتج بشعرهم بغير نزاع. أما الطبقة الثالثة، فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة، غير أن بعضهم كان يأبي الاحتجاج به. وأما الطبقة الرابعة، فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشيء من شعرها، فيما عدا الزمخشري الذي أجاز ذلك. يقول البغدادي : "فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعًا. وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها. وقد كان أبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحاق، والحسن البصري، وعبد الله بن شبرمة، يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ... في عدة أبيات أخذت عليهم ظاهرًا، وكانوا يعدونهم من المولدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم، والمعاصرة حجاب".وقال ابن رشيق : "كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه، بالإضافة إلى من كان قبله. وكان أبو عمرو يقول : لقد أحسن هذا المولد، حتى قد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره – يعني بذلك شعر جرير والفرزدق – فجعله مولدًا، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين. قال الأصمعي : جلست إليه عشر حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي". وأما الطبقة الرابعة، فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم، واختاره الزمخشري، فاستشهد في تفسير أوائل البقرة في الكشاف، ببيت من شعر أبي تمام، وقال : "وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى على قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه".
واعترض عليه بأن قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق، واعتبار القول مبني على معرفة أوضاع اللغة العربية، والإحاطة بقوانينها، ومن البين أن إتقان الرواية، لا يستلزم إتقان الدراية. ويتبين لنا من ذلك أنهم لم يقسموا الشعر على أساس القبائل، بل ارتضوا كل ما نظم من شعر، في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ولكنهم حين تعرضوا للنثر، رأيناهم يسلكون مسلكاً مخالفاً لذلك، فهم يختلفون في الفصيح منه، وغير الفصيح، ويضعون قوائم بأسماء القبائل، التي يصح أخذ النثر عنها؛ ففي القرن الرابع الهجري، نجد أبا نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ)، يضع قائمة بأسماء قبائل معينة، وقد جاء بعده من حذا حذوه أو نقل عنه، حتى جاء ابن خلدون الذي سار

على هديه في ذلك.يقول الفارابي في أول كتابه المسمى الألفاظ والحروف : "كانت قريش أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا وإبانة عما في النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربي، من بين قبائل العرب هم : قيس، وتمي، وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. بالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم، التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام، فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا النمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس، لأنهم كانوا سكان البحرين، مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمان مخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً، لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف، لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء، وأثبتها في كتاب، وصيرها علمًا وصناعة، هم أهل الكوفة والبصرة فقط، من بين أمصار العرب".

كما يقول ابن خلدون في مقدمة كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر"، تحت فصل عنوانه : (فصل في أن اللغة ملكة صناعية) : "ولهذا كانت لغة قريش، أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة، ولخم، وجذام، وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش، كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية".

وإننا حين نستعرض كل تلك الروايات، نستطيع أن نرى فيها أساسين أو عاملين، كانا في ذهن أصحاب هذه الروايات :

الأول : كلما قربت القبيلة من بيئة قريش، كانت أقرب إلى الفصاحة، وإلى الأخذ بكلامها.

الثاني : على قدر توغل القبيلة في البداوة، تكون فصاحتها.

وعلى هذا الأساس نجد ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ)، يضع فصلاً في كتابه "الخصائص" بعنوان : "باب في ترك الأخذ عن أهل المدر، كما أخذ عن أهل الوبر". والمدر والوبر، تقابلان : الحضر والبدو، لأن المدر جمع

مدرة، وهي القرية. وهذا يعني أن العلماء أخذوا يقسمون اللغة، إلى لغة حضرية، وأخرى بدوية، ويعتنون بالثانية ويحتكمون إلى أهلها.
مما يصدق هذا ما رواه السيرافي من قوله : "حدثنا أبو بكر بن دريد، قال : رأيت رجلاً في الوراقين بالبصرة، يفضل كتاب المنطق ليعقوب بن السكيت، ويقدم الكوفيين، فقيل للرياشي، وكان قاعدًا في الوراقين، ما قال؛ فقال : إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب، واكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ، وأكلة الشواريز، أو كلام يشبه هذا".
ويروي السيوطي عن الأندلسي في شرح المفصل، أن "الكوفيين لو سمعوا بيتاً واحدًا، فيه جواز شيء مخالف للأصول، جعلوه أصلاً، بوبوا عليه، بخلاف البصريين". كما يروي عنه كذلك أنه قال : "ومما افتخر به البصريون على الكوفيين، أن قالوا : نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز، وباعة الكوامخ".
ومن العجيب أن هؤلاء البدو، لم يكونوا في ثقافة هؤلاء العلماء، الذين يأخذون اللغة عنهم، ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون أن اللغة تجري في دمائهم، ويجهلون أن اللغة أمر مكتسب، يمكن أن يتقنها غير أهلها، إذا مارسوها طويلاً منذ المولد.وأعجب من هذا أن هؤلاء اللغويين، خلطوا في جمعهم للنثر، بين اللغة العربية الفصحى واللهجات، خلطاً عجيبًا. ويقول "أبو حاتم السجستاني" عن "الكسائي" رأس مدرسة الكوفة في النحو واللغة :
"وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة؛ لأنه كان يلقنهم ما يريد". كما يقول أبو زيد الأنصاري : "قدم علينا الكسائي البصرة، فلقى عيسى والخليل وغيرهما، وأخذ منهم نحوًا كثيرًا، ثم صار على بغداد، فلقى أعراب الحطمة، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله". وقال ابن درستويه : "كان الكسائي يسمع الشاذ، الذي لا يجوز إلا في الضرورة، فيجعله أصلاً، فيقيس عليه، واختلط بأعراب الأبلة، فأفسد بذلك النحو".
ومعلوم أن هذه الآراء كلها، هي آراء البصريين، الذين يختلفون عن الكوفيين في منهج البحث، والمقياس الذي يوضع أساسًا للأخذ عن العرب؛ فقد اختار البصريون قبائل معينة، للأخذ عنها، وتركوا ما عداها، محتجين بفساد لغتها، وكانوا يسمون لغات هذه القبائل باللغات الشاذة التي لا يعمل بها. أما الكوفيون فإنهم كانوا يوثقون كل العرب على السواء، ويعدون كل ما جاء عنهم حجة، فيعتدون بأقوالهم، ويؤسسون عليها نحوهم وقواعدهم.
والواقع أن كلا الفريقين مخطئ في نظرته هذه، إذا كان الخدف هو وضع قواعد للغة الفصحى، أو بعبارة اخرى للغة الأدبية المشتركة بين العرب جميعًا، فلم يكن الفرق بين اللغة المشتركة واللهجات، واضحًا في أذهان اللغويين، في هذه الحقبة من التاريخ، وضوحًا تامًا؛ ولذلك سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة، وهدفهم هو الوصول إلى تفنيد اللغة الأدبية المشتركة، غير أنهم لم يفرقوا فيما أخذوه عن هذه القبائل، بين تلك اللغة المشتركة،

ولهجات الخطاب. ومن هنا جاء الخلط والاضطراب، ورأيناهم يؤولون كل مثال شذ عن قواعدهم. ولم يكن الكوفيون أقل منهم حظاً في الاضطراب والخلط ، لأنهم أخذوا اللغة عن كل العرب، ولم يفرقوا كذلك بين اللغة المشتركة ولهجات الخطاب.

ضرورة الشعر والخطأ في اللغة......

عرفنا من قبل موقف اللغويين العرب من السليقة اللغوية، وأنهم كانوا يرونها مرتبطة بالجنس والوراثة، ولذلك كان كثير منهم لا يجرؤ على تخطئة الشعراء، الذين كان يضطرهم وزن الشعر وموسيقاه، إلى مخالفة النظام اللغوي في بعض الأحيان، سواء في بنية الكلمة أم في الإعراب، ولم يكن كثير من هؤلاء اللغويين والنحويين، يعترف بما يسمى "ضرورة الشعر" فلم يكونوا يتصورون أن يخطئ شاعر في هذه اللغة؛ لأنه يتكلمها بالسليقة في نظرهم، فإذا وجدوا في شعر شاعر خروجًا عن المألوف في القواعد، راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل، ويتكلفون في التأويل والتخريج ما لا يحتمل؛ فإنه مثلاً على الرغم من أن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، قد عاب الفرزدق وخطأه في قوله :

وعض زمان يا بان مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فإننا نجد من النحويين المتأخرين، من يدافع عن الفرزدق، ويلتمس له مخرجًا، كابن الأنباري الذي يقول : "فرفع (مجلف) على الاستئناف، كأنه قال : أو مجلف كذا".

بل إن النحاة سرعان ما غيروا في رواية البيت، لكي يستقيم لهم ما يريدون من وجوه التأويل؛ يقول ابن جنى : "فأما قولهم : وَدَعَ الشيء يدِع – إذا سكن – فاتَّدع، فمسموع متبع. وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يَدِعْ من المال إلا مسحتٌ أو مجلفٌ

فمعنى لم (يَدِعْ)، بكسر الدال : أي لم يتدع ولم يثبت، والجملة بعد (زمان) في موضع جر، لكونها صفة له، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه، وتقديره : لم يدع فيه او لأجله من المال إلا مسحت أو مجلف، فيرتفع (مسحت) بفعله و(مجلف) عطف عليه".

وعلى الرغم مما في كلام ابن جني من التكلف الزائد، وبنائه على رواية مغيرة، لم يقلها الفرزدق نفسه، فإنه يقول بعد ذلك : "وهذا أمر ظاهر، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ما في الرواية الأخرى" ! وقد صدق ابن عبد ربه حين علق على هذا البيت بقوله : "وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي". والدليل عندنا على أن الشاعر، كان يحفل بموسيقى الشعر والقافية، ولا يأبه بالنظام اللغوي دون شعور منه أحيانًا، ما قاله محمد بن سلام في تعليقه على بيت الفرزدق، وعبارته : "وقال أبو عمر بن العلاء : لا أعرف له وجهًا. وكان يونس لا يعرف له وجهًا. قلت له : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه. قال : لا، كان ينشدها على الرفع،

وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع".وقد رأينا من قبل أن ما يسمى "بالإقواء" في الشعر، ليس إلا خطأ في قواعد النحو، يقع فيه الشاعر، لكي يحتفظ بموسيقى القافية في شعره، وإن كان بعض النقاد القدماء، يرون أن الشاعر كان يخالف موسيقى القافية، لكي يصحح النحو، وهذا ما يسمونه "بالإقواء" في نظرهم؛ يقول قدامة بن جعفر، وهو يتحدث عن عيوب القافية : "ومن عيوبها الإقواء، وهو أن يختلف إعراب القوافي، فتكون قافية مرفوعة مثلاً وأخرى مخفوضة، وهذا في شعر الأعراب كثير، وفي من دون الفحول من الشعراء. قال إسحاق : قلت ليونس : عبيد الله ابن الحر يقوي، فقال : الإقواء خير منه. وقد ركب بع ض الفحول الإقواء في مواضع، مثل ما قال سحيم بن وثيل الرياحي :

عذرت البزل إن هي خاطرتني وماذا يدري الشعراء مني
فما بالي وبال ابن اللبون وقد جاوزت رأس الأربعين

فنون الأربعين مفتوحة، ونون اللبون مكسورة، ولكنه كأنه وقف القوافي فلم يحركها. وقال جرير :

عرين من عرينة ليس منا عرفنا جعفرا وبني عبيد
برئت إلى عرينة من عرين وأنكرنا زعانف آخرينا

ويقول ابن رشيق : "وعند أكثر العلماء اختلاف إعراب القوافي إقواء، وهو غير جائز لمولد، وإنما يكون في الضم والكسر، ولا يكون فيه فتح. هذا قول الحامض. وقال ابن جنى : والفتح فيه قبيح جدًا".

هذا هو اتجاه بعض نقاد الشعر. أما النحويون فإنهم كانوا يرون أن الشاعر يلتزم حركة واحدة في القافية، ولا يخطئ مع ذلك في النحو، وحين تزل قدمه في الإعراب يلتمسون له الحيل؛ فيرى ابن هشام أنه يجوز كسر نون جمع المذكر السالم بعد الياء في الشعر، ويخرج على ذلك الشاهدين السابقين، فيقول : "ونون الجمع مفتوحة، وكسرها جائز في الشعر بعد الياء كقوله : وأنكرنا زعانف آخرين، وقوله : وقد حاوزت حد الأربعين.

ويرى الزمخشري والأشموني أنه "قد يجعل إعراب ما يجمع بالواو والنون في النون. واكثر ما يجئ ذلك في الشعر، ويلزم الياء إذ ذاك"، ويخرجان على ذلك بيت سحيم السابق. وهذا معناه أن كلمة : (الأربعين) في هذا البيت، مضاف غليه مجرور بالكسرة في النون. ويعقب الأشموني على ذلك بقوله : "والصحيح أنه لا يطرد، بل يقتصر فيه على السماع".

وإذا اضطر شاعر إلى تسكين بعض الكلمات لضرورة الوزن، فإنه لا يعدم من النحويين، منذ أيام سيبويه، من يطلب له تأويلاً، ويتكلف له قياسًا؛ فإذا قال الراجز :

فاحذر ولا تكتر كريا أهوجا   علجا إذا ساق بنا عفنججا

أو إذا قال العذافر الكندي :

قالت سليمى اشتر لنا دقيقا   وهات خبز البر أو سويقا

أو إذا قال أبو نخيلة :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم   بالدو أمثال السفين العوم

أو إذا قال أمرؤ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب   إنما من الله ولا واغل

أو إذا قال لبيد بن ربيعة :

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أو إذا قال الأقيشر الأسدي :

رحت وفي رجليك ما فيهما   وقد بدا هنك من المئزر

أو إذا قال جرير :

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم   ونهر تيري فلا تعرفكم العرب

أو إذا قال نهشل بن حرى :

فلما تبين غب أمري وأمره   وولت بأعجاز الأمور صدور

أو إذا قال الراعي :

تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

أو إذا قال الشاعر :

من يتق فإن الله معه   ورزق الله مؤتاب وغادي

وإذا سكن هؤلاء الشعراء كلمات : لا تكتر، واشتر، وصاحب، وأشرب، ويرتبط ، وهنك، وتعرفكم، وتبين، وتعرف، ويتق، لضرورة الوزن، فإن سيبويه يرى أن ذلك شبيه بتسكين عين نحو (فخذ) و(عضد)، عند من يسكنها فيهما؛ فيقول : "وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور في الشعر، شبهوا ذلك بكسرة فخذ، حيث حذفوا فقالوا : فخذ وبضمة عضد، حيث حذفوا فقالو : عضد، لأن الرفعة ضمة والجرة كسرة، قال الشاعر :

رحت وفي رجليك ما فيهما   وقد بدا هنك من المئزر

ومما يسكن في الشعر وهو بمنزلة الجرة، إلا أن من قال : فخذ لم يسكن

ذلك. قال الراجز :
إذا اعوججن قلت صاحب قوم   بالدو أمثال السفين العوم
فسألت من ينشد هذا البيت من العرب، فزعم أنه يريد : (صاحبي). وقد يسكن بعضهم في الشعر ويشم. وذلك قول الشاعر امرؤ القيس :
فاليوم أشرب غير مستحقب   إثما من الله ولا واغل
هذا تعليل سيبويه للتسكين في مثل هذه الأبيات؛ لأن الشاعر عنده لا يخطئ، ولا يضحى بالإعراب في سبيل موسيقى الشعر، ذلك ما لم يخطر لسيبويه عى بال؛ ولذلك راح يتأول هذا التسكين، ويلتمس له نظيرًا بين لهجات القبائل.
فإذا اعترض معترض على ذلك بأن (كبدا) و(فخذا) و(عضدا)، وما شابهها، كلمات كاملة، على حين أن نظائرها في هذه الأبيات، عبارة عن نهاية كلمة وبداية أخرى في كثير من الأحيان؛ فإن ابن جنى يرى أن ذلك من معاملة المنفصل معاملة المتصل في العربية، فيقول : "ومن إجراء المنفصل مجرى المتصل قوله : وقد بدا هنك من المئزر، فشبه (هنك) بعضد، فأسكنه كما يسكن نحو ذلك. ومنه : فاليوم أشرب غير مستحقب، كأنه شبه (ربغ) بعضد. وكذلك ما أنشده أبو زيد : قالت سليمى اشتر لنا دقيقا، وهو مشبه بقولهم في عَلِمَ : عَلْمَ : لان (ترل) بوزن علم. وكذلك ما أنشده من قول الراجز : فاحذر ولا تكثر كريا أعوجا؛ لأن (ترك) بوزن علم.
هذا هو رأي سيبويه وابن جنى. أما عبد القادر البغدادي، فإنه يرى "أن الشاعر سكن الراء (في أمثال : اشتر، ولا تكثر)، وهي عين الفعل وكان حقها الكسر؛ كأنه توهم أنها لام الفعل فسكن للأمر".
ونحن نسأل البغدادي صاحب هذا الكلام : لماذا يحدث هذا التوهم في الشعر، ولا يحدث في النثر؟ ولماذا لا نقول إن موسيقى الشعر ووزنه، هي التي اضطرت الشاعر إلى ترك التحريك في المواضع السابقة ؟
ويروي عن الأصمعي أنه عارض سيبويه في رأيه، ورد عليه شواهده؛ يقول حمزه الأصفهاني : "كان سيبويه يحكي عن الخليل، أنه كان يجيز إسكان حرف الإعراب، في الاسم المرفوع والمجرور في الشعر، فعارضه الأصمعي، وقال : ما جاءنا ذلك عن ثبت نعرفه، فأنشده سيبويه للأقيشر :
رحت وفي رجليك ما فيهما   وقد بدا هنك من المئزر
فقال الأصمعي : ليس للأقيشر بيت نعرفه ! فأنشده :
إذا أعوججن قلن صاحب قوم
فقال الاصمعي : ليست الرواية بصحيحة، وإنما روايتنا، قلن صاح قوم".
وقد رويت بعض هذه الأبيات السابقة، بروايات أخرى يبدو فيها جهد الرواة، في محاولة إصلاح الخلل الواقع فيها، بسبب الوزن وموسيقى الشعر؛ فبيت امرؤ القيس مثلا يروي في بعض المصادر :
فاليوم فاشرب غير مستحقب   إثما من الله ولا واغل
بصيغة الأمر للمخاطب، على حين أن امرؤ القيس، يتحدث قبل هذا البيت عن نفسه؛ فيقول :

حلت لي الخمر وكنت امرءًا   عن شربها في شغل شاغل

ولذلك تميل النفس إلى انتظار الفعل المضارع، في البيت الذي بعده، بدلاً من الأمر للمخاطب.

ولهذا السبب ورد البيت، برواية أخرى، فعلن فيها راويها إلى ما أشرنا غليه هنا، على ما يظهر، وهي :

فاليوم أسقي غير مستحقب   إنما من الله ولا واغل

وهي رواية المبرد والبطليوسي، وقد رد علي بن حمزة على المبرد هذه الرواية فقال : "وروى المبرد بيت امرئ القيس : فاليوم أسقي غير مستحقب   إنما من الله ولا واغل

ولم يقل امرؤ القيس إلا : فاليوم أشرب. وهو ممن اشتهر به من تغييره لروايته ... والهرب مما يجئ للشاعر الفصيح في شعره، مما قد جاءت أمثلته لغيره من الفصحاء، جهل من الهارب ".

ويقول ابن جنى في رد رواية المبرد كذلك : "واعتراض ابي العباس في هذا الموضع إنما هو رد للرواية، وتحكم على السماع بالشهوه، مجردةً من النصفة، ونفسه ظلم لا من جعله خصمه. وهذا واضح".

وقد اشتهر المبرد بتغيير الروايات التي لا تعجبه؛ فمن ذلك ما صنعه في بيت جميل :

ألا لا أرى إثنين أحسن شيمة   على حدثان الدهر مني ومن جمل

إذا لم يعجبه قطع همزة (اثنين) لضرورة الوزن، فغير الرواية، وجعل البيت ألا لا أرى خلين؛ لكي يخلص من هذه الضرورة، وادعى أن رواية ألا لا أرى إثنين، ليست بثبت.

ومما اصلحه الرواة من الشواهد السابقة كذلك، قول أبي نخيلة :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم   بالدو امثال السفين العوم

فقد قال فيه الأعلم الشنتمري : "الشاهد فيه تسكين الباء ضرورة، وهو يريد : يا صاحبُ، أو يا صاحبي، تشبيهًا له في حال الوصل به إذا كان في الوقف. وهذا من أقبح الضرورة. ومن لا يرى هذا جائز لينشد : قلت صاح قوم، على الترخيم". وهو يعني بذلك قول الأصمعي السابق في رده على سيبويه.

كذلك توجد رواية أخرى لبيت لبيد بن ربيعة :

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

ففي شرح ديوان لبيد (ص ٣١٣) : "ويروي : أو يعتقي، أي يحتبس". ولا شك أن هذه الرواية، لم يقلها لبيد نفسه، وإنما هي مما صنعه الرواة، ليخلصوا البيت من الخطأ النحوي. ويقول شارح الديوان : "والفعل (يرتبط) في موضع رفع، وجزمه أتعب النحويين في التخريج".

ومما يدلنا على أن الرواة كانت تصلح أشعار الشعراء، ما روى عن الأصمعي أنه قال : "قرأت على خلف شعر جرير، فلما بلغت قوله :

فيالك يومًا خيره قبل شره   تغيب واشيه واقصر عاذله

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يؤول إلى شر ؟ قلت له : كذا قرأته على أبي عمرو، فقال لي : صدقت، وكذا قال لي جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ، فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود لو قال : فيالك يومًا خيره دون شره فاروه هكذا ! فقد كانت الرواة قديمًا تصلح أشعار القدماء. فقلت : والله لا أرويه بعدها إلا هكذا".

ونعود مرة أخرى إلى الضرورات الشعرية، فنقول : إن الشاعر قد يضطره الوزن أيضًا إلى تحريك ما يجب إسكانه، وعندئذ يتأوله النحويون واللغويون؛ لأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن الشاعر قد يفعل ذلك محافظة منه على موسيقى الشعر، وإن كان يخالف اللغة المألوفة.

ومن ذلك ما رواه أبو زيد الأنصاري، من قول الشاعر :

من أي يومي من الموت أفر   أيوم لم يُقدَر أم يوم قُدر

فهو يرى أن الشاعر هنا فتح الراء من (يقدر) وحقها الجزم بلم ؛ لأنه أراد النون الخفيفة فحذفها، أي أن هذا الفعل مؤكد بنون التوكيد الخفيفة، التي حذفت وبقيت الفتحة في الفعل دليلاً عليها.

ويرى بعض النحويين جواز ذلك، وجواز قلب هذه النون ألفاً في الوقف. وقد ضرب ابن الأنباري على ذلك بعض الشواهد، وهو يشرح قول امرئ القيس في مطلع معلقته المشهورة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فهو يرى أن قوله : (قفا) فيها "ثلاثة اقوال، أحدهن : أن يكون خاطب رفيقين له، وهذا مما لا نظر فيه. والقول الثاني : أن يكون خاطب رفيقاً واحدًا وثنى، لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين ... والقول الثالث : أن يكون أراد (قفن) بالنون، فأبد الألف من النون، وأجرى الوصل على الوقف، وأكثر ما يكون هذا في الوقف، وربما أجرى الوصل عليه". ثم ذهب ابن الأنباري يعدد الشواهد على هذا القول الأخير؛ فقال : وأنشد الفراء :

فمهما تشأ منه فزارة تعطكم   ومهما تشأ منه فزارة تمنعا

أراد : تمنعن.

وأنشد الفراء :

فإن لك الأيام رهنٌ بضربة   إذا سُبرت لم تدر من أين تسبرا

أراد : تسبرن. وقال عمر بن أبي ربيعة :

وقمير بدا ابن خمس وعشريــن له قالت الفتاتان قوما

أراد : قومنز وأنشد الفراء :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما   شيخًا على كرسيه معمما

أراد : يعلمن. وقال الأعشى :

وصل على حين العشيات والضحى   ولا تحمد المثرين والله فاحمداأراد : أحمدن.

وهذه الأبيات كلها في نظرنا ضرورة، تحتمها قافية الشاعر المفتوحة. وقد رفض ابن جنى، وهو يعلل لفتح الراء من (يقدر) في البيت الذي رواه أبو زيد فيما سبق – أن تحذف نون التوكيد، وعلل ذلك بأن حذفها فيه "نقض الغرض" إذ كان التوكيد من أماكن الإسهاب والإطناب، والحذف من مظان الاختصار والإيجاز.

ثم لا يعترف ابن جنى بعد ذلك بالضرورة، التي ألجأت هذا الشاعر إلى نصب المجزوم، بل يرتكب مشقة كبيرة في التخريج والتأويل، فيقول : "السكن القول فيه عندي أنه أراد، (أيوم لم يقدر أم يوم قدر)، ثم خفف همزة (أم)، فحذفها وألقى حركتها على راء (يقدر)، فصار تقديره، (أيوم لم يقدر مْ)، ثم أشبع فتحة الراء فصار تقديره، (أيوم لم يقدر أمْ)و واختار الفتحة اتباعًا لفتحة الراء".

وقد ذكر ابن جنى هذا الرأي العجيب بتفصيل أكثر في كتابه : "سر صناعة الإعراب"، وقال بعد الفراغ من عرضه، "فعلى هذا ينبغي أن يحمل عندي قوله : (أيوم لم يقدر أم يوم قدر)، ويكون ارتكابك هذا الذي قد شاعت أمثاله عندهم، وإن كان فيها بعض اللطف والغموض، أسهل وأسوغ من حذفك نون التوكيد، لأمرين :

أحدهما : أن ذلك لم يأت عنهم في بيت غير هذا، فيحمل هذا عليه، فأما ما أنشدوه من قول الآخر :

اضرب عنك الهموم طارقها   ضربك بالسوط قونس الفرس

فمدفوع مصنوع عند عامة أصحابنا، ولا رواية تثبت به.

والآخر : ضعفه وسقوطه في القياس، وذلك أن التوكيد من مواضع الإطناب والإسهاب، ولا يليق به الحذف والاختصار، فإذا كان السماع والقياس جميعًا، يدفعان هذا التأويل، وجب إلغاؤه وإطراحه والعدول عنه إلى غيره، مما قد كثر استعماله ووضع قياسه".

ولا تقتصر الضرورات الشعرية على الإعراب وحده، بل تمتد إلى بنية الكلمة نفسها، فتصيبها بالتغير والتحول؛ فقد تقصر الحركات الطويلة، في مثل قول الأسود بن يعفر :

فالحقت أخراهم طريق <u>ألاهم</u>   كما قيل نجم قد خوى متتابع

وقول رؤية :

وصاني العجاج فيما <u>وصي</u>

وقول أبي عامر جد العباس بن مرداس :

سيفي وما كنا بنجد وما   قرقر قمر <u>الواد</u> بالشاهق

وقول الأعشى :

وأخو <u>الغوان</u> متى يشأ يصر منه   ويكن أعداء بعيد وداد

وقول مضرس بن ربعي الأسدي :

فطرت بمنصلى في يعملات   دوامي <u>الأيد</u> يخبطن السريحا

وقول أبي خراش الهذلي :

ولا أدرِ من ألقى عليه إزاره   خلا أنه قد سل عن ماجد محض

وقول أوس بن حجر :

ولكن أخوك النـاءِ ما كنت آمناً   وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

وقول خفاف بن ندبة :

كنواحِ ريش حمامة نجدية   ومسحت باللقتين عصف الإثمد

وقول الشاعر :

كفاك كف لا تليق درهما   جودا وأخرى تعطِ بالسيف الدما

ففي هذه الأبيات، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة من الكلمات : (اولاهم – وصاني – الوادي – الغواني – الأيدي – أدرى – النائي – نواحي – تعطى)؛ لكي يحتفظ بموسيقى الوزن، وهو أمر لا يجوز إلا إذا جاء في الكلام ساكن بعد هذه الحركة الطويلة؛ فإنها تقصر عندئذ في النطق لا في الكتابة؛ مثل : "يدعو المؤمن إلى الحق"، ومثل "دوامي" في بيت مضرس بن ربعي السابق؛ فإن "الأصل رسم اللفظ، أي كتابته بحروف هجائية، يلفظ بها مع تقدير الابتداء به والوقوف عليه". وإن كانت هذه القاعدة الكتابية، قد شذت عنها مواضع في كتابة المصحف العثماني؛ نظرًا إلى أن قواعد الكتابة، لم تكن قد استقرت بعد في ذلك العصر المبكر، فكتب كتاب المصحف بعض الكلمات القرآنية، حسب النطق بها في الوصل لا في الوقف؛ وذلك مثل قوله تعالى : { وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً } النساء ٤/١٤٦ { كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ } يونس ١٠/١٠٣ { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا } الحج ٢٢/٥٤ { وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ } الروم ٣٠/٥٣ { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } طه ٢٠/١٢ { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ } النمل ٢٧/١٨ { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ } القصص ٢٨/٣٠ { إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى } النازعات ٧٩/١٦ { إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ } يس ٣٦/٢٣ { إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ } الصافات ٣٧/١٦٣ { سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } العلق ٩٦/١٨ { وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ } الإسراء ١٧/١١ { وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ } الشورى ٤٢/٢٤.

وقد فطن إلى هذا الذي قلناه هنا ابن خالويه، فقال عند قوله تعالى : { سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } : "والأصل (سندعو) بالواو، غير أن الواو ساكنة، واستقبلتها اللام الساكنة، فسقطت الواو فبنوا الخط عليه. وقد اسقطوا الواو في المصحف في : (سندع) و(يدع الإنسان) و(يمح الله الباطل) وكذلك الياء في (وادي النمل) و(عن الله لهاد الذين آمنوا) والعلة فيهن ما أنبأتك من بنائهم الخط على الوصل.

أما ابن جنى فيعلل لذلك تعليلاً خاطئاً؛ فيقول : "ويمح الله الباطل، وسندع الزبانية، كتبت في المصحف بلا واو للوقف عليها كذلك"؛ كما يقول كذلك : "ويمح الله الباطل، ويوم يدع الداع، وسندع الزبانية؛ كتب ذلك بغير واو دليلاً في الخط على الوقوف عليه بغير واو في اللفظ؛ لأنه على فرض أن بعض القراء يقف على هذه الكلمات، بتقصير الحركات، فإنه إنما يفعل ذلك؛ لأنها كتبت بدون الواو، لا أنها كتبت بدون الواو، لأنه كان يوقف عليها بتقصير الحركات.

ويذهب الزركشي في تعليل ذلك مذهبًا بعيدًا حين يقول إن الواو "قد سقطت من أربعة أفعال، تنبيهًا على سرعة وقوع الفعل، وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود، أولها : سندع الزبانية، فيه سرعة الفعل، وإجابة الزبانية، وقوة البطش ... وثانيها : ويمح الله الباطل، حذفت منه الواو علامة على سرعة المحو، وقبول الباطل له بسرعة ... وثالثها : ويدع الإنسان بالشر، حذف الواو يدل على أنه سهل عليه، ويسارع فيه، كما يعمل في الخير، وإتيان الشر إليه من جهة ذاته، أقرب إليه من الخير ... ورابعها : يوم يدع الداع، حذف الواو لسرعة الدعاء وسرعة الإجابة".والزركشي بكلامه هذا، يعتقد أن كتاب الوحي، كانوا يرمزون للمعاني الدقيقة، التي حاول هو أن يستنبطها – برموز كتابية مختلفة، وهو ما لم يخطر على بال أحد منهم بلا ريب.

هذا ومن أمثلة تقصير الحركات الطويلة في الشعر، لضرورة الوزن أيضًا : قول رؤية :إذا حاز دوني مصرع الباب المصك

ويقول فيه صاحب لسان العرب : "يحتمل أن يكون عندهم (المصرع) لغة في (المصراع) ويحتمل أن يكون محذوفاً منه.

ومن أمثلة التقصير لضرورة الشعر كذلك قول متمم بن نويرة :

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي لك الويل حر الوجه أو يبك من بكى

وقول آخر :محمد تفسد نفسك كل نفس   إذا ما خفت من شيء تبالاً

ففي هذين البيتين، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة في (يبكي) و(تفدى) فصارتا : (يبك) و(تفد)، لضرورة الوزن، وإن كان النحويون لا يجرؤن على الاعتراف بهذا، ويزعمون أن هذين الفعلين مجزومان بلام الأمر المقدرة؛ يقول سيبويه : "واعلم أن هذه اللام،قد يجوز حذفها في الشعر وتعمل مضمرة، وكأنهم شبهوها بأن إذا عملت مضمرة".

غير أن المبرد لا يعجبه هذا التعليل، فيقول : "والنحويون يجيزون إضمار هذه اللام للشاعر إذا اضطر، ويستشهدون على ذلك بقول متمم بن نويرة ... يريد : أو ليبك من بكى، وقول الآخر ... فلا أرى ذلك على ما قالوا، لأن عوامل الأفعال لا تضمر، وأضعفها الجازمة، لأن الجزم في الأفعال نظير الخفض في الأسماء، ولكن بيت متمم حمل على المعنى، لأنه إذا قال : فاخمشي، فهو في موضع : فلتخمشي، فعطف الثاني على المعنى. وأما هذا البيت الأخير فليس بمعروف، على أنه في كتاب سيبويه على ما ذكرت لك.

ومن أمثلة تقصير الحركات لضرورة الوزن كذلك، قول الشاعر:

في كلت رجليها سلامي واحده   كلتاهما قد قرنت بواحده

وقول الآخر :كلت كفيه تولى دائماً بجيوش من عقاب ونعم

فإن "كلت" في البيتين مقصرة من "كلتا" لضرورة الوزن، وإن كان الكوفيون يرون أنها مفرد "كلتا".

وكما تقصر الحركات لضرورة الوزن، فإنها تطول أحياناً لهذا السبب أيضاً؛ مثال ذلك قول الفرزدق :

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة   نفي الدراهيم تنقاد الصياريف

وقول أبي زبيد :

لها صواهل في صم السلام كما   صاح القسيات في أيدي الصياريف

وقول الفرزدق : فظلا يخيطان الوراق عليهما   بأيديهما من أكل شر طعام

وقول ابن هرمة : وأنت من الغوائل حين ترمى   ومن ذم الرجال بمنتزاح

وقول المفضل النكري : تلاقينا بغيبة ذي طريف   وبعضهم على بعض حنيق

وقول امرئ القيس : كأني بفتخاه الجناحين لقوة   صيود من العقيان طأطأت شيمالي

وقول عنترة : ينباع من ذفري غضوب جسرة   زيافة مثل الفنيق المكدم

وقول عمرو بن الأهتم : وسواعيد يختلين اختلاء   كالمغالي يطرن كل مطير

وقول النابغة الجعدي : وخد كبرقوع الفتاة ملمع   وروقين لما يعدوا أن تقشرا

وقول الراجز :لا عهد لي بنيضال   أصبحت كالشن البال

وقول الشاعر :

وإنني حينما يسري الهوى بصري   من حينما سلككوا أدنو فأنظور

وقول الآخر :   ممكورة جم العظام عطبول   كأن في أنيابها القرنفول

وقول الثالث :   أقول إذخرت على الكلكال   يا ناقتي ما جلت من مجال

وقول الرابع :   أعوذ بالله من العقراب   الشائلات عقد الأذناب

وقول الخامس :   لو أن عمراً هم أن يرقودا   فانهض فشد المئزر المعقودا

ففي هذه الأمثلة السابقة أصبحت : الدراهم الدراهيم، والصيارف الصياريف، والورق الوراق، ومنتزح منتزاح، وحنق حنيق، وشمالي شيمالي، وينبع ينباع، وسواعد سواعيد، وبرقع برقوع، ونضال نيضال، وأنظر أنظور، والقرنفل القرنفول، والكلكل الكلكال، والعقرب العقراب، ويرقد يرقود.
ويرى ابن جنى أن "الدراهيم لا حجة فيه؛ لأنه يجوز أ، يكون جمع درهام، وقد نطقت به العرب قال :
لو أن عندي مائتي درهام   لجاز في آفاقها خاتامي"
وقد نسى ابن جنى أن الذي أنتج صيغة "درهام" في هذا البيت، هو الضرورة كذلك. وأكبر الظن أن "خاتام" بمعنى "خاتم" في البيت السابق، ضرورة هي الأخرى، وإن كان سيبويه يزعم أنها وردت عن العرب، فيقول : "غير أنهم قد قالوا : خاتام، حدثنا بذلك أبو الخطاب". كما يقول المبرد : "فاعال، ونظيره من الكلام : ساباط وخاتام. قال الراجز :
يامي ذات الجورب المنشق   أخذت خاتامي بغير حق"
ومع أن هذه الصيغ الجديدة، قد نشأت في العربية بسبب ضرورة الوزن الشعري؛ فإن أصحاب المعاجم العربية، وقد وضعوها في معاجمهم جنباً إلى جنب، مع الصيغ الأصلية، يقول الجوهري : "الدرهم فارس معرب، وكسر الهاء لغة، وربما قالوا : درهام، كما يقول : "الخاتم والخاتم – بكسر التاء وفتحها – والخيتام والخاتام، كله بمعنى"، ويقول : "والكلكل والكلكال :الصدر".
حقاً قد فطن بعضهم إلى أن السبب في نشوء هذه الصيغ، هو ضرورة الشعر، ففي لسان العرب : "والمعروفالكلكل، وإنما جاء الكلكال في الشعر ضرورة، في قول الراجز :
أقول إذا خرت على الكلكال   يا ناقتي ما جلت من مجال"
وقد وجد بعض اللغويين وجهاً لبيت عنترة السابق، يخلص به من الضرورة، وذلك بجعل (ينباع) في البيت، على وزن ينفعل من البوع، بمعنى السيلان، فقد روى عن ابن الأعرابي أنه قال : "ينباع ينفعل، من باع يبوع، إذا مرمرا لينا فيه تلو. وأنكر أن يكون الأصل في : ينبع، وقال : ينبع، كما ينبع الماء من الأرض، ولم يرد هذا، إنما أراد السيلان وتلويه على رقبتها".
والحق أن هذا التخريج الأخير هو الصواب، فمادة (بوع) بمعنى السيلان مستعملة في اللغة، كما في بيت السفاح بن بكير اليربوعي :
يجمع حلماً وأناة معاً   نمت ينباع انبياع الشجاع
كما يوجد اسم الفاعل منه في قول مزرد بن ضرار :
ومطرد لون السكعوب كأنما   تغشاه منباع من الزيت سائل
كما ورد المضارع أيضاً في المثل العربي : "مخزنبق لينباع" أي ساكن لينبعث.ومع ذلك لم يعجب البغدادي بهذا التخريج، فقال : "وإنكار ابن الأعرابي رواية (ينبع) مردود برواية الثقات. وقوله : ليس المراد ينبع إلخ،

مردود أيضاً فإن (الذفري) هو الموضع الذي يعرق من الإبل خلف الأذن".
أما ابن الشجري فيقول : "أراد : ينبع، يعني العرق، فأشبع فتحة الباء".
ومن أمثلة الصيغ الجديدة، التي نشأت في اللغة، بسبب ضرورة الوزن الشعري وتكاف اللغويون تخريجها وتأويلها، ما رواه أبو عبيد البكري من قول نويرة ابن حصين المازني، يرقي ابنه :

إني أريء الشامتين تجلدى وإني لكالطاوي الجناح على كسر

وعلق عليه بقوله : "جاء بقوله (أريء) على الأصل، راء الرجل الشيء، وأراءه غيره، فهو يرثيه".
ولا يعجب الميمني هذا التعليق، فيقول في الهامش : "ليس على الأصل، وإنما هو من باب القلب : رأى وراء، كنأى وناء، وأراء مقلوب أرى ومضاره يرئ".
والحق أن هذا الفعل، في نظرنا نحن، لم يرد لا على الأصل – كما يقول البكري، ولا على القلب – كما يقول الميمني، وإنما دعت إليه ضرورة الوزن. ولعل الرواية لم تكن على هذا النحو أصلاً. وإنما كانت هكذا :

إني أرى الشامتين تجلدي وإني لكالطاوي الجناح على كسر

بقطع الهمزة في "الشامتين" ضرورة، كما قال لبيد :

أو مذهب جدد على ألواحه الناطق المبروز والمختوم

وإن كانت الرواة قد غيرت بيت لبيد هذا فجعلته هكذا :

أو مذهب جدد على ألواحهن الناطق المبروز والمختوم

قال ابن منظور بعد أن روى البتي على الأصل : "ويروي : على ألواحهن الناطق. وإنما عدل عن ذلك بعض الرواة، استيحاشاً من قطع ألف الوصل، وهذا جائز عند سيبويه في الشعر، ولا سيما في الأنصاف؛ لأنها موضع فصول".كما غيرت الرواة – أو النساخ – بيت نويرة بن حصين السابق إلى:

إني ارى للشامتين تجلدي وإني لكالطاوي الجناح على كسر

والآن، وبعد أن انتهينا من سرد الكثير من الأمثلة، التي تدلل على حرص هؤلاء اللغويين على عدم تخطئة الشعراء، والتماسهم العلل والمعاذير لما وقعوا فيه من الأخطاء اللغوية، بسبب ضرورة الوزن، نحب بعد هذا كله أن ننوه بتلك القلة النادرة من اللغويين، الذين لم يغالوا في تقدير كل ما وصل إلينا، من كلام الشعراء الأقدمين، بل اعترفوا بأن هناك ضرورات اللوزن الشعرية تلجئ الشعراء أحياناً إلى مخالفة المألوف من ألفاظ اللغة وقواعدها.
ومن هؤلاء اللغويين، حمزة بن الحسن الإصهاني (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) الذي يقول : "إنهم وجدوا اللغة العربية على الضد من سائر لغات الأممو لما يتولد فيها مرة بعد مرة، وأن المولد لها قرائح الشعراء، الذين هم أمراء الكلام،بالضرورات التي تمر بهم في المضايق، التي يدفعون إليها، عند حصر المعاني الكثيرة في بيوت ضيقة المساحة، والإعنات الذي يلحقهم عند إقامة القوافي، التي لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة في أواخرها، فلابد أن يدفعهم استيفاء حقوق الصنعة، إلى عسف اللغة بفنون الحيلة، فمرة

يعسفونها بإزالة أمثلة الأسماء والأفعال عما جاءت عيه في الجبلة، لما يدخلون من الحذف عنها أو الزيادة فيها، ومرة بتوليد الألفاظ، على حسب ما تسمو إليه هممهم عند قرض الأشعار".

ويقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ) : "ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فانظر هل تجد فيها قصيدة، تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه، إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه أو إعرابه؟ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة، ومردودة منفية، لكن هذا الظن الجميل، والاعتقاد الحسن ستر عليهم، ونفى الظنة عنهم، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام".

وبعد أن يذكر الجرجاني مجموعة لا بأس بها من أغلاط الشعراء – تقدم بعضها هنا – يقول : ثم تصفحت مع ذلك ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن. تارة بطلب التخفيف عند توالي الحركات، ومرة بالإتباع وتبينت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة، التي يشهد القلب أن المحرك لها، والباعث عليها، شدة إعظام المتقدم، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد، وألفته النفس".

ويأتي ابن فارس اللغوي (المتوفي سنة ٣٩٥ هـ)، فيؤلف ذلك تأليفاً مستقلاً، بعنوان : "ذم الخطأ في الشعر"، وهو عبارة عن رسالة صغيرة في وريقات، يقول فيها : "والذي دعانا إلى هذه المقدمة، أن ناساً من قدماء الشعراء ومن بعدهم أصابوا في أكثر ما نظموه من شعرهم، وأخطأوا في اليسير من ذلك، فجعل ناس من أهل العربية، يوجهون بخطأ الشعراء وجودها، ويتمحلون لذلك تأويلات، حتى صنعوا فيما ذكرنا أبواباً، وصنفوا في ضرورات الشعر كتباً ... قال ابن فارس : فيقال لجماعتهم : ما الوجه في إجارة ما يحوز إذا قاله شاعر؟ وما الفرق بين الشاعر والخطيب والكاتب؟ ... فإن قالوا : لأن الشعراء أمراء الكلام، قيل : ولم لا يكون الخطباء أمراء الكلام؟ وحين جعلنا الشعراء أمراء الكلام، لم أجزنا لهؤلاء الأمراء أن يخطئوا، ويقولوا ما لم يقله غيرهم؟ فإن قالوا : إن الشاعر يضطر إلى ذلك، لأنه يريد إقامة وزن شعره، ولو لم يفعل ذلك لم يستقم شعره، قيل لهم : ومن اضطره أن يقول شعراً لا يستقيم إلا بإعمال الخطأ، ونحن لم نر ولم نسمع بشاعر، اضطره سلطان أو ذو سطوة، بسوط أو سيف، إلى أن يقول في شعره ما لا يحوز وما لا تجيزونه أنتم في كلام غيره؟ فإن قالوا : عن الشاعر يعن له معنى، فلا يمكنه إبرازه إلا بمثل الفظ القبيح المعيب. قيل لهم : هذا اعتذار أقبح وأعيب، وما الذي يمنع الشاعر إذا بنى خمسين بيتاً على الصواب، أن يتجنب ذلك البيت المعيب، ولا يكون في تجنبه ذلك، ما يوقع ذنباً أو يزري بمروءة؟"

إلى أن يقول ابن فارس في آخر الرسالة : "وهذا كثير وليس الغرض إثباته لكثرته وشهرته، ولكن الغرض الإبانة عن أن الشعراء يخطئون كما يخطئ الناس، ويغلطون كما يغلطون. وكل الذي ذكره النحويون في إجازة ذلك والاحتجاج له، جنس من التكلف".

وقد اشار ابن فارس على مذهبه هذا مرة أخرى، في كتابه : "الصحابي"، فقال : "ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما لا يجوز ... وما جعل الله الشعراء معصومين، يوقون الخطأ والغلط، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود".

وأخيراً يرى أبو عبيد الله محمد بن شرف القيرواني (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) أن "من عيوب الشعر اللحن، الذي لا تسعه فسحة العربي، كقول جرير :

ولو ولدت لعنزة جرو كلب لسب بذلك الجرو الكلابا

فنصب (الكلاب) بغير ناصب، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع. وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فرفع (مجلفاً) وحقه النصب، وقد تحيل بعض النحويين أيضاً للفرزدق على وجه، الإقواء أحسن منه، فاحذر منه، وإياك وما يتعذر منه بفسيح العذر، فكيف بضيق؟".

ويهمنا في نهاية هذا الفصل، أن نؤكد مرة أخرى أن هذه الضرورات، التي أشرنا إلى أهمها هنا، ليست إلا أخطاء في اللغة، وخروجاً على النظام المألوف في العربية شعرها ونثرها، بدليل ورود آلاف من الأمثلة الصحيحة لهذه الظواهر في الشعر نفسه، وهذا هو الفرق الوحيد بينها وبين الظواهر التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، والتي يختص الشعر فيها بنماذج معينة، تميزه عن لغة النثر، وهي نماذج يجب أن تحصى باستقراء الأشعار المختلفة، ثم تبنى عليها قواعد للغة الشعر، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل.

المحاضرة الرابعة عشرة

الخط العربي : نشأته، وتطوره، مشكلاته

١ ـ الكتابة ونشأة الخط العربي

الكتابة رمز للغة، كما أن اللغة رمز للفكر. وهي ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة، استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتسجيل خواطره، رغبة منه في تذكرها، أو توصيلها إلى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان. فأفادته في شتى شؤونه الاجتماعية، حتى أننا نعدها أحد أهم اسباب التقدم الحضاري في مختلف المجالات. والثابت أن الكتابة مرت بأطوار عدة، قبل أن تصل

على الطور الهجائي المستخدم في أيامنا هذه. ولا شك في أن مرورها بهذه الأطوار كان يتوافق مع قدرة العقل الإنساني على تقبل فكرة الرمز بديلاً عن الواقع الحسي.ئن أجمع الباحثون على أن الفينيقيين هم الذين نشروا الحروف الهجائية، وعلى أن حروفهم هي أصل كل هجاء، فقد اختلفوا في مكان نشوء الخط العربي، وطريقة وصوله إلى العرب. وأغلب الظن، أن الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي، الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي.والثابت أن العرب – في إطار الجهود التي بذلوها في خدمة لغتهم – تمكنوا من إدخال إصلاحات على خطهم أهمها :

أ – ***الشكل أو العلامات الإعرابية*** : كانت الكتابة العربية، في بدء أمرها، نظامًا قاصرًا إلى حد ملحوظ ، وذلك بسبب عدم احتوائها على رموز مستقلة للحركات القصار، مما أدى إلى انتشار اللحن بين العرب. وقد حاول هؤلاء علاج هذا النقص، فوضعوا، بصبغ يخالف لون المداد، علامات للشكل تساعد على القراءة والفهم. ويرجح أن العرب قد اقتبسوا طريقة الإعراب هذه عن السريان الذين كانوا يلجأون إلى نظام النقط في تشكيل كتبهم بصورة خاصة، والمقدسة منها بصورة أخص.

ب – ***التنقيط :*** ويعرف بنقط الإعجام، ووظيفته التمييز بين الأحرف المتشابهة (ب، ت، ث، ج، ح، خ، ..). وخلاصة الأمر أن نظام النقط كان معروفاً قبل الإسلام، إلا أنه لم يكن يشمل كل الأحرف المنقوطة حاليًا، إذ إن بعض الحروف كانت تستعمل لأكثر من صوت. فلما كثر التصحيف في العراق فزع الحجاج بن يوسف الثقفي، كما يروى، إلى كتابه، في عهد عبد الملك بن مروان، وسألهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة. وبعد التفكير والمراجعة، تقرّر وضع النقط بشكلها الحالي، مع إقرار مبدأ الإهمال والإعجام. كما اتفق على جمع الحروف المتشابهة مما اضطرهم إلى مخالفة الترتيب القديم (أي الترتيب الأبجدي)، والترتيب الذي اتبعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه "العين" (أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، ..) القائم على أساس وضع الحروف المتشابهة بصورة الرسم، بعضها قرب بعض.

ج – ***الحركات*** : يظهر أن الناس اتبعوا في زمن بني أمية الإصلاح الأول (أي نقط الإعراب)، والإصلاح الثاني (أي إعجام الحروف). غير أنهم مالوا في زمن بني العباس إلى أن يجعلوا – تسهيلاً للأمر – الشكل بمداد الكتابة نفسه، لا بصبغ مخالف. وكان من الطبيعي ن يؤدّي هذا إلى اختلاط نظام الشكل بنظام الإعجام، وأن يهدّد من جديد بنوع من اللبس والتصحيف، مما حمل الخليل بن أحمد الفراهيدي، على وضع طريقة أخرى للشكل وهي التي عليها الناس الآن، فأصبح من الممكن كتابة الشكل والإعجام بلون مداد الكتابة نفسه. وهذا العمل، رغم أهميته، صادف صدودًا من بعض العرب، وذلك لأنهم يكرهون إضافة أي شيء إلى خطهم، ويرون في الإعجام و"الإعراب" ازدراء بمعرفة المكتوب إليه وفهمه. لكن الصوت المعارض لهما سرعان ما سكت، إذ أقر العرب بفائدتهما، فقالوا : "اشكلوا قرائن

الآداب لئلا تند عن الصواب"، و"إعجام الكتب يمنع من استعجامها، وشكلها يصون عن إشكالها".

د – *__علامات الوقف أو علامات الإملاء والترقيم__* : لا نعرف بالتحديد زمن إدخال هذه الإصلاحات على الكتابة العربية، والأرجح أنها مستحدثة، عرفها العرب إبان عصر النهضة.

__عيوب الخط العربي__

على الرغم مما أدخل على الخط العربي من إصلاحات، منذ نشأته حتى اليوم، فإنه ما زال يحتفظ بعيوب عدة، كثر الكلام عليها في مطلع عصر النهضة، ولا سيما بعد انتشار الطباعة والمدارس، واطلاع العرب على الخطوط الأجنبية، ورغبة بعضهم في التخلص من صعوبات القراءة والكتابة جميعًا مهما يكن الثمن. وهذه العيوب فصّلها الباحثون استناداً إلى مواصفات الخط المثالي، وتتلخص بما يلي :

أ – *__خلوه من الحروف الصائتة القصيرة__* : وهذه مسألة مبنية في واقع أمرها على نظام الكتابة في العربية. ففي هذا النظام ثلاثة صوائت قصيرة لكل منها روز خاص. فللفتحة رمز هو عبارة عن ألف صغيرة مضطجعة فوق الحرف، وللكسرة رمز آخر هو عبارة عن خط صغير مائل تحت الحرف، وللضمة رمز ثالث هو واو صغيرة توضع فوق الحرف. وهذه الحركات طارئة على الخط، غير داخلة في صلبه بمعنى أن الكتابة كتابتان : واحدة مجرّدة من الحركات، وأخرى مشكلة. وكلتاهما تطرح مسائل وتثير مشاكل. أما الكتابة المجردة من الحركات، فلا تتيسر قراءتها الصحيحة المسترسلة إلا لفئة من خيرة المتعلمين تكون قد فهمت، من قبل، معنى ما تقرأ، ذلك أن للكلمة الواحدة أشكالاً مختلفة من القراءات، ولعل هذا الأمر هو الذي حدا قاسم أمين، على القول : إن القارئ في اللغات الأوروبية يقرأ ليفهم، أما القارئ في اللغة العربية فعليه أن يفهم ليقرأهذا فضلاً عن أن الكتابة المجردة من الحركات، تثير ثلاث مشاكل أخرى :

أولاها أنها تطرح صعوبة قراءة الأعلام الأجنبية أو المصطلحات المعربة وما شاكلها قراءة صحيحة، مما يحمل الباحثين، رفعاً للبس ودفعاً للاضطراب، على إثبات هذه المصطلحات وتلك الأعلام، بالأحرف اللاتينية، مباشرة بعد إثباتها بالعربية.

والثانية أنها تؤدي أحياناً، إلى خداع المعلمين في تصحيح، م يكتبه التلاميذ. فأحياناً يتعمد التلميذ إهمال الشكل، ليحمل الكلمة المكتوبة أوجهاً مختلفة في الأداء، تاركاً للمعلم حرية الاختيار. وغالباً ما تنطلي الحيلة على المعلم، فيقرأ الكلمة على الوجه الصحيح، ظناً منه أن التلميذ قد كتبها على هذا الوجه. والحقيقة أن كثيرين من الكتاب يعيشون على حسن نوايا القراء.

والمشكلة الثالثة، أن هذا الضرب من الكتابة، يساعد على شيوع اللحن، وانحلال الفصحى وانتشار اللهجات.

أما فيما يختص بالكتابة مع "الشكل"، فيبدون أن مشاكلها هي الأخرى كثيرة من أهمها :

إنها تتطلب مجهوداً كبيراً، ووقتاً أطول، وتكاليف باهظة في الطباعة بالنسبة إلى الكتابة دون "الشكل"، أو بالنسبة إلى الخط اللاتيني.

إن حركاتها مجلبة لكثير من الأضرار، لأن الحركة المنفصلة عن الحرف، كثيرًا ما تقع على غير الحرف الذي جاءت له، وذلك لعدم ضبط يد الكاتب الأصلي أو الناسخ أو الطابع.

إنها تجبر القارئ على الإكثار من نقل نظره من السطر إلى ما فوقه، أو إلى ما تحته، باعتبار أن حركات العربية، لا تكون إلا تحت الحرف أو فوقه. وهذا التنقل في حركة العين يُجهد النظر ويكد الذهن.

ب – ***تعدد صور الحرف الواحد*** : لا شك في أن نظام الكتابة في لعربية نظام مثالي ن حيث تخصيص كل وحدة صوتية برمز واحد مستقل. ففي العربية ثمانية وعشرون صوتاً صامتاً يقابلها ثمانية وعشرون رمزاً مختلفاً خُصص كل رمز منها لصوت لا يتعداه. إلا أن تعدد صور الحرف الواحد حسب كونه منفصلاً أو متصلاً، وحسب موقعه من الكلمة، يترتب عليه أضرار عدة منها أنه :

يؤدي إلى صعوبة تعلمه.

يكلف المطابع نفقات باهظة في الحصول على نماذج عدة لكل حرف من حروف الهجاء.

يُرهق عمال المطابع القائمين على صف الحروف، وذلك لكثرة الصناديق المطبعية المخصصة للحروف.

إنه يجعل عمل عمال المطابع عرضة للزلل، مما يُكثر عدد الأخطاء المطبعية في الكتب العربية.

ج – ***تقارب صور الحروف في الرسوم وعدم تميّز بعضها من بعض إلا بالإعجام أو الإهمال أو عدد النقط*** : وهذا التقارب تترتب عليه أضرار عدة منها :

إن رسم الحروف المعجمة يتطلب إسرافاً في الجهد لوضع النقط في أماكنها.

إن القلم كثيراً ما يزل في تدوين هذه النقط، فيغفل بعضها، أو ينقص من عددها أو يزيده، أو ينحرف بها عن موضعها وخاصة في الرسم السريع. ولهذا كثر التصحيف في الرسم العربي، حتى أصبح مادة للفكاهة والتندر.

إن تشابه الحروف وكثرة النقط، يؤدي إلى جهد النظر، وكد الذهب للتفريق بينها. وأحياناً تطغى النقط على الحروف، حتى يكاد القارئ لا يرى سوى النقط.

بالإضافة إلى عيوب الخط العربي، تأتي عيوب الإملاء، ومنها كتابة الألف "ياء" مهملة أحياناً، وإسقاط حرف المد في رسم بعض الكلمات، ومنها أيضاً طريقة كتابة الهمزة وما فيها من قواعد وما حول رسمها من اختلاف، وكتابة المدة، وطريقة كتابة الألف والتاء في آخر الكلمة، وكتابة "إذاً" ... إلخ.

٣ – دعوات إصلاح الخط العربي

أمام عيوب الخط العربي الآنفة الذكر، رأى مجمع اللغة العربية، أن يأخذ على عاتقه مسألة تيسيره، فشكل في السنة ١٩٣٨ لجنة لدراسة هذا الموضوع. لكن هذه اللجنة لم تخلص إلى نتيجة تذكر. وقد تقدم عبد العزيز فهمي بمشروع، يقضي بتبني الحروف اللاتينية في الكتابة العربية، كما تقدم علي الجارم، بمشروع آخر، يتعلق بتيسير الخط العربي، فناقش المجمع المشروعين في عدة جلسات، ثم قرر طبعهما مع ما دار حولهما من نقاش، وعرض ذلك كله على الدول العربية. كما قرر وضع جائزة قدرها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة. وما أن أعلنت المسابقة حتى تلقى المجمع أكثر من مئتي مقترح، فتولت لجنة فنية دراستها، وقضت في ذلك عدة سنوات، دون أن تتوصل إلى نتائج تذكر. أما الاقتراحات فيمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسين :

أ – قسم يطالب بإجراء إصلاحات شكلية، لا تمس جوهر اللغة، ولا صورة الرسم الحاضر. وقد ظهرت في هذا القسم ثلاثة اتجاهات :

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة الحركات فقط ويمكن أن تصنف فيه كل من اقتراحات أحمد لطفي السيد، وعلي الجارم، والجنيدي خليفة، وأنستاس الكرملي، وعبد المجيد التاجي الفاروقي، والشيخ عبد الله العلايلي.

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة تعدد رسم الحرف الواحد. ويصح أن يصنف فيه اقتراح المهندس نصري خطار، ومحمود تيمور.

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلتي الحركات وتعدد رسم الحرف الواحد في آن معاً. ويمكن أن تصنف فيه كل من اقتراح علي عبد الواحد وافي، ونجيب مخول.

ب – قسم آخر يريد إدخال تغيير جوهري في اللغة نفسها وفي صورة رسمها.

وفي هذا القسم يمكننا أن نصنف الدعوة إلى الحرف اللاتيني التي شارك فيها الكثيرون، والتي سنؤثرها بالدرس نظراً لكثرة الداعين إليها، ولما دار حولها من مناقشات.

٤ – الدعوة إلى اللاتينية

إن الدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني، قديمة نسبياً تعود إلى السنة ١٨٨٠ عندما اقترح ولهام سبيتا (Wilhelm Spitta) الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك، كتابة العامية التي يدعو إليها بالحرف اللاتيني. وقد أثبت سبيتا كذلك في كتابه "قواعد العربية العامية في مصر" جدولاً مقارناً بين الحروف العربية والحروف اللاتينية المقترحة.

وفي السنتين ١٨٩٠ و١٩٠١ نهج كل من كارل فولرس (K. Vollers) وكان أيضاً مديراً لدار الكتب المصرية يومذاك، والقاضي الإنكليزي في مصر سلدن ولمور (Seldon Willmore)، نهج سبيتا نفسه في الدعوة إلى

العامية وإلى الحرف اللاتيني على حد سواء. لكن يبدو أن هذه الدعوة لم تظهر ظهوراً ملفتاً للنظر إلا في السنة ١٩٤٣، عندما اقترح عبد العزيز فهمي، على مجمع اللغة العربية في القاهرة، استخدام الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي، متمثلاً بما فعله مصطفى كمال في تركيا. ولقد درس المجمع اقتراح فهمي، ثم قرر طبعه مع ما دار حوله من مناقشات، لعرض ذلك كله على الدول العربية. وبعد انتشار المشروع كثر الداعون إلى تبني الحرف اللاتيني، ولكن يظهر أن الذين تخطوا مجرد الدعوة إلى تقديم المقترحات بشأنها، بقوا قلة ضئيلة.وأول ما يسترعي النظر في هذا الموضوع، هو أن الدعوة إلى الحرف اللاتيني، قد اقترنت باسم عبد العزيز فهمي، نظراً للمجهود الكبير الذي بذله فهمي، سواء في شرح طريقته وتعداد مزاياها، أم في الدفاع عنها وإغراء الناس بقبولها. واقتراح فهمي يقضي :

بالإبقاء على عشرة أحرف عربية، لا نظير لها في الأبجدية اللاتينية وهي : أ، ج، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، غز

بالاستعاضة عن الأحرف العربية : ب، ث، د، ر، ظ، س، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي بالأحرف اللاتينية : b, t, d, r, z, s, f, q, l, m, n, h, w, y.

بإدخال زوائد على بعض الحروف اللاتينية، كي تؤدي بمفردها نغمات الحروف العربية المقابلة. فقد استعمل فهمي لصوت الألف الحرف اللاتيني (a)، وفوقه علامة القربوسية (^) هكذا (â)، ولحرف الثاء، الحرف اللاتيني (t) على أن يكون في رأسه شرطتان متصالبتان (T)، بدل شرطة واحدة. كما استعمل للذال الحرف (d)، مع شرطة أفقية فوقه (d)، وللشين حرف (s) مع شرطة أفقية فوقه (s).

إضافة الأحرف اللاتينية x, e, v, p, j, g التي لا شبيه لنغمتها في العربية، وذلك لكتابة الأعلام الأجنبية والمصطلحات العلمية وغيرها مما نعربه.

باعتماد الصوائت اللاتينية نيابة عن علامة الحركات. فتكون (a) علامة الفتحة، و(u) علامة الضمة، و(i) علامة الكسرة. أما السكون فلا محل لوضع أي علامة لها. أما الشدة فيستغنى عنها بتكرار الحرف المشدد. وأما التنوين فيكفي لتشخيصه إتباع حرف الحركة بحرف نون صغيرة أمامه ومن أعلى، كما أجاز عبد العزيز فهمي أن يرسم التنوين بعلاماته العربية.

بالاستعاضة عن همزة الوصل بالشولة الفرنسية (La Virgule) (,) بديلاً عنها، على أن توضع أعلى بقليل من سطر الكتابة.

بعدم كتابة الهمزة إن وقعت في أول الكلمة، والاكتفاء بكتابة الألف أو حرف الحركة.ولقد أحصى فهمي بطريقته هذه في الكتابةو ست عشرة مزية، تتلخص في أنها :

تؤدي جميع نغمات الحروف العربية وبحرف واحد، لا يشترك غيره معه في أدائه.لا يكثر فيها النقط ولا تختلف أعداده ولا وجهات مواضعه.

تحصر أداء الكلمة في وج واحد لا يحتمل شكاً ولا إشراكاً.

تحافظ على جوهر هياكل الحروف.
تسهل التعلم والتعليم.
تجنب المعلمين خداع التلاميذ الذين يكتبون الكلمة بطريقتهم الخالية من الشكل، محتملة لأوجه مختلفة في الأداء.
تجنب القراء خداع الكتاب الذين يعيشون على حساب سلامة نية القراء.
تتيح للطفل تعلم القراءة والكتابة في زمن وجيز.
تساعد على التعلم، لأن الطفل متى تعود من صغره على صحة النطق بالألفاظ العربية، أصبحت هذه الصحة عادة له في كتابته وقراءته، وانمحت من خلايا مخه الأوضاع غير الصحيحة.
تساعد على تعلم أي لغة من اللغات التي تكتب بالحرف اللاتيني، وذلك بسبب توحيد أشكال الحروف بينها وبين العربية.
تسهل قراءة الأعلام الأجنبية المعربة والاصطلاحات العلمية.
تسهل على الأجانب تعلم العربية وتمنعهم من تشويه أعلامنا.
تحث الأجانب على اتخاذ حروفنا المفردة بدل مركباتهم المزجية وفي هذا تسهيل علينا لفهم ما يقصدون.
تسهل الطباعة تسهيلاً كلياً علينا وعلى غيرنا ممن يطبعون شيئاً من نصوصنا العربية.
تطمئن مؤلفي الكتب الأدبية وتؤمنهم مما يتقون من تصحيف الطابعين والقارئين، وتوفر عليهم م نجده في كتبهم من قولهم تحديداً لنغمة الحروف وحركاتها: "بالنون"، بالتاء المثناة، بالباء الموحدة ... إلخ.

٥ ــ أضرار الدعوة إلى اللاتينية

إن تبني الحرف اللاتيني في الكتابة العربية، يلحق ضرراً بالغاً في اللغة العربية وأهلها. وقبل تفصيل أضراره وعيوبه، لابد من الإشارة إلى أن بعض الذين هاجموا الدعوة إلى الحرف اللاتيني، وقعوا في خطأ منهجي. فهم، بدلاً من أن يظهروا عيوب الدعوة بحد ذاتها، راحوا يكشفون صعوبات الإملاء اللاتيني، مشددين على الإملاء الفرنسي والإنكليزي خاصة. ولا تشتمل طريقة فهمي في الكتابة على أي صعوبة من هذا النوع لأنها كتابة فونتيكية لا تاريخية. أما أضرار هذه الدعوة وعيوبها فتتلخص بما يلي :
تقطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها، إذ تحول عاجلاً أم آجلاً بين الأجيال القادمة والانتفاع من التراث العربي الذي هو جزء من كيان الأمة العربية وأحد مقوماتها الأساسية. وقطع الصلة بالتراث لا يؤدي إلى ضعف الوحدة العربية وحسب، بل يحرمنا أيضاً من مكتبة ثمينة ونفيسة تركها الأسلاف، فيها ثمرات عقولهم، ونتائج بحوثهم، وتواريخ أيامهم، ودواوين شعرائهم، وبنات أفكار كتابهم، ووصف أحوالهم. وربما يرى بعضهم أنه بالإمكان تلافي هذا العيب بترجمة الكتب العربية إلى الرسم الجديد. إلا أن الترجمة فات أوانها، إذ لو جاءت قبل النهضة العربية أيام العباسيين، لأمكن

قبولها. أما اليوم فإن خزائن الدول العربية مجتمعة قد تعجز عن رصد الأموال اللازمة لنقل كل التراث إلى الخط اللاتيني، خاصة أنه قد طبع من الكتب العربية، بعد اقتراح فهمي، ما يفوق أضعاف ما كتب بالرسم العربي، منذ نشأة هذا الرسم حتى زمن اقتراحه.

تضطرنا إلى زيادة الحروف، حتى تبلغ ضعفها في كلمات كثيرة، فإذا أردنا أن نكتب الفعل (كتب) مثلاً المكون من ثلاثة أحرف، بالرسم اللاتيني، يكون على هذه الصورة (Kataba) أي أن عدد الحروف يتضاعف فيصبح ستة. وهذه الزيادة في الحروف تؤدي بلا شك، إلى إسراف في الحبر والورق والوقت والمجهود ونفقات الطباعة.تؤدي إلى زوال فنون الخط العربي وزخرفاته. ففي الخط العربي مزية قل أن توجد في خطوط الأمم الأخرى، وهي إمكانية زخرفته على وجوه عدة. ولقد استطاع الكاتبون المجوِّدون والمزخرفون أن يستخرجوا منه أنماطاً زخرفية غاية في الإبداع.تيسر القراءة دون الكتابة، مع أن الكتابة هي الأصل فيما يقرأ. ولا شك في أن الخطأ في النطق أهون ضرراً من الخطأ المكتوب، لأن كتابة الخطأ تحافظ على خطأ النطق فضلاً عن أنها تسجله وتبقيه. وهكذا فلابد في جميع الأحوال، من إتقان اللغة إتقاناً جيداً تنتفي معه حاجتنا إلى الحرف اللاتيني كي نقرأ قراءة صحيحة.لا تعفينا البتة من النقط والشكل، وإنما تعود بنا إلى النقط في بعض الحروف (ج، خ، ض، ظ، غ، i، j) وإلى ما يشبه الشكل في بعض الحروف (â،T،d،s، والشولة الفرنسية (,)) كما أنها لا تعفينا من مشكلة الحروف المتشابهة الشكل، التي قد توقع في الالتباس (ج، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، a، â، d،d، t، t).لا تساعد الأجانب على تعلم لغتنا، لأنهم سيواجهون في هذه الطريقة حروفاً عربية غريبة عليهم، وحروفاً لاتينية معدلة مثل (â،T،d) على غير ما ألفوه.لا تنقص عدد أشكال الحروف في الآلة الكاتبة، بل تزيدها. ذلك أن عدد صور الحروف العربية أربعة وستون حرفاً في هذه الآلة. أما في طريقة فهمي، فإن هذا العدد يرتفع إلى السبعين، إذ أن عدد حروف هذه الطريقة خمسة وثلاثون، ولكل حرف منها شكلان : كبير (Majuscule) وصغير (Minuscule).تشوه الكتابة بخلطها الحروف العربية بالحروف اللاتينية.تضعنا أمام احتمال تبدل معنى اللفظة الواحدة، إذ لا تفرق بين الصوت الذي هو حركة، والإشباع الذي هو حرف علة، ومن ثم يصبح اللفظين كـ(رمى) و(رام) مثلاً صورة واحدة في كتابة "Rama".قد تفسد الإيقاع الخاص بالقصيدة، فتؤدي بالتالي إلى فساد أوزان الشعر. وإن كان بعضهم يعتبر الكتابة عرضاً طارئاً، في اللغة، وأنها ليست من اللغة بل مجرد إناء لها، فلابد من الإشارة إلى أن تغيير هذا الإناء، وخاصة في اللغة العربية، يؤدي إلى المساس بالمحتوى نفسه.قد تطرح باضطرارها على وضع أشكال لاتبينية جديدة لحروف عربية لا نجد لها نظائر في اللاتينية مشكلتين : أولاهما صعوبة القراءة في هذا الجيل على الأقل، وثانيتهما الفوضى في الكتابات المقترحة، ذلك أن هذه الطريقة وليدة اجتهاد شخصي،

فهي بالتالي، مدعاة لاقتراحات عدة تطورها.إنها لا تمنع من تعدد اللهجات، ومن اختلاف القراءات للكلم الواحدة، فالحرف اللاتيني لم يحل دون تشعب اللغة اللاتينية إلى عدة لغات، كما أنه لم يمنع نشوء اللهجات المختلف في كل من هذه اللغات.وهكذا نرى أن طريقة عبد العزيز فهمي في الكتابة تبقي على معظم عيوب الخط العربي، وهي، إن جاءت لتساهم بحل بعض مشاكل هذا الخط، فما برحت تطرح لنا مشاكل أكبر لعل من أهمها، مشكلة قطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها. وقد تكون هذه المشكلة وحدها كافية لرفض أي دعوة إلى اللاتينية.

٦ – بعض الاقتراحات للتخفيف من مشكلات الخط العربي

رفض اقتراح فهمي، لا يعني الدعوة إلى إقفال باب الاجتهاد في إصلاح الخط، على ما فيه من عيوب، أو الحؤول دون استنباط خط بديل يزيل هذه العيوب دون أن يحرمنا الانتفاع بالتراث، ودون أن يوقعنا بمشكلات أعظم. وإلى أن نجد هذا الخط البديل، ندعو إلى الأمور التالية :

العناية بتعليم الخط في مدارسنا الابتدائية، عنايتنا بتعليم المواد التعليمية الأخرى، وتعويد الأطفال وتدريبهم على الكتابة الجميلة منذ الصغر.

إيلاء أمور اللغة مزيداً من الاهتمام، وتدريسها وفق أحدث الوسائل التربوية، لتمكين المتعلم من تخطي صعوبات القراءة.

ضبط الآيات القرآنية بالشكل الكاملفي جميع مراحل التعليم.

التزام الشكل في الكتب المدرسية الابتدائية، إلا ما لا مجال لخطأ التلميذ فيه، حتى يرسخ في ذهنه نطق الكلمة الصحيح، ثم التخفيف من هذا الشكل في المرحلة الثانوية قدر الإمكان، إلا فيما يتوقع خطأ التلميذ فيه.

ضبط كل حرف من الكلمة يؤدي تغيير حركته إلى تغيير معناها.

استبدال الأرقام العربية (... 0, 1, 2, 3, 4, 5,) إلخ) بالأرقام الهندية (٠، ١، ٢، ٣، ٤، ... إلخ)، لنتخلص من التباس الرقم "٢" بالرقم "٣" والرقم صفر "٠" بالنقطة، ولنقترب من التوحيد العالمي للأرقام.

استعمال الرمز، كأن نستعمل رمز "ص.ب." لصندوق البريد و"ج. ع. م." للجمهورية العربية المتحدة، وتعميم هذه الاستعمال ليشمل الأسماء الدولية التي يستخدم الرمز في اللغات الأجنبية مثل "USA" و"URSS" وغيرهما.

انتهى والحمد لله

هذه هي الاربعة عشر محاضرة كما وضعها الدكتور قمت بتحويل محتواها من البوربوينت الى محتوى مطبوع

وفقني الله واياكم لما يحب ويرضى .

لاتنسونا من صالح دعائكم